الدكتور علي الوردي

من وحي الثمانين



جمع وتعليق
سلام الشماع

مؤسسة البلاغ



من وحي الثمانين

من وحي الثمانين

تأليف

الدكتور علي الوردي

جمع وتعليق

سلام الشماع

مؤسسة البلاغ

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م

مؤسسة البلاغ

للطباعة والنشر والتوزيع

المكتب بئر العبد سنتر الإنماء ١ - ط٢ المستودع : حي الأبيض - شارع القائم

ص.ب : ١١-٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠-١١٠٧- هاتف : (٠٢/٥١٤٩٠٥) - تلفاكس : ٠١/٥٥٢١١٩ لبنان

الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com

E-mail : Albalagh-est@hotmail.com

الإهـداء

- إليك أيها الوردي الكبير

وأنت تشرف من كوة في العالم الآخر

وتنظر إلينا ونحن نتخبط في فوضى عارمة خلقها عدم اســتماعنا إلى ما قضيت عمرك تقوله وتكتبه وتكرره على مسامعنا..

لقد عادت قيم البداوة بأبشع صورها وكشرت عن أنيابها لتــنهش المجتمع المتمدن الذي كرست حياتك لتبنيه..

عادت هذه القيم البالية.. ولكن.. بفعل فاعل هذه المرة..!!

أيها الوردي .. كم نحن محتاجون إليك الآن..

أيها الوردي .. كم من داء عالجته فعاد وانتشر بيننا من بعدك..

أيها الوردي .. كم أصبح العالم أسود من بعدك..!!

سلام

مقدمة الطبعة الثانية

لم تكن الطبعة الأولى من هذا الكتاب بهذه السعة، إذ كنت أخرجتها على عجل، لتنشر في الذكرى السنوية الأولى لرحيل العلامة الدكتور علي الوردي، فقد كانت إقامة احتفاء واسع كبير ليس ممكنا في عام ١٩٩٦ بسبب الحصار الاقتصادي الذي كان مفروضاً على العراق، وانشغال الناس بالصعوبات الاقتصادية، التي كانوا يعانون منها، فكان إصدار هذا الكتاب سداً للنقص ومحاولة للوفاء لذكرى الدكتور الوردي، وعدَّ الكثيرون إصدار الكتاب في ذلك الوقت نذير خطر عليَّ للموقف الضبابي الذي كانت تقفه السلطة من الدكتور علي الوردي.

والواقع أن أحداً لم يتعرَّض لي ولم يسألني.. قدَّمت مسودة الكتاب إلى وزارة الإعلام وتولى مراقبة محتوياته المفكر العراقي الراحل محيي الدين إسماعيل وأجازه فوراً.

طُبِع ذلك الكتاب بمشاركة مالية مع السيد محمد بن الشيخ عيسى الخاقاني، الذي كان يدير المجلس الثقافي لوالده في الكاظمية، والطبيب الدكتور حسان، نجل الراحل الوردي، وعندما أنجز طبع الكتاب جاء من اشترى نسخه من المطبعة وباعها في الأسواق، وعلى الرغم من صعوبات تلك الفترة فإن نسخ الطبعة الأولى نفدت بسرعة.

الوردي، بالنسبة للقارئ العراقي والعربي، يعني كثيراً، فقد ظلت كتبه منذ صدور كتيبه الأول (شخصية الفرد العراقي) عام ١٩٥١ حتى الآن الأكثر مبيعاً في الأسواق، لذلك نرى أن دور نشر عديدة، اليوم، تتنافس على إعادة طبع جميع كتبه.

بعد إحدى عشرة سنة، وخلال إقامتي في دمشق، بسبب الأوضاع المضطربة التي خلقها احتلال العراق، وبمعاونة سخية من الصديق الشاعر محمد البغدادي أنجزت الطبعة الثانية من الكتاب وأضفت إليها تعليقات كثيرة وكلمة عن الراحل الوردي كتبها، بطلب مني، الشاعر الراحل عبد الأمير الورد، كما أضفت إليها ملاحق مهمة منها مقابلة نادرة أجرتها له مجلة (قرندل) الساخرة التي أصدرها الصحفي العراقي الرائد صادق الأزدي في أربعينات وخمسينات القرن الماضي، وملحق ثانٍ أدرجت فيه نص خبر صحفي صاغه الوردي بأسلوبه الساخر وخطه الجميل يشكو فيه حظه لرئيس جامعة بغداد، وملحق آخر ضمَّ مقابلة أجريتها مع الوردي لمجلة (الأفق) الأردنية، التي كنت مراسلاً لها في بغداد في تسعينات القرن الماضي، فضلاً عن عمود صحفي كتبته مع إنجاز هذه الطبعة في جريدة (الصوت) العراقية التي تصدر في دمشق، وملحق أخير ضمَّ مقالة كتبها الزميل الصحفي الشاعر والناقد بشير حاجم ونشرها في جريدة الثورة البغدادية في أواخر عام ١٩٩٦ بمناسبة صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، بالإضافة إلى ما قاله أعلام كبار عن الوردي. وقبل هذا وذاك فإنني حاولتُ أن أوثق ذكرياتي الشخصية مع الوردي الكبير من خلال التعليقات التي وضعتها في هوامش هذه الطبعة.

إنني إذ أقدم للمكتبة العراقية والعربية هذا الجهد المتواضع أشعر بفخر كبير وتصميم أكبر على مواصلة مشوار الوفاء للوردي الكبير بنشر كل آثاره غير المنشورة في كتاب من قبلُ.

وأتوجه بالشكر الجزيل لسماحة آية الله الشيخ عيسى الخاقاني الذي قدم لي أنواع الدعم للعمل في هذا الكتاب، من بينها أن سماحته فتح أمامي مكتبته الخاصة وفاء لذكرى صديقه الراحل المرحوم علي الوردي.

ولا أنسى أن أتقدم بالشكر الجزيل لزوجي وزميلتي الصحفية السيدة رمزية محمد علي التي خاطرت بنفسها من أجل الوصول إلى العراق وجلب مسودات هذا الكتاب وبعض الوثائق الأخرى المهمة لإنجاز العمل والأعمال اللاحقة التي ستصدر بعده إن شاء الله.

أتمنى أن تنال هذه الطبعة رضا القراء، راجياً أن لا يبخلوا عليَّ بما يعنُّ لهم من ملاحظات، أو ما يملكونه من وثائق وحكايات تخص الوردي لنشرها على هذه السلسلة، فلست أزعم أنني محيطٌ بكل تراث هذا الرجل العظيم الذي ملأ الدنيا وشغل الناس.

سلام الشماع

دمشق ١٣/٧/٢٠٠٧

المفتـــاح

بقلم المرحوم

الدكتور عبد الأمير الورد(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين على ما منع وما ومنح، وصلوات الله تعـالى وسلامه على أشرف خلقه وخاتم أنبيائه ورسله حبيبه محمد بن عبد الله وآله الطيبين الطاهرين وأصحابه المنتجبين ومن اهتدى بهديه ودعا إليه إلى يوم الدين.

---

(١) هو المرحوم الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد، أستاذ اللغـة العربيـة فـي الجامعات العراقية والليبية واليمنية، وشاعر فذ، وممثل مـسرحي وتلفزيـوني، شارك في تمثيل وإعداد عدد من المسلسلات والبرامج التلفزيونية الناجحة، توفي في بغداد فجر ١٣ تموز عام ٢٠٠٦، ويصادف هذا التوقيـت الـذكرى الحاديـة عشر لوفاة الدكتور علي الوردي التي كانت فجر اليوم والشهر ذاتـه مـن سـنة ١٩٩٥.

(١)

للكلام على علي الوردي مجالات كثيرة.

الرجل ليس شاعراً.. ولا فناناً.. ولا قائداً سياسياً.. ولكنه ملأ الدنيا وشغل الناس بأوسع مما فعله أي شاعر أو فنان أو ذو فكر سياسي. وصارت كتاباته مراجع في المجتمع العراقي بالدرجة الأولى.. فالعربي بالدرجة الثانية. وقيل: إن كتابه عن طبيعة المجتمع العراقي تُرجِم في فنزويلا ووضع موضع التدريس لتشابه ما بين المجتمعين.

وتعدت شهرته بلده حتى دعي إلى إلقاء المحاضرات والمناقشات العلمية الجامعية في أوروبا وشمال أفريقيا.

ومَن يتتبع سيرته العلمية الجامعية لا يستغرب ذلك.

كان طالباً في جامعة تكساس يدرس علم الاجتماع. وقيل إن رئيس الجامعة هو رئيس قسمه وأستاذه. وكان عمدة مدينة نيويورك صديقاً للأستاذ فدعاه إلى إلقاء محاضرة علمية، أعلن عنها ودعا إليها. وفي اللحظات الأخيرة تهبط على الرجل مشاغل تمنعه من السفر فاتصل بعمدة نيويورك صديقه طالباً منه عدم تأجيل المحاضرة أو تغيير موعدها قائلا له: سأرسل لك أميز الطلبة الدارسين عليَّ لإلقاء المحاضرة. وكان هذا الطالب هو علي الوردي.

وألقى المحاضرة واستولى على إعجاب الحاضرين الشديد مما دعا عمدة نيويورك إلى تكريمه بمنحه شهادة مواطن شرف، أمريكي ومفتاح مدينة نيويورك.

هذا الرجل الذي فعل هذا الفعل كان يعتمد منذ بواكير فتوته على عين

واحدة، حيث أصيبت إحدى عينيه – ولا أدري أيتهما لدقة التجميل الذي أجري لها – بداء (الهيرابلكس) الذي لم يكن له يومئذ علاج، فكان يؤدي إلى نشوء طبقة بيضاء ناتئة على الحدقة تمنع الرؤية، وهو داء أصيب به من قبله عمه السيد عباس وأصيب به كاتب هذه السطور والفنان بسام الورد والدكتور زكي الوردي. ولكن العلاجات الحديثة أوقفت مظاهر هذا المرض وأدت في أحيان إلى النجاة منه تماماً.

وعندما أصيبت عينه منعه أبوه من الدراسة، فاشتغل فتى بائعاً عند عطار، وكان عندئذ في السنة الرابعة الابتدائية.

ثم جاءه من يعلمه بوجود دراسة مسائية فانتسب إليها.

وفي المدرسة الابتدائية – الصباحية قبل انقطاعه، أو المسائية بعد عودته – التقى المدرِّس مصطفى جواد[١] (العلامة فيما بعد) رحمه الله، الذي رأى اسمه (علي حسين الورد) فسأله: ما هذا اللقب؟ فقال: لقب الأسرة. فقال الأستاذ: النسب إلى الورد الورديّ.

وهكذا كان عليٌّ الوردي أول من وضع ياء النسب في لقب الأسرة، فتابعه في ذلك بعض، وامتنع عن ذلك بعض.

وحقيقة اللقب هو (آل أبي الورد)، ثم اختصر فصار (آل الورد)، ثم اختصر فصار (الورد).

إنه عليّ بن حسين بن محسن بن هاشم بن جواد.

---

(١) أستاذ اللغة العربية في العراق وأحد أهم اللغويين العرب في القرن العشرين. كتب الكثير من الأبحاث والكتب عن اللغة العربية وتحديثها وتبسيطها. كان له برنامج مهم في التلفزيون العراقي بعنوان "قل ولا تقل" . توفي في العام ١٩٦٩.

كان جواد تاجر لؤلؤ ثم نُكِب في تجارته فافتقر ولشدة اشتهاره بالثروة قالت إحداهن في رثاء إحدى حفيداته (بالعامية العراقية):

عِلْوِيَّة ونَجيبة ومنْ نَسِلْ زُهَّـادْ جَدْها أبو الدولة چان سَـيْدْ جـواد

وتعلَّم هاشم ابنه مهنة استخلاص ماء الورد، وسائر مياه الأزاهير من أخواله أسرة آل بليبل من الأسر الكاظمية المشتهرة، ثم كان بعد ذلك من خطباء المنبر الحسيني.

وتروي والدتي أنها في صغرها كانت تسمع الأسر الدينية لآل الصدر وآل ياسين وغيرهم يسمون أسرة السيد هاشم بـ(آل هاشم)، ووجدت اسمه في صورة ختمه الموجود عند العلامة الدكتور حسين علي محفوظ(١) ملقباً بـ(الحسيني الغاضري(٢)).

وخلَّف السيد هاشم عدداً كبيراً من الذرية، كان أصغرهم محسن الصائغ، الذي أسس محل صياغته في الكاظمية في سنة ١٨٧٢م. وكان مثقفاً وشاعراً وأديباً وله صداقة متينة بالسيد محمد سعيد الحبوبي(٣)،

---

(١) ولد عام ١٩٢٦ في مدينة الكاظمية ببغداد لأسرة ينتهي نسبها إلى شمس الدين محفوظ بن وشاح محمد الأسدي الحلي، يعد واحداً من أهم أعمدة الثقافة والمعرفة، وأحد رواد الفكر واللغة والأدب والشعر ليس في العراق فحسب، بل في العالم العربي والإسلامي، ممن ما زالوا على قيد الحياة، فهو علامة العراق وشيخ بغداد وأستاذ الأجيال.

(٢) هي الأراضي المنبسطة التي كانت مزرعة لبني أسد، وتقع اليوم في الشمال الشرقي من مقام أو شريعة الإمام جعفر الصادق (ع) على نهر العلقمي في مدينة كربلاء وتعرف بأراضي الحسينية.

(٣) هو العلامة الكبير السيد محمد سعيد الحبوبي الحسني النجفي، ولد في النجف الأشرف في الرابع من جمادى الآخرة عام ١٢٦٦هـ/ ١٧ نيسان ١٨٥٠م، وهو

ويروي الدكتور محفوظ أن الحبوبي عندما كان يزور الكاظمية يقول له: الله يشهد أنك السبب الأول لسفرتي هذه.

وعندما توفي شُيِّع تشييع رجال الدين. وفي أثناء التشييع كان الملك فيصل الأول(١) في مرور بالكاظمية فشاهد في صدر المشيعين السيد حسن الصدر(٢) العلامة الحبر فكان أن أسهم في حمل الجنازة.

وترك مجموعة من الآثار منها مختارات شعرية حرية أن تدعى بـ(الحماسة الوردية) ولكن العلامة محفوظ الذي لديه آثاره يؤثر

من فطاحل الشعر بالعراق ومن العلماء الأعلام الذين أفتوا بالجهاد لصد جيوش الاحتلال البريطاني، وكان ذلك في السادس عشر من المحرم من عام ١٣٣٣هـ/١٩١٤م، وتجولوا بين العشائر وجمعوا المجاهدين وساروا على رأسهم إلى ساحة الجهاد في الشعيبة بالبصرة حيث بقي في مقدمة المحاربين وعلى رأس المجاهدين حتى عاد الجميع فعاد معهم، وقد توفى رحمه الله بمدينة الناصرية عشية الأربعاء ثاني شعبان من عام ١٣٣٣هـ/ ١٥ حزيران ١٩١٥م، ولم يستطع الوصول إلى النجف الأشرف.

(١) هو فيصل بن حسين بن علي الحسني الهاشمي (٢٠ أيار ١٨٨٣ - ٨ أيلول ١٩٣٣)، ولد في مدينة الطائف التابعة لإمارة مكة التي كانت أحد إمارات ولاية الحجاز التابعة للدولة العثمانية، وهو الابن الثالث للشريف الحسين بن علي. في عام ١٩١٣ اختير ممثلا عن جدة في البرلمان العثماني. أصبح ملك العراق من ١٩٢١ إلى ١٩٣٣، وقبل ذلك ولفترة قصيرة كان ملك سوريا.

(٢) هو السيّد أبو محمّد، حسن بن السيّد هادي بن محمّد علي الصدر، وينتهي نسبه إلى إبراهيم الأصغر بن الإمام موسى الكاظم (ع). ولد في التاسع والعشرين من شهر رمضان ١٢٧٢ هـ بمدينة الكاظمية المقدّسة في العراق. ألف وكتب في الفقه والأصول والتاريخ ومن أهم كتبه (الشيعة وفنون الإسلام)، و(شرح وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة)، توفّي في الحادي عشر من ربيع الأوّل ١٣٥٤ هـ ببغداد، ودفن بجوار مرقد الإمامين الجوادين (ع).

تسميتها بـ(الحماسة البغدادية) كما يبدو أن له تعليقات على كتاب الزمخشري (ربيع الأبرار)، ومجموعة شعرية منها بندّ كانت تختتم به مواكب العزاء في يوم العاشر من المحرم في الكاظمية.

(٢)

كانت الأسرة حتى عهد السيد هاشم تعيش في بغداد منذ المائة الثالثة للهجرة، في مجموعة بيوت بنيت على أنقاضها محطة السكك الحديد التي تربط الكرخ من بغداد بالكاظمية. ويبدو أن لهذه المجموعة طرافة ذاعت شهرتها بسببها ولا أعلم ما هي حملت الصاحب بن عباد[١] على الإعلان إنه إذا زار بغداد لا بد أن يلمَّ بها.

ولكن السيد هاشم اضطرَّ إلى بيعها بسبب ما شنَّ عليه جيرانه من آل الآلوسي من العدوان والمضايقات، وهاجر إلى منطقة فيها له أقارب هي (بَلَد)[٢] حيث تملَّك عدداً كبيراً من البساتين وأقام هناك، وبعد مدة وجيزة

---

(١) الصاحب بن عباد، هو إسماعيل بن عباد الاصفهاني كاتب وأديب و شاعر معروف. ولد في ١٦ من شهر ذي القعدة عام ٣٢٦هـ/ ١٤ أيلول ٩٣٨م باصطخر فارس، كان يلقب بالصاحب كافي الكفاة، وإلى ذلك أشار ابن خلكان في قوله: هو أول من لقب بالصاحب من الوزراء، له من التصانيف الكثيرة والرائعة ما استغرقت أكثر العلوم ، من الكلام و اللغة و الأدب و التاريخ و غيرها. توفي ليلة الجمعة الرابع والعشرين من شهر صفر سنة ٣٨٥هـ/ ٢٠ آذار ٩٩٥م بالري، ونقل جثمانه إلى إصفهان، ودفن في محلة كانت تعرف آنذاك بباب درية، واسمها الآن باب الطوقجي، وقبره لا زال معروفاً.

(٢) بلد: قضاء يقع شمال بغداد قرب منطقة الدجيل (عكبرى) سابقاً والتي وُلِد فيها الشيخ المفيد.

نزل عليه جيرانه من آل الشاوي للسبب نفسه ضيوفاً ومرّت عليهم في ضيافته سنتان فأهداهم عددا من البساتين.

ثم قرر بعد مدة سُكنى الكاظمية حيث اشترى داراً فيها في محلة (عباس كُشْكُشْ) وهي مدخل محلة (البَحِّيَة)[١]. ومن هذه الدار تفرعت الأسرة ونمت وانتشرت وآل ملكيتها مع الزمن إلى ابنه الأصغر محسن جدّ علي الوردي.

أقول مطمئناً: إني لا أكاد أعرف أحداً يمقت التفكير العنصري العرقي مثلما أمقته. لأنه يقوم على دعوى أفضلية مجموعة بشرية على سواها بلا مفضّل إلا مفضلات مصطنعة تعتمد العدوانية أساساً ومقياساً لها.

وقد أنكر ذلك الله سبحانه وتعالى في كتابه حيث قال: ((يَا أَيّهَا النّاسُ إِنّا خَلَقْنَاكُم مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىَ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوَاْ إِنّ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ))[٢].

وأعلن الرسول صلوات الله تعالى وسلامه عليه وآله القيم الجديدة في التفاضل بين الناس حين قال: ((لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى)) ولم يقل بالانتساب. وقال: ((الناس سواسية كأسنان المشط)).

---

(١) هي محلة تقع في منطقة الكاظمية على مقربة من المرقد الكاظمي الشريف، واشتهرت بالكنيسة التي كانت قائمة هناك قبل الإسلام، والتي تطورت حتى أصبحت مجمعا كنسيا أو ديرا كبيراً، وقد جاء وصفها لدى المسعودي، وذكرها ياقوت الحموي واصفا إياها بـ(حسن العمارة، كثير الرهبان، وله هيكل في نهاية العلو)، وعلى تخومه (موقعه اليوم مدينة الحرية) كانت (بيعة سونايا)، ثم صار يدعى بـ (الدير العتيقة).

(٢) سورة الحجرات: ١٣.

وإذا كنت أتعصب للعربية فليس لأنها لغة أولئك المسمين بالعرب، بل لأنها اللغة التي فضلها الله تعالى بما أودعها من خصائص فجعلها لغة لقائه اليومي الخماسي[١].

أما أهلها قبل نزول القرآن فكانوا عدوانيين، مثلهم الأعلى (من عزَّ بزَّ) و(من ملك استأثر) و(حبذا الإمارة ولو على حجارة)، ويقول أحد سفهائهم[٢]:

وَأحياناً عَلَى بَكرٍ أخِينَا
إذا مَا لَمْ نَجِدْ إلاَّ أخانَا

ويبدو ذلك في أسف الشاعر[٣] السفيه الآخر:

لَوْ كُنتُ مِنْ مَازِنٍ لَمْ تَستَبِحْ إِبِلِي
بَنُو اللقيطَةِ مِنْ ذُهل بن شَيبَانَا
إِذَنْ لَقَامَ لِنَصري مَعشَرٌ خُشُنٌ
عِنْدَ الكَرِيهَةِ إنْ ذُوْ لوثَةٍ لانا
لا يَسألُونَ أخَاهُمْ حِيْنَ يَنْدُبُهُمْ
في النَّائِبَاتِ على مَا قَالَ بُرهانا
لكِنَّ قَومي وَإنْ كانوا ذَوي عَدَدٍ
لَيْسُوا مِنَ الشَّرِّ في شَيءٍ وإن هانا

---

(١) يقصد الصلوات الخمس المفروضة التي يؤديها المسلمون يومياً.

(٢) هو الشاعر القطامي التغلبي.

(٣) هو الشاعر قريط بن أنيف العنبري.

كَـــأنَّ رَبَّـــكَ لَـــم يَخلُـــقْ لِخَـــشْيَتِهِ

سِـــواهُمُ مِـــنْ بَنِـــي الإنْـــسَانِ إنْـــسانَا

ومن يطَّلع على أحوالهم في الجاهلية وما سُجِّل منهـا يجـد أمامـه الأعاجيب مما يندى له الجبين، بحيث كان واضحاً الوضوح كله تميز من شذَّ منهم في ذلك، فعرف بالإيثار أو غيره من مكـارم الأخـلاق كحـاتم الطائي وغيره ممن يعدون على الأصابع.

ولذا جاء حلف الفضول[١] علامة متميزة متلألئة فـي ظلمـات تلـك الجاهلية الجهلاء.

ويكفيك عن حياتهم أن الله سبحانه وتعالى سماها بــ(الجاهلية الأولى) فقال: ((يَظُنّونَ بِاللّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنّ الْجَاهِلِيّةِ))[٢]، وقال: ((أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ حُكْماً لّقَوْمٍ يُوقِنُونَ))[٣]، وقال: ((وَقَـرْنَ فِـي بُيُوتِكُنّ وَلاَ تَبَرّجْنَ تَبَرّجَ الْجَاهِلِيّةِ الأُولَىَ))[٤]، وقـال: ((إِذْ جَعَـلَ الّـذِينَ

(١) حلف من قبائل من قريش، اجتمعوا له في دار عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي، لشرفه وسنه، فكان حلفهم عنده: بنو هاشم، وبنو المطلب، وأسد بن عبد العزى، وزهرة بن كلاب، وتيم بن مـرة. فتعاقدوا وتعاهدوا على أن لا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها وغيرهم ممن دخلهـا من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليـه مظلمتـه، فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول.

(٢) سورة آل عمران: ١٥٤.

(٣) سورة المائدة: ٥٠.

(٤) سورة الأحزاب: ٣٣.

كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ))[1].

وقوم كهؤلاء مما لا يشرِّف المرء أن يكون واحداً منهم بحال من الأحوال.

ولكن الإسلام هو الذي نقلهم إلى مرحلة أخرى، وكان أول لفظ افتتح به كلامه سبحانه وتعالى هو ((اقْرَأْ))[2]، وعاشر لفظ هو ((اقْرَأْ))[3]، واللفظ الرابع عشر والسادس عشر هو ((عَلَّمَ))[4]، وما بينهما التركيب ((بِالْقَلَمِ))[5].

ولكنهم تنكبوا عن المنهج حتى صاروا بعد توالي العهود إلى أمة تغلب على جماهيرها الأمية.

لقد كانوا قبل الإسلام بدواً رحلاً رعاة سريعي التذبذب في المواقف يعيشون على الإغارة والسلب والنهب، حتى بلغ بهم ذلك إلى أن خرقوا كل مقدساتهم ومواصفاتهم فدارت لهم رحيات ثلاثة حروب حين وحيث لا يجوز ذلك وهو الزمن الحرام والمكان الحرام فسميت حروب الفجار.

وكانوا إلى ذلك يرتكبون أفظع ما يرتكبه المرء فيئدون بناتهم بكل وحشية وفظاظة، وتثور عند أي منهم لأتفه سبب عنجهية الأعرابية ولوثتها فتندلع لشرارتها الحروب التي ربما دامت أربعين عاماً.

---

(١) سورة الفتح: ٢٦.

(٢) سورة العلق: ١.

(٣) سورة العلق: ٣.

(٤) سورة العلق: ٤ – ٥.

(٥) سورة العلق: ٤.

وجاءهم الإسلام رحمة من الله سبحانه وتعالى، لهم وللعالمين، فحولهم إلى قوم ذوي حضارة وبناة إنسانية، وبدا في حربه على البداوة وقيمها واضحاً رافضاً بقاءهم بدواً أعراباً لأن قيمهم لا تنسجم مع قيم الإسلام المتحضرة: ((قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لاَ يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ))(١)، ((الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلاَّ يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ))(٢)، ولهذا السبب مُنِع شرعاً العودة إلى البداوة عن الحضارة إلا لضرورة قاهرة، لأنه كما يقول رسول الله صلوات الله تعالى عليه وآله: (من تبدَّى فقد جفا)، وصار التبدي بعد التحضر جناية يعاقَب عليها بالقتل.

وجعل الإسلام لأول مرة لكل فرد حقاً في الأموال العامة.

وعامل كل قبيلة على أنها وحدة اقتصادية، يؤخذ من غنيها لفقيرها حتى يذيب الفروق بينهم.

ولكننا نجد النظام القبلي يقوى مع الزمن بعد عصر الرسالة وتبقى البداوة بداوة، ثم تعود ثانية قيمها وتختفي القيم الإسلامية المتحضرة ويتضح ذلك الاتضاح كله في شعر جرير والفرزدق(٣) والأخطل وسواهم من زمرة الردة الجاهلية.

---

(١) سورة الحجرات: ١٤.

(٢) سورة التوبة: ٩٧.

(٣) عُرفت القصائد التي كان يتبادلها جرير والفرزدق بـ(نقائض جرير والفرزدق) حيث كان الشاعران يتهاجيان ويتفاخران ويتنابزان بالألقاب والأنساب وكأنهما كانا يعيشان في زمن الجاهلية.

وعندما تنتهي الفتوح تبقى البادية بادية بما فيها من قبائل بعاداتها وأساليب حياتها ولا تجد الدولة تهتم من قليل ولا كثير بإذابة هذه التشكيلات المتخلفة، حتى وصل بها الحال إلى بقائها إلى المائة الخامسة عشرة الهجرية أي في هذه الأيام..!!

لماذا إذن جاء الإسلام بالنسبة إلى هذه القبائل؟

أين ذهبت ((إِنّ أَكْرَمَكُمْ عَنْدَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ))[1] و(لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى) و(الناس سواسية كأسنان المشط) و(من تبدى فقد جفا)؟؟ بحيث بقي في الناس من السفهاء من يحملون لواء العرقية والعنصرية ويلوحون به في كل مناسبة. بل لقد جعلوه آية لميز الناس وتغيير مصائرهم مازجين ذلك بالتعصب الطائفي.

ونال علياً الورديّ من ذاك ما قاله أحد الكتبة من أساتذة إحدى الجامعات العراقية - فيا بؤس الجامعات العراقية إذن - وهو من القوميين العروبيين: (وحسب اعتقادي ينتمي الوردي إلى جيل طازج من المهاجرين الفرس إلى العراق)[2].

وهنا تجرنا المناقشة إلى ثلاث نقاط:

أولا: أ ليس من العار على علي الوردي الانتماء إلى الفرس على فرض صحته لأنه عندئذ سيكون قريب الإمام الأعظم النعمان بن ثابت بن ماه زايار الأصفهاني[3]، وسيكون قريب

---

(١) سورة الحجرات: ١٣.

(٢) انظر: كتاب (في الأدب وما إليه)، ص١٣٦ - ١٣٧.

(٣) النعمان بن ثابت المعروف بأبي حنيفة سنة (٨٠ هـ ٦٩٩م) ولد في الكوفة، وفي هذه المدينة. قضى معظم حياته متعلما وعالما، وكان مع اشتغاله بطلب العلم

ابن سينا[1] شيخ الأطباء، ومئات العلماء الفرس الآخرين؟!

وسيكون قريب سيد العرب جميعاً غير منازع في حفظ لغتهم في نحوها وصرفها وفقهها وهي الأمور التي يفاخرون بها أبي بشر عثمان بن قنبر سيبويه[2] الذي كان فارسياً من أبوين فارسيين ونشأ في بيئة بيتية فارسية حتى كان يرتضخ في لسانه بلكنة فارسية واضحة.

يعمل بالتجارة، حيث كان له محل في الكوفة لبيع الخزّ (الحرير)، يقوم عليه شريك له، فأعانه ذلك على الاستمرار في خدمة العلم، والتفرغ للفقه. اشتهر بمذهبه الفقهي الذي يقوم على إعمال الرأي في المسائل الفقهية. توفي في بغداد بعد أن ملأ الدنيا علما وشغل الناس في ١١ من جمادى الأولى ١٥٠ هـ/ ١٤ من حزيران ٧٦٧م.

(١) ابن سينا هو أبو علي الحسين بن عبد الله بن الحسن بن علي بن سينا، اشتهر بالطب والفلسفة واشتغل بهما. ولد في قرية (أفشنة) الفارسية قرب بخارى (في أوزبكستان حاليا) من أب من مدينة بلخ (في أفغانستان حاليا) وأم قروية سنة ٣٧٠هـ (٩٨٠م)، عرف باسم الشيخ الرئيس وسماه الغربيون بأمير الأطباء. وقد ألّف ٤٥٠ كتاب فى مواضيع مختلفة، العديد منها يركّز على الفلسفة والطب. وأعظم أعماله المشهورة هي كتاب الشفاء وكتاب القانون في الطب. وهو امتداد للفارابي إذ أخذ عنه فلسفته الطبيعية وفلسفته الإلهية. توفي في همذان سنة ٤٢٧هـ (١٠٣٧م).

(٢) سيبويه: عمرو بن عثمان بن قنبر البصري، المعروف بسيبَوَيه (بالكردية: سيبويُه أي: رائحة التفاح) (١٤٠هـ/٧٦٠م-١٨٠هـ/٧٩٦م) إمام العربية وشيخ النحاة الذي إليه ينتهون، وله كتاب في النحو يسمى (الكتاب) وهو أول كتاب منهجي ينسق ويدون قواعد اللغة العربية، ولد في مدينة البيضاء قرب شيراز في إيران، توفي في شيراز عام ٧٩٦م.

يقول الأصمعي[1]: (لقيت سيبويه في المسجد فجعلت أناقشه فأرفع صوتي لكي يسمعني الناس فيروا فصاحتي ولكنته فينصروني عليه).

ومع ذلك لم يؤلف عربي في لغة العرب حتى الآن كتاباً مثله.

ثانياً: إن علياً الوردي هو الحلقة الخامسة والثلاثون في سلسلة النسب العلوي الذي يمثل الإمام علي بن أبي طالب سلام الله تعالى عليه الحلقة الأولى فيه، وهي السلسلة التي صادق عليها وضرب بها الأمثال علماء الأنساب في العراق، وصادق عليها علماء الأنساب في المغرب عندما مضى بها الدكتور بهاء بن عبد الجليل بن عبد الحسين بن باقر بن عبد الحسين بن هاشم أبي الورد[2] وعدَّ بها من فئة الأشراف، وأنفك راغم يا مسكين.

وبقيت هذه الأسرة عراقية متمسكة بعراقيتها وانتسابها إلى بلدها. ففي أواخر العهد العثماني صارت الأسر العريقة تنقذ أبناءها من الخدمة في الجيش العثماني بأن تمضي إلى السفارة الفارسية فتمنحها الجنسية الفارسية وبذلك لا يجنَّد أبناؤها.

وفي ظهيرة أحد الأيام القائظة – يا مسكين – كان السيد محسن الصائغ جد علي الوردي وكبير أسرة آل الورد آنذاك في السرداب (القبو) في بيت صديقه السيد محمد علي الشديدي كبير أسرة آل الشديد عندما

---

(١) الأصمعي: عبد الملك بن قريب بن علي بن أصمع الباهلي، أبو سعيد الأصمعي. راوية العرب، وأحد أئمة العلم باللغة والشعر والبلدان. نسبته إلى جده أصمع. ومولده ووفاته في البصرة. كان كثير التطواف في البوادي، يقتبس علومها ويتلقى أخبارها، ويتحف بها الخلفاء، فيكافأ عليها بالعطايا الوافرة. أخباره كثيرة جداً. وكان الرشيد يسميه (شيطان الشعر).

(٢) طبيب مقيم في مراكش في بلاد المغرب، مؤلف ورسام تشكيلي وممثل وشاعر.

أرسل إليهم أحد كبار أسرة معروفة ابنه يدعوهم إلى الإسراع في الذهاب للسفارة الفارسية لاكتساب الجنسية الفارسية والتخلص من التجنيد في الجيش العثماني. رفض وأجابه السيد محسن:(نحن أبناء هذا البلد ويجري علينا ما يجري على أبنائه من خير وشر). وكانت النتيجة أن التجنيد شمل ولده الأكبر هاشم عم علي الوردي، وولده حسين والد علي الوردي، وولده عباس[1]، وابن أخيه السيد أمين النيار بن جعفر بن هاشم، وولد أخيه علي بن ربيع بن هاشم الذي فُقِدَ ولم يُعثَر له على خبر، وأخاه إبراهيم بن ربيع - والد الفنانين خليل وهاشم الورد[2] - الذي أصيب في عضده اليمنى إصابة تركت اعوجاجاً في سبابته أثار له إشكالات مضحكة، وابن ابن أخيه علي بن جعفر بن هاشم والد الدكتور حسين الوردي والفنان جعفر الوردي والدكتور سليم الوردي.

أما من خدم فيما بعد من أبناء الأسرة في الجيش الملكي وفي جيوش الجمهوريات الأربع، ومنهم من فُقِدَ ومنهم من قُتِل ومنهم من جاء سيراً إلى بغداد من حفر الباطن[3]، وهم السيد وهران بن هاشم بن إبراهيم بن ربيع بن هاشم أبي الورد، والدكتور زكي بن حسين الورد من فرع الأسرة في بلد، ومنهم الدكتور سليم الوردي، فحدِّث عن البحر ولا حرج

---

(١) السيد عباس الصائغ أحد صاغة ضريح الإمامين الكاظمين بعد أبيه.

(٢) فنانان تشكيليان، كان الأول نحاتاً غلبت على منحوتاته صور النساء العراقيات الشعبيات، وهو زميل جواد سليم ومن الجماعة التي أسسها (جماعة الفن الحديث). أما الثاني فكان رساماً ونحاتاً ومعلماً للفن التشكيلي وعمل نحاتاً في متحف التاريخ الطبيعي في بغداد.

(٣) يقصد الحرب التي شنتها الولايات المتحدة وحلفاؤها عام ١٩٩١ لإخراج القوات العراقية من الكويت التي اجتاحها العراق في ٢ آب ١٩٩٠.

أيها السيد الذي ينتمي إلى جيل غير طازج من أسرة لا أشك أنها من قطاعي الطرق وأبطال الإغارات السلابين النهّابين غير المهاجرين من الفرس.

نحن من سكان هذا البلد من المائة الثالثة للهجرة قبل أن يأتي الأتراك إلى العراق ويأتي أيتامهم من بعدهم، ونحن من أبناء مدنه لا من أبناء بواديه الرعاة. وأنفك راغم.

والإنسان بعد هذا – إن كنت مسلماً – يُحاسب على إيمانه لا على قوميته. وصهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي خير ألف مرة ممن تفخر بهم من ملوك دمشق وبغداد وغيرهما من العواصم. وما أصدق الجواهري حين قال:

لَجَأُوا إلى الأنسَابِ لَو جَلَّى لَهُمْ
نَسَبٌ ولَوْ صَدَقَتْ لَهُمْ أرحَامُ
وتَنَابَزُوا بِالجَاهِلِيَّةِ.. شَجَّهَا
مِنْ قَبلُ نُورُ الفِكْرِ وَالإسْلامُ
فَأولاءِ أعرابٌ، فَكُلُّ مُحَرَّمٍ
حِلٌّ لَهُمْ وَأولَئِكُمْ أعجَامُ
وَأولاءِ أغْمَارٌ لأنَّ شِعارَهُمْ
بَينَ الشُّعوبِ مَحَبَّةٌ وَسَلامُ
وكَأنَّ أرحاماً تُرَصُّ فَريضَةٌ
وكَأنَّ أفخاذاً تَدُرُّ لِزَامُ

وكأنَّ مَنْ لَم يَحـو تِلـكَ وَهـذِهِ
وَإنِ اسْـتَقَامَ بَهيمَـةٌ وَسَـوامُ
نُكرٌ لَوِ استَعلَى لما اسـتعلت يـدٌ
بِـالعُروَةِ الـوثْقى لَهـا استِعـصَامُ
ولَمَا تَمـايَزَتِ النُّفُـوسُ بِخَيرِهـا
وَبِـشَرِّها.. ولَمَـا اسـتَتَبَّ نِظَـامُ
لَزَكَا أبـو لَهَـبٍ وكَـانَ مُرَجَّمـاً
وَدَنَـا صُـهيبُ وَإنَّـهُ لإمـامُ
(سَلمانُ) أشرَفُ من أبـيكُم كَعبُـهُ
(وَعِصَامُ) ما عَرَفَ الجُدودَ عِـصامُ
وَ(محمَّـدٌ) رَفَعَـتْ رِسـالَةَ رَبِّـهِ
كفَّـاهُ.. لا الأخْـوالُ وَالأعمَـامُ

ثالثاً: أذكِّر هذا العربي، بل دعي العروبة، باستعماله كلمة (طـازج) وهي فارسية، أصلها: (تازه) وعربيها: (طري).

وأذكره، أيضاً، إن كان لم يفقد الذاكرة، بعدُ، بالاستعلامات التي كانت توزع على منتسبي الدولة من قبل الدوائر العربية المختلفة – حزبية وغير حزبية – وفيها استفسار عن الموظف أو المنتمي وأسرته حتى الدرجة الخامسة وما فوقها من القرابة وعن أزواج نساء إخوته وآبائهم وأمهاتهم وإخوانهم وأخواتهم، وفيها التعبيران العاميان جداً الآتيان، وهما: (العمام) ويعني: الأعمام بالفصيحة. (الخوال) ويعني: الأخوال

بالفصيحة..!!

فهل كان كاتب هذين التعبيرين من جيل طري من العرب؟ أم من المهاجرين الفرس؟!

لا هذا ولا ذاك.. إنهم من جيل أدعياء يبرأ منهم العرب والفرس.

(٣)

كان السيد حسين والد علي الوردي صائغاً من الطراز القديم. يقع دكانه مقابل باب جامع الترك[١]، كما يتذكر المتذكرون. وعلى مقربة منه دكَان قريبيه (ابني حفيد عمه السيد حسين) وهما السيد جليل والسيد جبار، وهما ابنا عمة والدتي ووالدي العلوية طاهرة. وكانت الريفيات اللائي يلتبس عليهن الأمر يسألن السيد حسين: أنت ابن علوية طاهرة؟ فيجيب: لا، أنا ابن علوية نجسة. ثم يدلهنَّ على دكان قريبيه. (كانت أم السيد حسين جشعمية عامية).

وفي السوق نفسه كان هناك دكان ابن أخت السيدين السيد رضا الحسيني من أوائل معلمي الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد[٢] الصياغة، ثم

---

(١) كان جامع الترك يقع في محلة الإنباريين في الكاظمية، ويصل إليه المرء من باب الإنباريين في الصحن الكاظمي الشريف، وكان هذا المكان يعجُّ بأرباب الحرف، ومنهم السيد إبراهيم الحكيم الذي كان يمارس الطب الشعبي وكان الملك فيصل الثاني في طفولته يُعالج عنده، وكان يركب العلاجات بيده، وقد أزيلت تلك المنطقة في ثمانينات القرن الماضي لتوسيع الحرم الكاظمي وما حوله. ونقل جامع الترك ليبنى على أرض تبعد قرابة خمسين متراً عن مكانه الأصلي.

(٢) هو الشاعر العراقي الكبير عبد الرزاق عبد الواحد، من كبار الشعراء العرب، وكان مجايلا لرواد الشعر الحر في العراق ومن طليعتهم.

كان هناك دكان صياغة للشاعر علي جليل الوردي ابن السيد جليل[١].

ومن يوم أن قرر السيد محسن والد السيد حسين تسجيل ملكيـــة داره باسم ولديه الأصغرين حسن وعباس قاطع السيد حسين الأسرة جميعاً ولم تعد له علاقة بأي ولا أية منهم. ثم استثنى من ذلـــك شـــقيقته الكبـــرى (بهار) وأعاد علاقته بها.

وعندما أقعِدت مُصابة بشلل نصفي كان لا بدَّ لها أسبوعياً في الصيف وشهرياً في الشتاء من الاستحمام في دار أخيها الذي كان يتولى بيديـــه تدفئة الحمام ويساعد بيديه امرأته البدينة في صنع الطعام.

وكانت هذه السفرة تمثل نزهة لي ولشقيقتي التي تكبرني سبع سنوات.

ولا أتذكر أن علياً شاركنا يوماً الجلوس على مائدة الطعام – هذا مـــا أتذكره – فقد كان يدخل الدار فيلقي التحية ويصعد إلى غرفته.

ثم وجدناه ذات مرة مسافراً بعد إتمامه الدراســـة الإعداديـــة وكانـــت لخمس سنوات عندئذ في رحلة إلى بيروت، وعاد منها بعد ذلـــك يحمـــل درجة الاكتفاء (البكالوريوس) في الاقتصاد السياسي.

فعُيِّن مدرساً في كلية الملكة عالية المخصصة للطالبات[٢]. وكان لذلك وقع سيء في نفس والده الذي وجد في ذلك منقصة غير مقبولة.

ما علمته أن فراشه كل ليلة يهيأ ويُمد كأنه لم يسافر ولم يتركهم. ولما

---

(١) كان الشاعر عبد الرزاق عبد الواحد يعرض قصائده على الشاعر علـــي جليـــل الوردي، كما صرَّح لي في جلسة جمعتني به في مجلس الخاقاني.

(٢) ما زالت بناية هذه الكلية قائمة في منطقة باب المعظم، ويشغلها الآن معهد طب الأسنان.

عاد من بيروت لم تكن علاقته كبيرة مع أفراد أسرته من أقاربه مـن آل الورد، إلا بابن عمه السيد محمد بن السيد هاشم والـد الدكتور جـراح القلب مصطفى الورد، حيث كان يزور دكانه، وعلاقة أخف بـابن عمتـه خالي عبد المطلب خليل الورد الصائغ. وفي تلك الجلسات - وكان ذلـك بعد الحرب العالمية الثانية - سمعت لأول مرة حديثاً عن المحرك النفـاث والطائرة النفاثة.

ولم يبدِ نشاطاً اجتماعياً ملحوظاً إلا ما أتذكره من كلمـة ألقاهـا فـي الحفل الكبير الذي كان يقيمه عزاء الشباب ويرعاه السـيد هبـة الـدين الشهرستاني[1] وتنقله الإذاعة العراقية في صبيحة اليـوم العاشـر مـن

---

(١) ولد السيد هبة الدين في سامراء عام ١٣٠١ هـ الموافـق ١٨٨٣م. وحينمـا اندلعت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بدأ دور مهم من حياته، حيـث بـرز مجاهداً ومناوئا صلبا لجيوش الاحتلال الإنكليزي التي بـدأت غزوهـا للعـراق، وأعلن حينها علماء الشيعة الجهاد ضد الإنكليز. قاد السيد هبة الدين قـوة مـن عشائر آل فتلة وبني حسن والعوابد تحركت في أوائل محرم من عام ١٣٣٣هـ عن طريق الفرات إلى أن ألتحق بالشعيبة في حركة الجهاد التـي قادهـا السـيد محمد سعيد الحبوبي. وبسبب التداعيات التي خلفتها ثورة العشرين وما آلت إليه الأحداث السياسية اضطر الإنكليز إلى قبول قيام سلطة عراقية وطنيـة. فرشـحه الملك فيصل لوزارة المعارف، وحينما عرضت التوصيات بالانتداب كان المخـالف الأول لبنوده، واستقال من حكومة عبد الرحمن النقيب لهذا السبب. بقـي السـيد الشهرستاني في مدينة الكاظمية فأعاد صياغة مؤلفاته العلمية وأتم ما لم يتمـه، كما أسس عام ١٣٦٠هـ مكتبة الجوادين في الصحن الكاظمي الشريف، فنقـل إليها كتبه وظل يضيف إليها حتى أصبحت من أكبر المكتبات وأغناها، وكـان لـه فيها مكان خاص يستقبل فيه زواره. توفي رحمه الله عام ١٩٦٧م، ودفـن فـي مكتبته في الكاظمية. وقد شهدتُ تشييعه رحمه الله.

المحرم في الصحن الكاظمي، عنوانها: (لماذا نمجد ذكرى الحسين؟).

وأتذكر مقالة اجتماعية نشرت له عنوانها: (بين اليزيدية والعلي اللاهية) في مجلة عالم الغد البغدادية(١).

بعد وفاة جدتي في صيف سنة ١٩٤٣ بقيت علاقة السيد حسين بأسرة أخته قوية.

قرر علي الوردي الزواج فكان اعتماد السيد حسين في ذلك على ابنتي أخته والدتي وخالتي.

كان زواج علي الوردي زواجاً عراقياً بغدادياً رسمياً (تقليدياً) تماماً، لم يرَ امرأته إلا ليلة العرس.

كان يسكن في الدار التي اشتراها أبوه في شارع الحمام الملوكي أو شارع المدرسة الخالصية والمعروف بـ(درب الأفندية) لكثرة الخريجين من أبنائه، منهم الدكتور عبد الحسين القطيفي وزير الخارجية الأسبق، وشقيقه الدكتور شاكر القطيفي الطبيب المتخصص، وشقيقهما الدكتور عزيز القطيفي الأستاذ الجامعي في القانون، والدكتور عبد الصاحب الموسوي الأستاذ في الكلية الطبية، وشقيقه الصيدلاني، والأستاذ عبد الحسين الجمالي وكيل وزارة الخارجية الأسبق، وشقيقه الدكتور عبد الصاحب الجمالي الطبيب في الباطنية والقلب، وشقيقهما الدكتور هادي الجمالي طبيب الأسنان، والمهندس صالح مهدي الشيباني، وشبيبة آل الشيباني جميعاً، وغيرهم من أفراد أسرته. أما أسرة آل الشيخ فخريجون جميعاً، وأغلبهم في جامعات الاتحاد السوفييتي وغيرهم.

---

(١) كان رئيس تحريرها محمد فاضل الجمالي الذي استوزر وشغل منصب رئيس الوزراء في العهد الملكي. وستأتي ترجمته لاحقاً.

كان السيد حسين حينما قاطع أسرته قد استأجر بيتا من بيوت آل عطيفة أسرة امرأته في محلة الإنباريين حيث ولد ونشأ عليّ[1]، وبقي يتذكر مناظر جيرانه من محلة التل ومحلة الإنباريين، ثم شرع يمايز بينهما اجتماعياً فيما بعد. ثم انتقل مع أبيه إلى الدار الجديدة وهو فتى.

بعد التفتيش والتدقيق عُثر على المرأة المنشودة من أسرة بغدادية معروفة من آل الظاهر. وبدأت الإجراءات تأخذ مجراها شيئاً فشيئاً وتخللتها بطبيعة الحال مشكلات كانت تُحسم وتُحل بِحُسن نية.

ويوماً بعد يوم بدأت بنات أعمام علي الأربعة وهنَّ لسن قليلات العدد مع أمهاتهنَّ وغيرهن من نساء الأسرة يفِدن يوميا إلى الدار للقيام بالتهيئة ليوم العرس.

بُعيد عصر يوم العرس صحبني السيد حسين إلى مؤجر مصابيح ضغط نفطية (لوكسات) في أحد دكاكين خان (فرمان فرما)[2] حيث استأجر منه العدد الكافي منها مشترطاً أن تظل متوهجة حتى الصباح.

وفي المساء – وأتذكر ذلك جيداً – كنت واقفاً على عليا الدرجات الثلاث لغرفة (الكرسي دار)[3] أنظر إلى موكب العروس يدخل الدار وأمامها يُحمل مصباح متوهج.

---

(١) ما زال البيت قائماً حتى الآن، وكان الدكتور علي الوردي يصطحبني معه لزيارة البيت والزقاق الذي كان يقضي فيه طفولته وصباه. ويريني دكان العطارة الذي كان يعمل فيه وهو قرب البيت.

(٢) أزيل هذا الخان أواخر القرن الماضي، وقامت على أنقاضه عمارة ضخمة أغلب محالها يبيع العباءات العربية، وهو أشهر خانات الكاظمية بعد خان الكابولي الذي تأسس فيه الجيش العراقي، وكان مقراً لفوج موسى الكاظم (ع) عام ١٩٢١.

(٣) أكبر غرف الدار.

تقدمت إحداهنَّ فقطعت إلى نصفين بحركة واحدة أمام وجه العـروس عددا من أرغفة الخبز لأن ذلك مجلبة للحظ الـسعيد(١). وتقـدمت ثانيـة فكسرت بيضة بضربها في جبين العروس للسبب نفسه(٢). وصعد النساء والعروس إلى غرفة العرس.

بعد قليل جاء العريس عليّ.. من كان معه من الأصحاب؟.. لا أتذكر..

وصعد إلى غرفة العرس ولم ينزل منها..

كانت الزغاريد منذ العصر تتعالى بين الفينة والفينة..

وسهر أهل العروس الآمين معها حتى الصباح..

وكان عرساً بغدادياً عراقياً بكل شروطه وأحداثه.

ولسبعة أيام كان يقام بعد عصر كل يوم حفل شـاي يحـضره نـساء الجيران والأقارب.. وشيئا فشيئاً عادت الأمور إلى مجاريها..

لقد انتهى العرس كما يرام إلى ما يرام..

وبعد ذلك بمدة تكرر طرق الباب مرتين في منتصف الليل.. كان علـي يصطحب معه ابنتي عمته فامرأته في حال ولادة.

هكذا وُلِد ولده البكر حسّان ثم وُلِد بعد ذلك أخوه حمّاد الذي سمّاه جده وسجل اسمه بـ(جعفر).

---

(١) هذه عادة بغدادية ما زالت متبعة حتى يومنا هذا.

(٢) هذه عادة بغدادية أخرى متبعة، وما زال الناس يعتقدون أن من سُـدَّت بوجهـه أبواب الرزق إذا فوجئ بضرب بيضة على جبينه وارتعب من هذه المفاجأة فُتحت أمامه أبواب الرزق واغتنى.

بعد مدة سمعنا أن عليا الوردي سيسافر إلى أمريكا في بعثة لنيل درجة الدكتوراه.. ثم سافر.

كانت سفرته معاكسة المعاكسة كلها لرغبة والده، لأنه إنما سيعتمد في حياة الأسرة على موارده وهي شحيحة يدرها دكانه في الصياغة غير المتطورة بحيث لا يقصده إلا القليلون من أهل الريف.

وعلمنا فيما بعد – كما سمعت منه في المشهاد[١] في مقابلة معه – أنه هو وأربعة أو ثلاثة آخرون علموا بوجود بعثات في وزارة المعارف (التربية حالياً) ولكن الوزير رفض أن تكون البعثات لهم، وكان أحدهم المرحوم عز الدين آل ياسين[٢]، فمضوا إلى بناية مجلس الأمة – سماها: البرلمان – وقابلوا هناك شخصاً مهماً – لم يذكر اسمه ولا أشك في أنه السيد محمد الصدر[٣] أحد أعاظم أركان الدولة العراقية

---

(١) يقصد التلفزيون، وللدكتور عبد الأمير الورد أعاجيب في هذه التسميات والاشتقاقات، وقد مرَّ علينا قبل قليل أنه يسمي شهادة البكالوريوس بـ(الاكتفاء).

(٢) الدكتور عز الدين آل ياسين (١٩١٣ ـ ١٩٥٣م)، كاتب وباحث عراقي له كتاب (الدفاع عن الشيعة أو: الحَصّان في الميزان) صدر في بغداد عام ١٩٣٣م.

(٣) هو السيد محمد بن السيد العلامة حسن الصدر، كان أحد رجال ثورة العشرين البارزين مع المجاهد الشيخ مهدي الخالصي الكبير، كما إنه كان من ضمن الخمسة عشر رجلا الذين انتدبهم الشعب لمقابلة الحاكم العام الإنكليزي في بغداد وقد وقع على مضبطة مطالب الشعب بتاريخ ٢٦ مايو ١٩١٨، أسس السيد محمد الصدر أول حزب وطني يشمل كافة الطوائف في ١٩١٩ اسمه (حزب حرس الاستقلال)، تسنم مناصب عليا عديدة في العراق منها رئاسة مجلس الأعيان ورئاسة مجلس الوزراء.

آنذاك[١] – وشرحوا أمرهم فاتصل في لحظتها هاتفياً بالدكتور محمد فاضل الجمالي[٢] وقال له:

– اذهب وقل لوزير المعارف أن يرسل هؤلاء في البعثات التي عنده.

فاعتذر الجمالي وقال:

---

(١) أخبرني الدكتور المرحوم علي الوردي أنهم قابلوا السيد عبد المهدي المنتفكي وليس السيد محمد الصدر، كما أخبرني الوردي أن ساطع الحصري وكان ذا منصب مرموق في وزارة المعارف آنذاك هو الذي رفض ابتعاثهم إلى أمريكا، فوقف المنتفكي بوجهه وأمضى أمر ابتعاثهم. والمنتفكي هو والد السيد عادل عبد المهدي نائب رئيس الجمهورية جلال الطالباني في عهد الاحتلال الأمريكي للعراق.

(٢) محمد فاضل الجمالي (١٩٠٣– ١٩٩٧) مؤسس المدرسة الدبلوماسية في العراق (١٩٤٣– ١٩٥٨)، شخصية عالمية شاركت في صياغة ميثاق الأمم المتحدة، تولى وزارة الخارجية ثماني مرات ورئاسة مجلس النواب مرتين ورئاسة الوزارة مرتين، وهو أحد ثلاثة أسسوا تيار القومية العربية في العراق. مفكر، مصلح ، ملكي الهوى، أمريكي العقل، حكم بالإعدام في ثورة ١٩٥٨ وأطلق ١٩٦١، وعاش في تونس ومات ودفن فيها، ومن أصدقائه الرئيس الأمريكي آيزنهاور، يقول عنه حميد المطبعي في ترجمته إنه: (كان ينطلق في نظريته السياسية من ان التحالف مع الغرب سيساعد العرب علي إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية ولقضايا المغرب العربي)، أسس المجمع العلمي العراقي ١٩٤٧ مع ثلاثة من رفاقه وهم: الشيخ محمد رضا الشبيبي وهاشم الوتري والدكتور متي عقراوي. كما أسس (نادي المثنى) عام ١٩٣٥ وعاونه محمد مهدي كبة وصائب شوكت، كما أسس أول اتحاد للأدباء العراقيين ١٩٣٤ تحت اسم (نادي القلم العراقي).

- ولكنك تعلم أنني لا أتدخل في شؤون غيري.

فانتهره السيد الصدر وقال له:

- يا فاضل إنك تركض هنا وهناك في القضايا التي تريـدها، والآن تعتذر؟ اذهب وافعل ما قلت لك.

بعد أربعة أيام كان طلبة البعثة على متن طائرة يسافرون كلٌّ إلى جهة. لا أدري حقا تفصيلات سفره. ولكن الذي شاع آنذاك أن أباه قال له:

- عندما جئتَ من بيروت عينوك في مدرسة البنات، فإذا جئت مـن أمريكا فستعين في (الكَلَّچِيَّة)[1].

---

(١) الكلچية: الاسم الأغلب على ثلاث محلات متجاورات في الـشمال الـشرقي مـن بغداد القديمة، الرصافة، والمحلتان الأخريان هي (الميدان) و(گوگ نزر). عُرفـت رسمياً بالمبغى العام، وكانت هناك محلة أخرى في جنوب الرصافة القريبة عرفت بذلك الاسم أيضا وهي محلة السَّنَكْ (كلمة تركية تعني الذباب)، وبيوت متفرقة في محلة البتاويين. ومحلة في الكرخ عُرفت بـ(عگد الذهب). ولا أعلم سبب تسمية محلة الميدان بذلك، ولكنني سمعت من الدكتور مصطفى جواد في أحد لقاءاته في المشهاد (التلفزيون) أن الكلچية نسبة إلى (الكَلَّـة) وهـو الاسـم الـذي يطلقـه البغداديون على الجمجمة، ويقصد به هنا: رأس الخروف المذبوح الذي يباع مـع الكرش والأطراف، ويسمى الجميع بـ(الباچة) الأكلة العراقية المعروفة – وكانت تباع في تلك المحلة – ويذكر المرحوم الفنان حافظ الدروبي الـذي كـان يرسـم لوحات مديرية الآثار القديمة عن الآثاريين من طرائف ما ينقل أن الباچة معروفة منذ زمن الآشوريين، وكانت إحدى الأكلات التي قُدِّمت في الحفل العظـيم الـذي أقامه آشور بانيبال في افتتاح مدينة آشور ودعا إليه كل العاملين ومن يـشاؤون من الناس، وقدمت أيضا في تلك الوليمة أكلة الكبة الموصلية المعروفـة. وأمـا گوگ نزر فيرى قسم أنه اسم موروث من البابلية وأصله: (زگـاگ نـاظر) أي: زقاق الربيع. وقسم يرى أنه مأخوذ من التركية ومعناه: (العيون الـزرق). وقـد

مع مرور السنوات على قلَّتها اشتدَّت الأزمة على الشيخ في أمر معاش الأسرة، فأرسل إليه ولده خمس مائة دينار وهو مبلغ عظيم قياساً إلى ذلك الزمن.

كانت مراسلات علي الوردي في سفرته مع الفنان خليل إبراهيم الورد[١]، وإبراهيم بن السيد حسين لحاً[٢].

وتوفيت والدة علي بحكم السن والبدانة وما يجرانه من معضلات. واستمر عزاء النساء لأيام بعد وفاتها، وكان جلسات هادئة حزينة لقراءة الفاتحة وإزجاء الوقت بالحديث.

ولا أكاد أعرف حدثاً مهماً جرى لعلي في حياته في جامعة تكساس إلا ما أسلفت من محاضرته التي ناب فيها عن أستاذه في نيويورك.

وكانت رسالته عن (ابن خلدون – حياته وعصره)[٣].

ألغيت هذه المحلات رسمياً في سنة ١٩٥٧ في عهد وزارة محمد فاضل الجمالي على ما أتذكر. (الهامش للدكتور عبد الأمير الورد).

(١) أطلعني الفنان السيد خليل الورد خلال إحدى زياراتي له في بيته على الرسائل المتبادلة بينه وبين الدكتور علي الوردي، ولفت نظري في تلك الرسائل أن الدكتور الوردي كان يُكثر فيها من وصف المنجزات التكنولوجية الحديثة التي يراها في أمريكا والتي لم يكن ليصدقها أحد في العراق آنذاك، ومنها على ما أذكر السُلَّم الكهربائي المتحرك.

(٢) لم أعرف من هو السيد إبراهيم بن السيد حسين، فهو بالتأكيد ليس أخاً للدكتور الوردي لأنني أعلم أن ليس له إخوان.

(٣) طبعت الرسالة في كتاب مستقل في مصر ثم في تونس، ولم تصل منه إلى العراق سوى نسخ قليلة، ويعدُّ هذا الكتاب من أفضل الكتب التي ألفها الوردي.

وانتهت المرحلة الدراسية الجامعية لعلي الوردي لتبدأ مرحلة جديدة.

عاد علي الوردي ونفسه متخمة بالمعضلات التـي يريـد مواجهتهـا والثورة عليها.

عاد ثورة غير سياسية على الرسوم الاجتماعيـة (التقاليـد) وعلـى التاريخ وعلى القيم لا في الشرق وحده بل في الغرب أيـضاً إذا اقتـضى الأمر.

في عودته ركب سفينة مبحرة من فرنسا إلى بيروت على مـا أظـن، وهي سفينة كما قال عنها للعلية المترفة من الناس وفاتني أن أسأله كيف تسلل إليها بين ركابها.

وفي مطعم السفينة رأى كيف يستعملون للطعـام ملاعـق وأشـواكاً وسكاكين، غير التي تستعمل للفواكه، وغيـر التـي تـستعمل للحلـوى والمثلجات، فضايقه ذلك أشد المضايقة، فجعل يخلط قاصداً في الاستعمال بين هذه وتلك، وشرع يرفع التفاحة بيده فيقضمها بصوت مسموع.

تقزز القوم في أول الأمر.. ثم اعتادوا منه ذلك.

((وحين غادرتُ السفينة كانوا جميعاً يفعلون فعلي))

فلنسجل أن هذه أولى ثورات علي الوردي.

(٥)

عندما سمع ولداه من يقول: إن أباكما قد عاد وهو في رأس الزقـاق، ركضا إليه.

وحين فتح أبوه الباب ورآه.. لا أدري ماذا جرى بينهما، وهل تمكـن

علي من تقبيل يد أبيه أو تقبيله بأية صورة.. ولكن المعلوم تماماً أن أباه صاح في وجهه:

- ها.. علي.. جيت؟

ثم لعنه وغادر الدار إلى غير رجعة.

ومع شيوع نبأ عودة علي شاع نبأ مغادرة أبيه الدار وسكناه في فندق الأحمدي في المنتصف من شارع المرتضى في مدينة الكاظمية لعلاقة صداقة تربطه بمالك الفندق.

ولم يهدأ بال خالي ووالدتي وخالتي لحظة واحدة حتى وافق على السكنى معنا.

أما علي فصار يستقبل زواره في كل ليلة في حديقة البيت الأول الذي بناه ابن عمه السيد أبو مصطفى محمد هاشم الورد في منطقة النواب[1].

وصرنا نسمع الأعاجيب عن أمريكا وأحوالها.. كان قسم منها لا يكاد يُصدَّق، فكيف يستغنون عن المناديل من القماش بمناديل من الورق؟.. كيف يأكلون لحوم العجول بدل لحوم الضأن؟.. كيف.. كيف.. كيف.. كانت الجلسات حقاً جلسات لذيذة وجميلة ومفيدة. وشنَّ عليّ من الجلسات الأولى حملة شعواء على الأغنية العراقية لأنها أغنية حزينة باكية لا تعرف الفرح ولا تتحدث إلا عن فراق الأحبة وآلام العشاق. في

---

(١) من أشهر الصاغة في بغداد، وله محل صياغة مشهور في شارع الرشيد قرب غرفة تجارة بغداد الواقعة على شارع النهر، وقد ظلت العلاقة متينة بينه وبين الدكتور الوردي حتى وفاة الأول، وقد حضرت مجلسهما في بيت السيد محمد هاشم الورد الذي كان يعد عميد الأسرة الوردية، وخلفه الوردي في هذه العمادة.

حين يعم الفرح والبهجة الأغنية الأمريكية.

وحدثنا أن عجوزاً كان ينزل في بيتها طالب بعثة عراقي شكت إليهم أن هذا الفتى كلما دخل الحمام ليغتسل يبكي وينوح بحيث يحملها صوته على البكاء معه، وطلبت منهم البحث في التخفيف عن حاله.

وعندما سألوه لماذا تبكي عندما تدخل الحمام بحيث تجعل هذه العجوز تبكي لبكائك؟ تعجب الفتى أشد التعجب وأنكر أنه يفعل ذلك. وبعد السؤال والجواب ظهر أن الفتى كان يتغنى بالأغنيات العراقية والريفية منها بخاصة وبالأبوذيات والعتابة والموالات والمقام.

والغريب هنا أن علياً في إحدى سفراته فيما بعد طلب من ابنه الدكتور حسان أن يرسل إليه تسجيلات رشيد القندرچي(١) وكان يؤثرها على سواها. فما عدا مما بدا..!

ولا أتذكر كم أسبوعاً استمرت جلسات الاستقبال، وكنت حريصاً على حضورها.

المهم أن أبا علي استقرَّ في مبيته عندنا.. وحدثت حقاً معجزة.. إذ كنت أعود إلى البيت لأجد أمامي جلسة بهيجة مرحة ضاحكة.

كانت دارنا كئيبة فيها خمسة أنا أصغرهم وتكبرني أختي بسبع سنوات وأكبر منها خالتي التي ترفض الزواج وهي من قوارئ المنبر الحسيني والمآتم الخاصة، ويكبرها خالي الأعزب وهو صائغ فنان وخبير في تصليح النواظير والأسلحة الخفيفة وتكبرنا والدتي التي هي امرأة ناشز

---

(١) من رواد قراء المقام العراقي، وهو أستاذ كل قراء المقام المشهورين في العراق مثل القبانچي وغيره.

وهي أيضاً من قوارئ المنبر الحسيني والمآتم الخاصة كافتها، وقد ورثت ذلك عن جدتي، وهناك امرأة عجوز شمرية طائية نذرت نفسها لخدمتنا وربتنا جميعاً. وكانت ونحن في هذه الدار تبيت الليل في دارها القريبة.

بيت من دون أطفال، بيت من دون بهجة.

لذلك كان جو البيت يتميز بالكآبة الدائمة. وكان مجيء الضيوف يعني بالنسبة لي فرحة وأنساً.

أما مجيء شيخ طاعن في السن كالسيد حسين فكان أمراً آخر. فقد ظهر أن هذا الشيخ يحمل من عوامل البهجة والفرحة والانطلاقة المرحة الشيء الكثير، فكانت لياليه من أجمل ما مر في حياتي من الليالي حتى الآن.

كنا نتحلق حوله فيروي لنا ويحدثنا ويحاورنا.

ودلني حواره لوالدتي على أنه يحمل حساً إيقاعياً شعرياً عجيباً، فكان كل إشباع في غير محله لحركة هاء الضمير أو قصر في غير محله يثير فيه التعليقات الساخرة، ثم يصوب لها العبارة. وكذلك كان كل خطأ في حركة أو صيغة يؤثر في إيقاع البيت الشعري.

كانت فرحتي بتلك الجلسات بحيث كنت أستبطئ الليل وأتمنى سرعة غياب الشمس.

نعم، كان هذا الرجل الذي يوصف بالنحاسة والعبوس أطلق الناس وجهاً وأمرحهم نفساً.

ومرت على ذلك شهور، هي حقاً شهور السعادة. حتى جاء علي يطلب من أبيه أن يعود إلى البيت لأنه يريد أن يسافر إلى كربلاء في زيارة

الأربعين ولا يمكن أن يترك الأسرة من غير راع.

حيلة بارعة وذكية.

وعاد السيد حسين إلى بيته وولده وحفيديه وكنته.

وذهبت تلك الليالي التي لم أتمتع بأجمل منها ولا أحلى ولا أبهج في حياتي حتى كتابتي هذه السطور.

وبعد مدة استأجر الدكتور علي بيتاً في الشوارع التي تقابل إعدادية الكاظمية. وبدأت زيارات متتالية شبه شهرية نقوم بها إليه أنا وصديقي وقريبي (أمه بنت عمتي) الشاب الفذ الذكي علاء كاظم الخطيب.

كان يستقبلنا بحفاوة وببساطة ولا يشعرنا بأدنى تكلف أو إحساس من جانبه بالفارق العلمي والثقافي والعمري، وكنا نقضي معه الساعات في نقاش مستمر.

شابان متطلعان للحياة في مرحلة الإعدادية ينضحان بأسئلة واستفسارات ورجل ممتلئ بالعلم والتجربة.

واستمرت الحال هكذا إلى أن اجتاز علاء الخطيب مرحلة الدراسة الإعدادية بتفوق فكان الثالث على المتخرجين في العراق في الفرع العلمي.

سأله علي الوردي: ستقدم للبعثة؟ أليس كذلك؟

فأجاب علاء: بلى يا دكتور، وجئت أستشيرك في الفرع الذي تفضل تقديمي إليه.

بعد قليل قال علي الوردي:

- البلد مقدم على نهضة في الجوانب كلها والنهضة لا تقوم إلا على

الكهرباء فقدِّم إلى دراسة الكهرباء.
في الزيارة التي بعدها سأله:
- علاء.. إلى أي فرع قدمت في البعثة؟
- إلى الكهرباء يا دكتور.. إلى الهندسة الكهربائية.
انفجر عليِ الوردي:
- أي كلب ابن كلب نصح لك بذلك؟ الكهرباء تنتل (تصعق).. قدِّم إلى غيرها.
لا أستطيع أن أصف حالي وحال علاء في تلك اللحظة.. بقيت الضحكة المجلجلة محبوسة في نفوسنا نغالبها طيلة الجلسة.
وعندما خرجنا وابتعدنا بما فيه الكفاية عن الدار انفجرنا بضحكة مدوية.
وغيَّر علاء حقاً تقديمه فاتجه إلى الهندسة الكيمياوية.
وعندما سافر علاء الخطيب انقطعت سلسلة الزيارات.
وانتقل علي الوردي إلى دار بناها على بعد ثلاثة شوارع من الدار التي كان استأجرها، ولم أزره فيها إلا مرتين.
مرة كانت مع الأستاذ الفنان خليل الورد، قبيل انتفاضة تشرين سنة ١٩٥٢، وأخرى بعد سنة ١٩٦٣.
وهذه الزيارة الأخيرة مرت بتجربة غريبة. كنت أتصل به فيضرب لي موعداً وعندما آتي في الموعد يقول لي ولده إن أبي نائم.
وتكرر الأمر حتى قال لي الوردي أنه أوصاهم أن يوقظوه.
وفهمت فيما بعد أنه كان يستعمل علاجات لتقرح المعدة، فيستلقي بتأثيرها ويبدو مغرقا في النوم. وحقاً دعوتهم إلى إيقاظه فإذا به غير نائم وتمت الزيارة.

ثم انتقل بعد مدة إلى دار في المنصور، ولم أعلم بذلك ولم أزره فيها.

ثم انتقل بعد مدة إلى دار في الأعظمية في شارع طه وزرته فيها مرة مع الأخ محمد مهدي محمد جعفر الصدر. ثم مع جمع من المثقفين بعد محاضرة لتكريمه في قاعة ابن النديم[١].

وأتذكر أنني كنت غير مرة أذهب إلى باب داره بعد موعد في الربيع لكي أنقله إلى دارنا للوليمة السنوية التي كنا نقيمها ونقدم فيها الأكلة المعروفة عند العرب بـ(المَضيرة) التي اشتهر بها البلاط الأموي في دمشق ونُعِت بها أحد رواة الحديث فسمي (شيخ المضيرة)[٢]، وقد أثبت

---

(١) قاعة تقام فيها احتفالات وأماسي ثقافية وشعرية ومحاضرات فكرية، ملحقة ببناية المكتبة الوطنية في باب المعظم مقابل مبنى وزارة الدفاع القديمة. وحفل التكريم الذي يقصده الورد هو الحفل الذي أقامه نادي الجمهورية الثقافي الذي كان يرأسه الصحفي مؤيد عبد القادر، وكنت نائبه، وقد تعذر على الوردي حضور الحفل بسبب حالته الصحية والمرض الذي انتهى بوفاته، فأرسل الوردي إلى الحفل بيت شعر واحداً بيد ولده الدكتور حسان وهو البيت المشهور القائل:

أتت وحياض الموت بيني وبينها   وجادت بوصل حيث لا ينفع

وقد اضطررت لكتابة كلمة ضمنتها هذا البيت وأعطيتها للدكتور حسان ليلقيها في الحفل، فإن من غير المقبول أن يصعد إلى المنصة ليقرأ بيتا واحدا وينزل. انظر الملحق (٤).

(٢) هو الصحابي أبو هريرة الذي اشتهر بأنه أكثر رواة الحديث على الرغم من صحبته القصيرة للرسول (ص) التي استمرت قرابة ثلاث سنوات فقط، وجاءه لقب (أبو هريرة) من هرة كان يصطحبها في رحلاته بين اليمن والحجاز، أما لقب (شيخ المضيرة) فقد جاءه من أكلة كان يحبها ويقدمها له الخليفة الأموي مروان بن الحكم.

ذلك الثعالبي في كتابه (ثمار القلوب في المضاف والمنسوب). وكان يُدعى معه العلامة الدكتور حسين علي محفوظ والأخ الحبيب فوزي عمران السعدي وعدد من شباب الأسرة[1].

ولا بدَّ أن أذكر أنه عندما أقيم مهرجان الشعر العربي التاسع مع مؤتمر الأدباء العرب السابع دُعينا إلى وليمة عشاء في القصر الجمهوري وبعد انتهائها خرج كل إلى سيارته إلا أربعة قطعوا المسافة إلى خارج القصر سيراً على الأقدام، هم الدكتور علي الوردي، والعلامة الدكتور حسين علي محفوظ، والشاعر رشيد مجيد الناصري[2]، وكاتب هذه السطور.

(٦)

لا بد من القول إن علياً الوردي كان هادئاً بعد ثورته في السفينة، واقتصر نشاطه على الاستجابة لطلب بعض المثقفين فيلقي محاضرة في موضوع ما، وأتذكر إحداها في إعدادية الكاظمية للبنين، وكانت في علم النفس والتربية، وثانية أخرى فيها أيضاً بعد ما يقرب من عام من الأولى وكانت حول النظريات العلمية الحديثة، ولأول مرة يشرح علي الوردي نظرية أينشتاين وما أثارته من تغيرات في فهم الحقائق التطبيعية

---

(١) حضرتُ مرة مثل هذه الدحوة. وتورطتُ بأكلة المضيرة، ومكثتُ في داري لم أفارقها لثلاثة أيام، وكذلك الدكتور حسين علي محفوظ، فقد كانت هذه الأكلة مليئة بالثوم بشكل غريب. ولم تفارقنا رائحة الثوم إلا بعد ثلاثة أيام.

(٢) هو شاعر وفنان مسرحي وكاتب مقالة ومصور وناقد، له مجموعة شعرية بعنوان (وجه بلا هوية)، ولد عام ١٩٢٢م وتوفي في عام ١٩٧١م.

(الفيزياوية) وكانت محاضرة ثرية بالمعلومات.

ثم بدأت ثوراته.

إن من يقرأ أياً من كتبه لا بد أن يجد فيه ثورة وهمزاً ولمزاً وغمزاً وطعناً ولعناً وشتيمة. ولكن لمن؟ لم يشأ الوردي أن يوجه كلامه إلى فئة بعينها أو إنسان بعينه، ولكنه وجهها إلى الناس كل الناس.

وبدأ أولى ثوراته في كتابه شخصية الفرد العراقي.

وسبَّب الكتاب هجمة من النقاد اتهمته فيه بالعمالة لأمريكا لأنه اتهم فيه الفرد العراقي بازدواج الشخصية(١).

وبدأت كتبه، أو قل: ثوراته، واحدة بعد الأخرى.

وكان كلما صدر له كتاب وأجج ثورة واتسع كلام الناس فيها، معها أو عليها، يصطحب صديقه الأديب الفذ علي اللقماني ويتجولان في شوارع الكاظمية ليسمع التعليقات الصادرة من الناس.

وكان الناس ممن يعرف أباه يشكونه إليه على عادتهم ويقولون له:

- سيدنا.. من المؤكد أن ابنك لا يقول هذا الكلام أمامك.

فكان يجيبهم:

- الناس أنواع.. فمنهم من له وجه واحد، ومنهم من له وجهان، أما ابني علي فمثل ساعة الصحن(٢)، له أربعة أوجه!

---

(١) كثيرة هي الاتهامات التي وُجِّهت للوردي، فتارة وُصِم بأنه عميل أمريكي، وتارة وُصِم بأنه ماسوني، وأخرى بأنه طائفي، وأخرى بأنه شعوبي، وأخرى بأنه شيوعي، وأخرى أطلقها بعض الطائفيين السنة بأنه شيعي، وأخرى أطلقها الطائفيون الشيعة بأنه سني... وهو بريء من هذه الأوصاف كلها، فهو ورديٌّ فقط.

(٢) لساعة الصحن الكاظمي وسائر المراقد المقدسة في العراق أربعة أوجه.

وكانت إحدى جولاته بصحبة الأديب البارع الشاعر عبد الرضا صادق[١] بعد أن صدر له كتاب ردَّ فيه على علي الوردي وسماه: (سفسطائية للبيع).

وعجب الناس وهم يرون عدوين لدودين صديقين يتمشيان معاً[٢]!

وبدأت كتبه واحداً بعد الآخر.. وقد هاجمه أئمة الجمعة في خطبهم حتى قال أحدهم:

- إن أسباب الفساد في البلد ثلاثة: الخمر، والميسر، وعلي الوردي..!!

وبدأت تتضح في كتبه ثلاثة خطوط ذهنية، استطاع هو أن يجعل منها مزيجاً متجانساً: ازدواج الشخصية الاجتماعي، والصراع بين البداوة والحضارة، والتناشز الاجتماعي[٣].

---

(١) باحث ومؤلف عراقي، درس في القاهرة وحصل على الماجستير عام ١٩٧٧عن رسالته المعنونة (أدب الشيعة في العراق من ١٩٠٠ ـ ١٩٥٨م).

(٢) كان الوردي لا يضيق بالنقد أبداً، وربما كان يتطلبه بنفسه، في حين كان يضيق ذرعاً بالمديح ويردد دائماً قولاً منسوباً للنبي محمد (ص) هو: (احثوا في وجوه المداحين التراب).

(٣) التناشز الاجتماعي هو ترجمة للمصطلح الذي جاء به العالم الاجتماعي المعروف أوغبرن، وترجمه الدكتور الوردي في عام ١٩٦٥ في كتابه (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي)، ثم عرضه على المجمع العلمي العراقي ولم يحظ منه بجواب إيجابي أو سلبي.. وقد أخبرني الوردي بتفاصيل ذلك في اللقاء الذي أجريته معه ونشرته مجلة الأفق الأردنية في عددها المرقم ٤٥ في ١٠ آذار ١٩٩٣، راجع الملحق رقم (٣).

ويعترف هو في الجزء الأول من كتابه (لمحات اجتماعية من تــاريخ العراق الحديث) أنه اقتبس فكرة ازدواج الشخصية الاجتماعي من عــالم اجتماعي معروف هو (مكايفر) ، واقتــبس فكــرة البــداوة والحــضارة والصراع بينهما من (ابن خلدون)[1].

إن هناك سؤالاً لا بدَّ من طرحه في دراسة علــي الــوردي. فكتابــه (خوارق اللاشعور) ظهر في الأيام التي كانت فيها البلاد تغلي في مقدمات انتفاضة تشرين.

وكتابه الآخر الذي أثار ضجة كبرى لتناوله قضية الإمام علي سلام الله تعالى عليه ظهر في أيام الانتخابات التي شاركت فيها الجبهة الوطنيــة، وقال فيه: (لم يشهد التاريخ رجلاً فرَّق الجماعة كعلي بن أبــي طالــب، وعليٌّ لم يكتفِ بتفريق جماعة المسلمين بنفسه، بل أورث نزعته الهدامة هذه لأولاده من بعد، ففي كل مجتمع نجد زمرة تدعو إلى مبدأ جديد فتقلق المجتمع وتمزق شمله). ومال فيه إلى رأي طه حسين[2] في الإمام الذي

---

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي المؤرخ الشهير ورائد علم الاجتماع الحديث الذي ترك تراثا ما زال تأثيره ممتدا حتى اليوم، واشــتهر بكتابــه الفــذ (مقدمة ابن خلدون). ولد في تونس عام ١٣٣٢م وعــاش فــي أقطــار (شــمال إفريقيا). توفي في مصر عام ١٤٠٦م، و دفن في مقابر الصوفية عند باب النصر شمال القاهرة.

(٢) طه حسين أديب وناقد مصري كبير لقّب بعميد الأدب العربــي. خــالق الــسيرة الذاتيّة العربية مع كتابه (الأيام) الذي نشر عام ١٩٢٩. ولد في عام ١٨٨٩م في الصعيد ودرس في جامع الأزهر والجامعة الأهلية ثمّ فــي فرنــسا فــي جامعــة (السوربون). فقد البصر فيما كان عمره ٣ سنوات. تولّى إدارة جامعة الإسكندرية

يقول فيه: (إن محمدا كان يدعو ويفضل خلافة علي ولكنه لم يجبر المسلمين عليها).

وثارت الناس لكلامه هذا وضجيج الانتخابات يملأ الساحة، ووقف حكماً بينه وبين مهاجمه صبري الزبيدي[1] الذي كان يخوض الانتخابات أيضاً لنفسه، الشيخ محمد الخالصي[2] والحاج عبد الهادي الچلبي[3] الذي

سنة ١٩٤٣ ثمَ أصبح وزيرا للمعارف سنة ١٩٥٠. من مؤلفاته: (في الأدب الجاهلي) و(الأيام) سيرته الذاتية، بالإضافة إلى بعض الأعمال القصصية (دعاء الكروان، شجرة البؤس، المعذبون في الأرض)، والتاريخية (على هامش السيرة) والنقدية (حديث الأربعاء، من حديث الشعر والنثر)، والفكرية (مستقبل الثقافة في مصر). توفي عام ١٩٧٣.

(١) شاعر عراقي وُلِد في مدينة شهربان التابعة لمحافظة ديالى عام ١٩٤١. نشر أول قصيدة له في جريدة بغداد عام ١٩٦٥. عمل خبيرا ثقافيا في وزارة الأوقاف. أصدر عدة مجاميع شعرية منها: (خبز وبنفسج) و(ترانيم في مملكة الورد) و(تداعيات بيزوف) و(دمعة على عتبات الغياب) و(عرائش النور).

(٢) هو آية الله العظمى الشيخ محمد مهدي الخالصي الكاظمي الأسدي. ولد في الكاظمية عام ١٨٨٨م، تدرج في مدارج العلم حتى غدا من كبار علماء الكاظمية في وقته، وقد تم انتدابه من قبل أهالي كربلاء هو وعبد الحسين نجل الإمام محمد الشيرازي وبعض الشيوخ والسادة لينوبوا عنهم لدى المحتلين الإنكليز لشرح مطالبهم، وقد كان شديد اللهجة مع الإنكليز حتى إنهم كانوا حذرين في مقابلاتهم له بتصريف كلامهم لأنهم يعلمون تأثيره على العراقيين عموماً. توفي عام ١٩٦٣ في الكاظمية ودفن في المرقد الكاظمي الشريف.

(٣) الثري العراقي عبد الهادي بن عبد الحسين الچلبي نقيب عائلة الچلبي البغدادية الكظماوية، ووالد السياسي العراقي (أحمد الجلبي). ولفظ (الچلبي) تركي ويعني كبير التجار، أو (شاهبندر) بالفارسية. وقد أقطع السلطان مراد الرابع أجداده

كان يخوض ابنه[1] الانتخابات مرشحاً للحكومة. لذلك كان الناس يتهمون علياً بأن له علاقة وثقى بالدولة والسفارة البريطانية لتوقيته لظهور كتبه في أيام الأزمات السياسية التي تمر بها البلاد.

ولم تتكرر هذه الظاهرة، وماتت الشائعات معها أيضاً.

وتجاوز علي الوردي في ما كتبه حاضر الأمة ليعود إلى تاريخها فيتناول ما ظهرت فيه من مشكلات، فناقش علياً وعمر وهارون الرشيد والسلاطين والوعاظ. وهو أول من ابتدع مصطلح: (وعاظ السلاطين) وهاجم الشعر والشعراء.

ثم كان آخر ما هاجم العربية، كما وصلت إلينا، وأعلن في إحدى الحلقات المتأخرة من كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) أنه بدأ بالخروج عن قواعد اللغة العربية فصار يكتب جمع المذكر السالم بالياء والنون مهما يكن إعرابه، ويكتب المثنى بالياء والنون أيضاً، وأنه سيبدأ شيئاً فشيئاً بالخروج عن القواعد الأخرى[2].

أرضا كبيرة قرب منطقة الكاظمية ومحيطها عندما افتك بغداد من يد الصفويين عام ١٦٣٨، وهي المعروفة الآن باسم (مدينة الحرية) بعد أن كانت تسمى (مدينة الهادي) نسبة إليه. اضطر عبد الهادي الچلبي بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨ وصدور قانون الإصلاح الزراعي ثم قرارات تأميم المنشآت الاقتصادية في عام ١٩٦٣ إلى ترك العراق واختيار لندن منفى له، حيث توفي هناك عام ١٩٨٨.

(١) هو رشدي الابن الأكبر للحاج عبد الهادي الچلبي.

(٢) على الرغم من هذه المعلومة التي أوردها الدكتور عبد الأمير الورد، إلا أن العلامة الدكتور حسين علي محفوظ يرى أن عليا الوردي أبلَغُ المؤلفين وأنه لم يخطئ في العربية يوماً، لا كتابة ولا حديثاً، وأنه كان يتأكد من يصحح للناس أخطاءهم النحوية بأن يصحح لهم أخطاءهم النحوية عندما يتحدثون.

وصدر القانون الإعلامي (قانون الحفاظ على سلامة اللغة العربية)[١].. وأحس علي الوردي أنه لا بد أن يكون هو المقصود بذلك القانون!

ولا أشك أنه حمد الله تعالى ألف مرة لأنه لا يوجد للقانون أثر رجعي، وإلا لكان قُدِّم للمحاكمة.

وبالرغم من علمه أن هذا القانون للإعلام لا للتنفيذ، وأنه لو نُفِّذ حقاً لكان أول المدانين به رأس النظام نفسه، الذي لا يكاد يحسن من العربية الفصحى شيئاً، وكبار الحزبيين الذين كانوا يملون أفكارهم على من دونهم ممن يحسنون من العربية شيئاً. التزم علي الوردي الصمت فلم يصدر من بعد ذلك شيئاً. وجاءت الحوادث لتقول لعلي الوردي: احذر فإنك تسبح واضحاً ضد التيار.

كان علي الوردي يهاجم القبلية والعشائرية، وإذا بالسلطات شيئاً فشيئاً تغطي إفلاسها العام بالاعتماد على القبلية والعشائرية!

وشاهد علي الوردي بأم عينيه كيف صار بعض الطلاب يُقبَلون ثم يمنحون الشهادات، بل الشهادات العليا أيضا، بصورة مفتعلة بأوامر وضغوط حزبية تحت هذه الذريعة أو تلك.

وشاهد علي الوردي أن في قيادات المجتمع من لم يكن يحسن قراءة صفحة واحدة أو كتابة سطر واحد[٢]!

---

(١) صدر القانون برقم ٦٤ في سنة ١٩٧٧، بهدف حماية اللغة العربية، حيث أقر عقوبات على من يخالف قواعد اللغة العربية في التأليف ووسائل الإعلام والدعاية.

(٢) لم يكن من المهم لهذه القيادات أن تكون من الأدباء أو الشعراء أو المفكرين، وكانت مناصبها وثقافتها سياسية لا غير، وهذه المناصب ليست حكراً على ذوي الثقافة العالية وحملة الشهادات العليا.

وكان له أن ألقى محاضرة في قاعة الإدريسي في كلية الآداب من جامعة بغداد من باب ذر الرماد في العيون، تحدث فيها عن إمكانات علم الاجتماع والاجتماعيين في الإسهام في ورقة العمل التي أعلنها النظام لتلافي تردي الوضع الإنتاجي العام.

ثم كانت له محاضرة[١] أقامتها أمانة بغداد وأحدثت دوياً كبيرا ولم

---

(١) ألقى الوردي هذه المحاضرة أواخر شهر آذار ١٩٩١ في منتدى أمانة بغداد، وكان المنتدى يعقد جلساته عادة في قاعة تقع في الطابق الثاني من بناية المتحف البغدادي، ولكن القاعة ضاقت بالحاضرين فأوعز أمين بغداد يومها المرحوم خالد عبد المنعم رشيد بنقل المحاضر والحاضرين بحافلات كبيرة إلى القاعة الكبرى في مبنى أمانة بغداد التي ضاقت هي الأخرى بالحاضرين على الرغم من اتساعها، وقد كانت هذه المحاضرة حدثاً مهماً في تلك الأيام لتزامنها مع انتهاء حرب الخليج الثانية وما أعقبها من أحداث في محافظات العراق، وفي تلك المحاضرة أعلن الوردي بنحو هادئ غضبه على الطريقة التي تعامل بها النظام مع ما سمي وقتها بـ(الغوغاء) أو (صفحة الغدر والخيانة)، ومن الطريف الذي يجدر ذكره هنا هو أن أمين بغداد تقدم إلى المنصة ووضع جهاز تسجيل أمام الوردي، وعندما سأله الوردي عن سبب تسجيل المحاضرة قال له الأمين: إن السيد الرئيس (صدام حسين) يريد الاستماع إليها. مما جعل الوردي يعلن انتقادات شبه صريحة ليسمعها الرئيس، وقال فيما قال: نحن لسنا فئران تجارب لتدخلونا كل يوم في تجربة جديدة، فما معنى أن تستحدثوا مثلاً شرطة أخلاق، وهل لدى الشرطة أخلاق أصلاً؟ فإذا كنتم قد ضللتم الطريق فتعالوا إلينا لندلكم على الطريق الصحيح لحكم الشعب. ثم قال بالحرف: لا تليق بهذا الشعب إلا مثل هذه الحكومة.. وعندما رأى علامات الغضب على وجه أمين بغداد قال الوردي مبرراً: هذا ليس قولي أنا إنما هو قول النبي محمد الذي يقول: كيفما تكونوا يولً عليكم! والواقع، إن هذا الكلام كان له وقع في نفوس الحاضرين، لحساسية

أوفق إلى حضورها، ولكنها اصطدمت بوضوح مع قيم حزب البعث العربي الاشتراكي، واستطاع الوردي بلباقته وهدوئه وتأثيره أن ينتصر في موقفه.

إن من يتتبع سيرة علي الوردي يجد أنه حُصر في زاوية لا يستطيع الفرار منها، فالقيم التي كان يعارضها ويفندها في كتبه صارت تتصدر شيئاً فشيئاً الواجهة الإعلامية(١).

شيئاً فشيئاً قفزت القيم البدوية والقبلية والعشائرية لتصبح المحرك الإعلامي الأول لسوق الناس إلى محرقة الموت في حرب ثماني سنوات لم يربح فيها البلد قلامة ظفر، وقد أحسن الغرب إثارتها واختيار شخصياتها وتقديم العون لها بكل الصور المادية والعسكرية للوقوف في وجه التيار الخميني، ثم المحرقة المدمرة الثانية: غزو الكويت.

وقبل الحربين شُرِّدت آلاف العوائل بذريعة التعصب العرقي إلى خارج مساقط رؤوسها(٢). وقضى على مئات الآلاف من الأكراد بمختلف وسائل القتل والإبادة الجماعية، وهُجِّرت مئات الأسر منهم إلى الجنوب، وجرت

الظرف العام الذي كانت تمر به البلاد، بعد انسحابها من الكويت وعدم قدرتها على مجابهة أمريكا والدول المتحالفة معها، فضلا عن الأحداث العاصفة التي مرت بعد الانسحاب في شمال العراق وجنوبه ووسطه.

(١) وصف بعض المراقبين هذه المرحلة التي مر بها العراق بـ(التريّف) أو (حكم القرية)، والواقع أن وجهة نظر النظام كانت تنحصر في تحشيد الرأي العام والجهود الشعبية لمواجهة القوى الكبرى التي كانت تضغط على البلاد بالحصار والحرب المباشرة.

(٢) وهو ما سمي في وقته بـ(تسفير التبعية)، أي طرد أبناء الجالية الإيرانية من العراق.

محاولة التغيير السكاني لمدينة كركوك. واشتُرِيَت الضمائر إعلامياً من كتاب الصحف والمجلات وناظمي الشعر والملحنين والمطربين.

وانتعشت العامية، وأطلت بوجهها الشائن القبيح، وما تزال كذلك إلى كتابة هذه السطور[١]، وجرت تزكية الشعر العامي والريفي لاستيعاب ذلك الطوفان العرم العفن[٢].

وصمت علي الوردي لئلا يرغم تحت طائلة التهديد والوعيد ليقول ما يسهم به في ذلك العار الدافق.

ولم أعد ألتقيه إلا مصادفة في لقاءات عابرة.

حتى قُدِّر لمجلس الخاقاني الذي اشتد أمره في سنوات العقد العاشر أن يجمعني به.

(٧)

كم تغير الرجل عما كان عليه؟!

لقد أثر مرور العمر فيه تأثيراً كبيرا..

لم يكن علي من أبطال الرياضة خفيفي الحركة.. كان هادئ الحركة دائماً.. ولكن هناك فرقا بين هدوء الحركة مع إمكان السرعة.. والهدوء

---

(١) كتب الدكتور عبد الأمير الورد هذه السطور في تموز عام ٢٠٠٥بطلب مني.

(٢) يظهر للقارئ مدى تعصب الدكتور عبد الأمير الورد للعربية الفصحى، ومن الجدير ذكره هنا أنه كان لا يستعمل العامية أبدا في حياته ولا حتى في بيته بين أطفاله، ومن الطريف أنه كان يتناوم عند إلقاء الشعراء الشعبيين لقصائدهم لئلا يقال: إن الورد استمع إلى قصائد عامية. لكنه يوماً نظم بيتاً من الشعر الشعبي البذيء تحدياً للشاعر الشعبي داود الرحماني لم يخلُ من مغزى.

بحكم السن.

هاهي ذي الشيخوخة تبدو بوضوح..

كنت أعرفه منذ أن عاد من أمريكا رجلا واقعيا وضعياً.

هكذا عالج الحياة، وهكذا عالج المجتمع بمشاكله قديمها وحديثها.

وكانت له أحكامه القاطعة في كل ما يحاكمه، سواء أ كان الأمر قديماً في تاريخ الأمة أم حديثاً.

وكان يتمنى أن يتمم كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) وكان مقررا أن يتوقف عند سنة ١٩٤٨ وهو موعد مقصود لأنه في هذه السنة وُلِد حزب البعث العربي الاشتراكي، وصار لزاماً عليه بعد ذلك أن يجعل البعثيين الذادة الرادة السادة القادة..!!

عندما كنا نزوره في زياراتنا شبه الشهرية، كانت الأحاديث تتشعب بنا كل التشعب، وكان من جملة ما يعتقده أن تناول كوبة من الخمر غير ذات ضرر بل هي منعشة للذهن ومحفزة على الكتابة والإنجاز.

وكان يكاد يتميز غيضاً من أن زميلاً له في الدراسة كان يتناول الخمرة بشبه إدمان ألقى محاضرة في أحد التجمعات الدينية في الكاظمية عن مضار الخمرة..!! بحيث قال شيخ بعد ذلك: لا كلام لنا بعد كلام الدكتور.

ولم تكن له علاقة بالالتزام الديني اليومي، الصلاة والصوم أو غيرها(١). أما علي الذي وجدته فقد كان يؤدي الخمس بأوقاتها ويستعين بقراءة الأوراد والأدعية. عندما رأيت علياً على هذه الحال تمنيت من الله

---

(١) لم أسمع من الوردي كلمة (صلاة) إلا ما يخص الصلاة التي يصفها بأنها (صلاة الصوفية) والتي يؤديها وهو يمشي على جسر الأئمة عند الغروب. ولا علم لي ما إذا كان يؤدي الصلوات الخمس أم لا.

تعالى أن يمد بعمره لسنوات تكفي لإعادته النظر فيما كتب[١]. وكانت عندي ثقة عظيمة أن موقفه من اللغة والشعر سيتغير شيئاً فشيئاً.

عندما نقف من اللغة موقفاً وضعياً فإن هناك احتمالا لاثنتين وعشرين لغة عامية أن تتطور إليها لغة كلامنا اليومي. وعندما نقف من اللغة موقفا قوميا فإن هناك عددا من احتمالات تفرعها على عدد الأبطال الذادة الرادة السادة القادة القوميين ممن لا يحسنونها أصلاً! أما عندما نقف من اللغة موقفاً دينيا فإن هناك لغة واحدة لأن لها مرجعاً واحداً هو القرآن والصلاة. لذا كنت واثقاً أن علياً سيعود إلى اللغة الأم الأصيلة بعد زمن طال أو قصر.

ولكن الله سبحانه وتعالى غالب على أمره.. وهكذا شاء أن يغيب علي الوردي وهو في مسيرته الهادية نحو الآخرة.

و((يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمّ الْكِتَابِ))[٢].

والشكر لله والحمد والأمر من قبلُ ومن بعد..

بغداد في عصر الجمعة ٨/تموز/٢٠٠٥

عبد الأمير محمد أمين الورد

---

(١) اعترف المرحوم الوردي في اللقاء التلفزيوني الأخير الذي أجريته له في التلفزيون الثقافية بأنه يعد نفسه مخطئاً ولو مُدَّ في عمره لحاول التراجع عن كثير مما أثبته في كتبه، وكان من بين الذين حضروا إجراء اللقاء التلفزيوني الدكتور حسين علي محفوظ والصحفي مؤيد عبد القادر والسيد حيدر الصدر والمرحوم الباحث عباس علي وآخرون.

(٢) سورة الرعد: ٣٩.

مقدمة الطبعة الأولى

مرَّ عام على غياب الدكتور علي الوردي.. وافتقدنا خلال ذلك العام الجلسات المترعة بالمرح والفائدة العلمية والمعلومة الجريئة والطرفة النادرة. ولم تبق لنا من ذلك الوردي سوى الذكرى.. وأية ذكرى؟!

إن الدكتور علي الوردي لم يكن، أبداً، غائباً اعتيادياً. لقد كان له حضوره المؤثر، ولذلك فإن أصدقاءه ومحبيه ما زالوا يتحدثون عنه وكأنه قام من مجلسهم تواً وذهب إلى بيته بعد أن شعر بشيء من البرد، ولم يجلب له أحد عباءة يتدفأ بها أو غطاء رأس، أو أنه شعر بوعكة مفاجأة وغادر المجلس ليريح جسده المتعب على سريره في مكتبه، وهو السرير الذي شاهدته مسجى عليه يوم ١٣/٧/١٩٩٥م.

لقد ترك الوردي للجميع ذكريات جميلة، وخلف لكل واحد من أصحابه حكاية يرتاح لروايتها، بل ويفخر بها، حتى لو كانت في تلك الحكاية سخرية لاذعة.

كنت أعرف الوردي من خلال الأجزاء الأولى من كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) الذي جرني إلى قراءة كتبه كلها، بل كل ما كتبه من مقالات وما أجري معه من حوارات ولقاءات.. كان ذلك

في سنوات يفاعتي، وكنت أتحرق شوقاً للاقتراب من هذا الرجل، ولم يكن ذلك بالأمر العسير على شخص مثلي، فالوردي من مدينتنا (الكاظمية)[1]، وهو يتجول في شوراعها على الدوام، ووالدي يملك محلاً لبيع الأقمشة في أهم شوارع المدينة، وأنا أقضي معظم أوقاتي في مساعدة والدي في ذلك المحل، وكأن البرنامج اليومي للدكتور علي الوردي كان ينص على المرور من شارعنا ومن أمام محلنا تحديداً.

ولكنني تهيبت من الحديث مع صاحب (وعاظ السلاطين) ولم أتجرأ وأسلم عليه إلا في عام ١٩٧٦ عندما شاهدته في ممر مجلة (ألف باء) وكنت محرراً حديث العهد بالصحافة فيها.. وكان الوردي وكأنه يبحث عن أحد.. أردت، وقتها، أن أقول له: إنني كنت أتمنى أن أتعرف عليك. ولكنني لارتباكي قلت له: إنني من جيرانك في محلتك القديمة يا دكتور.

ولكن الوردي نظر نحوي من وراء نظارتيه بغضب وسألني عن غرفة رئيس التحرير الزميل حسن العلوي وانصرف معتمراً (سدارته)[2] حاملاً

---

(١) الكاظمية: مدينة في شمال بغداد، تضم مرقدي إمامين من أئمة الشيعة الاثني عشرية هما الإمام موسى بن جعفر الكاظم، ومحمد بن علي الجواد (عليهما السلام). وفيها مقبرة قريش التي كانت على مشارف أسوار بغداد المدورة التي بناها المنصور، والتي كان أول من دفن فيها جعفر بن المنصور العباسي، وخصصت للموتى من العرب، تقابلها في الرصافة (الأعظمية حاليا) التي تضم قبر الإمام أبي حنيفة النعمان (رض) التي كان اسمها مقبرة الخيزران التي كان مخصصة لدفن الموتى من الأعاجم، وقد عثر مؤخراً على قبر الطبري فيها.

(٢) السدارة: غطاء رأس يسمى (الفيصلية) لأن الملك فيصل الأول باني العراق الحديث كان أول من اعتمرها.

بيده مسبحة قديمة قصيرة يداعب حباتها بأصابعه.

ولم أجد تفسيراً لتصرفه هذا إلا بعد أن قرأت مقالاته وكتبه التي لم أكن قد قرأتها بعد، وحينئذ فقط عرفت أنه عدَّ قولي من آثار الفترة المظلمة وأنه تصرف ينافي الحضارة الحديثة، ثم لا بدَّ أنه حكم عليَّ بأنني مصاب بالازدواجية..!!

وفي وقت لاحق، في عام ١٩٨٤، كنتُ أزور صديقي السيد صفاء الوردي، في محله بباب القبلة في الكاظمية، وكان الوردي يحضر يومياً إلى ذلك المحل فتوطدت بيننا عرى صداقة متينة بتنا معها لا نفترق يوماً.. ولم يوقف هذه الصداقة إلا رحيله الأبدي في الثالث عشر من تموز ١٩٩٥.. وظل محل السيد صفاء الوردي مجلساً يومياً لنا لا نغادره إلا إلى مجلس آخر في مكان آخر.

إن علاقة كمثل العلاقة التي ربطتني بالوردي، وفي مثل عمقها وصدقها، جعلتني أفكر في مشروع نشر تراث الوردي غير المنشور، وجمع المشتت منه في الصحف والمجلات، وإخراجه والتعليق عليه، فكانت هذه أول خطوة في هذا الاتجاه، ستعقبها خطوات كثيرة إن شاء الله، تستهدف جمع ما كتبه الوردي، حتى ما كان يتبادله من رسائل مع أصدقائه ومع الشخصيات الأدبية والثقافية، وسأكون ممتناً لمن يملك مثل هذه الوثائق ويزودني بها أو بصورة مستنسخة عنها لنشرها في كتاب لاحق.

ويتضمن هذا الكتاب مجموعة حوارات مع الدكتور الوردي نشرتها جريدة الاتحاد البغدادية، التي كانت تصدر أسبوعياً عن اتحاد الصناعات

العراقي. وقد نشرت المواضيع التي يضمها هذا الكتاب للمدة من ١٩ شباط حتى ١٤ مايس سنة ١٩٩٠.

الجدير بالذكر أن الوردي زودني بمجموعة من مقالاته المنشورة في الصحف في إحدى سفراتي إلى عمّان[١]، وخولني بإخراجها بالشكل الذي أراه مناسباً، لكن الفكرة لم تتحقق لضيق المجال ولقصر المدة التي قضيتها في عمان.

إن الوردي كتب هذا الحديث على شكل حوار، من يقرأه يظن أن الجريدة هي التي أجرته معه، ولكي أعيد ترتيب ما في الكتاب وأخرجه إخراجاً جديداً ليكون حديثاً متصلا لا حواراً متقطعاً، فقد حذفت الأسئلة وربطت ما بين الفقرات بما رأيته صالحاً للربط ووضعته بين قوسين معقوفين ليعرف القارئ أين تدخلتُ وأين عزفت عن التدخل.. ثم إنني قمت بالتعليق على بعض المعلومات في هوامش، لذلك فإن أي خلل أو ارتباك في موضوع الكتاب، مما هو من مداخلاتي، لا يتحمل وزره الدكتور الوردي، وإنما أتحمله أنا.. لأنني أخرجت موضوع الكتاب وفقاً لاجتهادي الخاص.

---

(١) في هذه السفرة طرح عليَّ السيد سعد البزاز وكان يملك دار نشر في عمان أن أجلب له المقالات التي نشرها الوردي في جريدة الجمهورية مقابل ألف دولار، وعندما عدت إلى بغداد أخبرني الوردي بأنه سيسافر إلى عمان للعلاج وأنه لا يملك (عملة ذهبية) فأخبرته بعرض البزاز فأخذ معه مجموعة المقالات وباعها له، فأخرج البزاز كتاباً يحمل اسم الوردي لكنه تصرف في محتوى المقالات بشكل أخلَّ بها وحولها إلى مقالات تبحث في غرض سياسي، علما أنها مقالات علمية اجتماعية.

إن موضوع الكتاب، كما يبدو من العنوان، هو مذكرات الوردي في الثمانين من عمره.

والجدير بالذكر أن الوردي بلغ الثمانين مرتين، مرة حسب التقويم القمري، ومرة حسب التقويم الشمسي..!! ووراء ذلك قصة طريفة من المناسب أن أرويها هنا.

عندما ودعنا العام ١٩٨٩ وعشنا أوائل أيام العام الجديد ١٩٩٠ أخذ الوردي يكثر من ذكر بلوغه السابعة والسبعين من عمره، في كل المجالس التي نحضرها، ذلك أنه من مواليد العام ١٩١٣.

وفي جدل عن العمر جرى في مجلس الشيخ فاضل الشيبي سادن الروضة الكاظمية السابق أخرجتُ الجدل من موضوعه لأدخله في حيز جديد حين قلت: إن الوردي يبلغ الآن الثمانين من العمر وهو لا يدري..!! فاستنكر الوردي ذلك وحَسِبَ أنني أسخر من الجدل، ولكنني سألته: كم يبلغ عمرك، الآن، حسب التقويم القمري؟.. فاستحسن الوردي الفكرة وأجرى حساباً سريعاً وفرح بالنتيجة..!! ثم قرأت له بعد أسابيع حوارات منشورة في جريدة الاتحاد بعنوان (من وحي الثمانين) في عام ١٩٩٠.

أما بلوغه الثمانين من عمره حسب التقويم الشمسي فقد كان في سنة ١٩٩٣، وأقيم احتفال للوردي بهذه المناسبة، وقمتُ بنشر تفاصيل الحفل يوم الأربعاء ٩ حزيران ١٩٩٣ تحت عنوان: (لأول مرة.. الوردي يحتفل بعيد ميلاده)..!! وعنوان أكبر: (إن الثمانين وبلغتها قد أحوجت سمعي إلى ترجمانِ).

ولا بأس أن أذكر هنا قصة ذلك الاحتفال، وأنقل بعض فقرات الموضوع الذي نشرته في جريدة الجمهورية:

(لأول مرة بعد ثمانين عاماً أطفأ الدكتور علي الوردي وقطع كيكة الميلاد في أول احتفال يقام بمناسبة عيد ميلاده في مجلس أدبي من مجالس بغداد، فقد احتفى عدد من أدباء بغداد ومفكريها وعلمائها ووجوها الاجتماعية والصحفية وسط أجواء احتفالية بهيجة بعيد الميلاد الثمانين للدكتور علي الوردي في مجلس الشيخ عيسى الخاقاني[١]، يوم الاثنين أول أيام عيد الأضحى المبارك[٢].

ولم تجر العادة في السابق على الاحتفال بعيد ميلاد الوردي، لأنه يتضايق كثيراً من مثل هذه المظاهر وما يرافقها من كلمات إطراء وقصائد مديح ومقالات ثناء.. إلا أن السيد محمد، نجل الشيخ عيسى

---

(١) مجلس الشيخ عيسى الخاقاني: مجلس ثقافي أدبي كان يقام أسبوعياً في بيت سماحة آية الله الشيخ عيسى الخاقاني في الكاظمية، الذي يقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة إماماً لمسجد الإمام علي في أبو ظبي، وقد أسس هذا المجلس يوم ٥ آذار ١٩٨٩م باقتراح من الدكتور علي الوردي والدكتور حسين علي محفوظ، وكنت أنا من المؤسسين له، ويديره الأستاذ محمد نجل الشيخ عيسى الخاقاني، ويحضره هذا عادة عدد من كبار أدباء ومفكري العراق حيث تلقى محاضرات وتقام أماسي شعرية، وسأورد قصة تأسيس المجلس وبعض أخباره ونوادره في الكتاب الذي أعكف على تأليفه الآن عن سماحة الفقيه الشيخ عيسى الخاقاني.

(٢) يصادف ١٠ ذو الحجة ١٤١٣هـ / ١ حزيران ١٩٩٣م.

الخاقاني عميد المجلس المذكور توجه بالسؤال إلى الدكتور حسين علي محفوظ عن يوم ميلاد الدكتور علي الوردي فأجابه بأنه سمع من جداته أن الوردي ولد ليلة عيد الأضحى من سنة ١٩١٣[١]، فقرر الخاقاني أن يفاجئ الوردي بهذا الاحتفال.

ومعنى ما قاله الدكتور محفوظ أن الوردي بلغ الآن قرابة الثالثة والثمانين سنة هجرية من عمره المديد.

وعندما وصل الوردي إلى المجلس واستقرَّ في مكانه المعهود، يوم الاثنين أول أيام عيد الأضحى المبارك، وبدأ برنامج الجلسة، وتحدث محمد الخاقاني[٢] عن منهجية البحث لدى ديكارت[٣]، وقال: ((إننا عندما نقرأ ديكارت يقفز إلى أذهاننا اسم الدكتور علي الوردي، وإنه مثلما احتفلت القاهرة بمرور ٨٠٠ سنة على ولادة مفكرها وفيلسوفها محيي

---

(١) يصادف ١٠ ذو الحجة ١٣٣١هـ / ٩ تشرين الثاني ١٩١٣م.

(٢) هو أبو علي الأستاذ محمد بن الشيخ عيسى الخاقاني، ولد في عام ١٩٦٣، أدار مجلس الخاقاني الثقافي الأسبوعي في دار والده في الكاظمية وكان أحد مؤسسي ذلك المجلس، أكمل دراسته في كلية اللغات متخصصا بالأدب الفارسي حيث نال شهادة الماجستير في الأدب المقارن عن رسالته الموسومة (حافظ الشيرازي وغوتة) في ١٩٩٩.

(٣) رينيه ديكارت René Descartes ولد عام ١٥٩٦ وتوفي في عام ١٦٥٠، يعرف أيضا بكارتيسيوس Cartesius، فيلسوف فرنسي ورياضياتي وعالم يعتبر من مؤسسي الفلسفة الحديثة ومؤسس الرياضيات الحديثة. يعد أهم وأغزر العلماء نتاجا في العصور الحديثة. ويعد احد المفكرين الأساسيين واحد مفاتيح فهم الثورة العلمية والحضارة الحديثة في وقتنا الراهن.

الدين بن عربي[1] فإن من واجب بغداد أن تحتفل بمرور ٨٠ سنة على ولادة الدكتور علي الوردي».. عندما قال الخاقاني ذلك أيقن الوردي أنه وقع في فخ نصبه له الخاقاني، وحاول أن ينقذ نفسه، تماماً مثل عصفور وقع في شبكة صياد، فأعلن غضبه وسخطه على منظمي الحفل، وقال إنه لن يحضر إلى هذا المجلس أبداً، وأراد أن يغادر المكان إلا أن الحاضرين أفلحوا بإجلاسه في مكانه مثلما أفلح الخاقاني في ما فشل فيه آخرون.

وحسب بعض الحضور، فإن الوردي أراد أن يداري إحراجه عندما قام لقطع كيكة الميلاد فأمسك بالسكين وانشغل بها عن قطع الكيكة وأخذ يحدث الحضور عن إعجابه بها وبلونها ومعدنها ونوعيتها، ثم عندما طُلِبَ إليه أن يقطع الكيكة أعلن عن جهله بمثل هذه المراسيم، فتطوع أحد الحضور بإمساك يد الوردي الممسكة بالسكين وأمرَّها على الكيكة، التي وصفها بأنها «طيبة»، ولم ينس أن يسأل عن سعرها، فقيل له إن الدكتور حسين علي محفوظ هو الذي أحضرها.. وربما فهم الوردي بأن الدكتور محفوظ هو الذي حضَّرها.. فقال بالعامية العراقية: «ما كان أكو داعي لهذي الكيكة»..).

---

(١) المتصوف الكبير الإمام محي الدين محمد بن علي بن محمد بن عربي الحاتمي الطائي الأندلسي، لقب بالشيخ الأكبر ولذا ينسب إليه مذهب باسم الأكبرية. ولد بمرسية في الأندلس في عام ٥٥٨هـ الموافق ١١٦٤م وتوفي في دمشق عام ٦٣٨هـ الموافق ١٢٤٠م. ودفن في جبل سفح قاسيون. أهم كتبه: (الفتوحات المكية)، و(فصوص الحكم)، و(ترجمان الأشواق ديوان ابن عربي). وله نظريات فلسفية في (وحدة الوجود)، و(الإنسان الكامل)، و(ختم الولاية).

وأخيراً فإنني أوجه شكري الجزيل لكل من مدَّ يد العون لإصدار هـذا الكتاب، وأقدم شكري سلفاً لكل من سيتعاون معي في إصدار الكتب اللاحقة.. فإن هذا المشروع إذا كُتب له أن يتكامل ويخرج إلى النور فإنه سيغني المكتبة العراقية والعربية بكتب هي في أمس الحاجة إليها.. ومن الله التوفيق.

سلام الشماع

بغداد في

١٩٩٦/٦/١

من وحي الثمانين

حول طبيعة البشر

في هذا العام[1] ((دخلت سنَّ الثمانين حسب التقويم القمري، الذي جرى عليه آباؤنا وأجدادنا، أو السابع والسبعين حسب التقويم الشمسي)).

[أشعر بأني] الآن ينطبق عليَّ قول الشاعر العربي القديم:

إن الثمـــانين وبلغتهـــا   قـــد أحوجـــت ســـمعي إلـــى

فإن سمعي أخذ يضعف تدريجياً، وهذا بالإضافة إلى الضعف العام في صحتي. ولكني مع ذلك أحمد الله على نعمه التي لا تحصى، فأنا من حيث صحتي وأحوالي الأخرى أفضل من كثيرين من أقراني الذين هم في مثل سني. كل ما أرجوه في أواخر عمري هو أن يساعدني الله على إتمام عملي الذي أنا منهمك فيه الآن وهو الكتاب الذي أعده كتاب العمر، والذي يبحث في طبيعة البشر[2]. ومن المؤسف أنه بالرغم من الجهود

(١) دخل المرحوم الوردي سن الثمانين حسب التقويم القمري عام ١٩٩٠، حيث أن عام ولادته حسب التقويم الشمسي هو ١٩١٣، راجع مقدمة الكتاب.

(٢) ظل المرحوم الوردي منشغلاً بهذا الموضوع حتى أيامه الأخيرة، وكان يحدثني دائماً عن تطورات العمل في كتابه المذكور، ويريني مسوداته، ويتحدث في مجالسه الخاصة والعامة عنه.. إلا أن أحداً لا يعرف، الآن، أين اختفت هذه

الكثيرة التي بذلتها فيه، لم يتم إنجازه بالمستوى الذي أطمح إليه.

إن طبيعة البشر كما لا يخفى موضوع واسع معقد إلى أبعد الحدود. وقد تبين لي أخيراً أنه أكبر من حدود طاقتي. وقد كان المفروض فيَّ أن أعرف ذلك قبل البدء بتأليف الكتاب، لكي لا تذهب جهودي فيه سدى.

إن طبيعة البشر شغلت أذهان المفكرين منذ قديم الزمان، وقد اختلفت آراؤهم فيها. فمنهم من ذهب إلى القول بأن الإنسان خيِّرٌ بطبيعته وأن الظروف السيئة التي أحاطت به هي التي جعلته شريراً، ومنهم من ذهب إلى العكس من ذلك، إذ قال إن الإنسان شرير بطبيعته، ومن هنا جاء قول المتنبي المشهور:

والظُّلمُ من شِيَمِ النُّفوسِ فَإنْ تَجِدْ
ذا عِفَّةٍ فَلِعِلَّةٍ لا يَظلِمُ

إن البحوث العلمية الحديثة حول طبيعة الإنسان توصلت إلى نتيجة تختلف عما قاله القدماء من كلا الفريقين. فالإنسان في الواقع ليس خيِّراً ولا شريراً، بل هو حيوان له صفاته السلبية والإيجابية، كأي حيوان آخر. إنه يتميز عن الحيوانات الأخرى ببعض المزايا التي انفرد بها، كالقدرة على التفكير، والقدرة على النطق، والقدرة على إمساك الأشياء وصنعها، بالإضافة إلى شعوره بالأنا. غير أنه مع ذلك يبقى حيواناً إذ هو مدفوع بنوازع وميول طبيعية لا إرادة له فيها.

المسودات. وقد يُعثر عليها يوماً وتظهر كتاباً جديداً يضم آخر ما بحثه الوردي في حياته.. ولكني، قبل أيام عثرت بين أوراقي على مقال كتبه الوردي حول الموضوع لعله فصل من فصول ذلك الكتاب الذي يسميه الوردي: كتاب العمر.

إن من أهم الفروق بين الإنسان والحيوان، هو أن الإنسان حيوان اجتماعي، أي أنه لا يستطيع أن يندفع مع ميوله الطبيعية اندفاعاً مطلقاً، فإن المجتمع الذي يعيش فيه الإنسان يفرض عليه قيماً وأعرافاً وتقاليد لا يجوز له أن يخالفها، وهو لذلك يعاني في أكثر الأحيان صراعاً نفسياً بين ميوله الطبيعية والقيم الاجتماعية المحيطة به.

مزية الحيوان أنه يندفع مع ميوله الطبيعية بدون مبالاة بمن حوله من أبناء نوعه، إنه يجري على فطرته من غير حاجة إلى رياء أو تظاهر أو تبرير، وذلك على العكس مما يفعل الإنسان. فالذئب مثلاً يهاجم الشاة ويأكلها ثم يضطجع مطمئناً كأنه لم يفعل شيئاً منكراً. والواقع أن الإنسان يحب أن يفعل بعدوِّهِ مثلما يفعل الذئب بالشاة، ولكنه لا يقدر على ذلك في أغلب الأحيان لأن المجتمع وضع تجاهه روادع تمنعه من ذلك، من قيم وعقوبات متنوعة.

إن الإنسان كثيراً ما يحاول التنفيس عن ميوله الطبيعية بوسائل غير مباشرة، فهو إذا كره شخصاً أو شعر بالحسد نحوه، أخذ يبحث عن معايبه ويبالغ فيها بغية الانتقاص منه أو الانتقام منه. وهو قد لا يتردد أن يهاجم الشخص الذي يكرهه أو يعتدي عليه إذا وجده مستضعفاً لا قوة ولا عون له، ثم يأتي بحجة يبرر بها اعتداءه كأن يتهمه بأنه كفر بالله أو أضر بالمصلحة العامة أو خان الوطن... الخ.

الشائع بين الناس أن الإنسان لديه ضمير يمنعه من الظلم والاعتداء، وهم يصفون الضمير بأنه الصوت الإلهي في الإنسان، وهذا وصف مغلوط، لأن الضمير في الإنسان نسبي، إذ هو يقوم على أساس من القيم والأعراف التي اعتاد عليها الإنسان في حياته الاجتماعية. ولهذا رأينا

بعض (الأخيار) أو (الأتقياء) يقترفون أفظع الاعتداءات على من يخالفهم في العقيدة ((وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً))[١].

إن هذه صورة مبسطة عن الطبيعة البشرية، فإن هذه الطبيعة في الواقع هي أكثر تعقيدا وأصعب على الفهم من وجوه عديدة. وقد لا يكفي لكي نأخذ صورة أوضح عنها أن نذكر أن عدد البشر على وجه الأرض قد زاد على خمسة مليارات، وهو قد يصبح في نهاية القرن ستة مليارات[٢]، هذا مع العلم أن كل واحد من هؤلاء البشر له شخصية خاصة به تختلف عن شخصية الآخرين، قليلا أو كثيرا، إذ أن كلاً منهم له نمط في التفكير والسلوك، وفي المزاج والذوق، وفي الحركات والسكنات، وفي طريقة معاملته لنفسه وللناس، ما لا يمكن أن يشبهه إنسان آخر إلا نادراً.

وهنا لا بدَّ أن يواجهنا السؤال المعضل: ما هي العوامل التي تكمن وراء هذا التفاوت العجيب في تكوين شخصيات البشر[٣]؟

---

(١) سورة الكهف: ١٠٤.

(٢) توقع تقرير صدر في باريس في عام ١٩٨٨ أعده برنامج الأمم المتحدة العالمي لشؤون السكان أن عدد السكان يصل في نهاية القرن العشرين إلى ٦,١ بليون نسمة، وأن عدد الأطفال الذين يولدون كل عام يصل إلى ثمانية ملايين طفل بمعدل ٢٢٠ ألف طفل يومياً. انظر: مجلة الفيصل السعودية، العدد ١٤١، ت٢ ١٩٨٨، ص١١٦.

(٣) الملاحظ أن المرحوم الوردي اهتم بالطبيعة البشرية منذ أول كتاب أصدره، فهو يقول في كتابه (شخصية الفرد العراقي) ص٤: (رأيت أني غير قادر على دراسة الشخصية العراقية، ما لم أدرس، قبل ذلك، الشخصية البشرية بشيء كثير من

إن العلم يحاول الآن الإجابة عن هذا السؤال. وقد تشعبت الآراء فيه وتنوعت ولم تصل فيه بعد إلى نتيجة حاسمة. وكيف تريد من كاتب مثلي يعيش في أواخر أيامه أن يكتب في هذا الموضوع كما ينبغي؟!

[يرى بعضهم أن الكتاب الذي أعمل فيه حول طبيعة البشر يجب أن يصدر بالرغم من وجود النقص والقصور فيه. فهو مهما كان ناقصاً قاصراً قد ينفع القارئ العربي إذ هو يفتح عينيه على خطأ بعض المفاهيم التي ورثناها من الماضي حول طبيعة البشر وأضرت بنا من الناحية الشخصية والاجتماعية].

إن هذا الرأي صحيح. فإننا ورثنا من الماضي كثيراً من المفاهيم المغلوطة حول طبيعة البشر(١).

وقد أضرت بنا هذه المفاهيم كثيرا، وقد آن الأوان لكي ننبه الناس إلى

التفصيل، وإضافة إلى ذلك فإن موضوع الشخصية بوجه عام لم يبحث في اللغة العربية بحثاً وافياً. فإن أغلب من بحثوا فيه أو ترجموا عنه كانوا من المختصين بعلم النفس. ومعنى هذا أن الشخصية لم تبحث إلا من ناحيتها الفردية حيث لم يعن بالناحية الاجتماعية فيها إلا قليلا).

(١) ظل المرحوم الوردي يبحث في الطبيعة البشرية حتى آخر يوم في حياته، وأعلن في النهاية أنه لم يستطع أن يكمل بحثه وهو أكبر من طاقته، وأحال البحث في هذه الطبيعة إلى الجيل الجديد من الباحثين الاجتماعيين، وقد فوجئت عندما قامت دار نشر في عمّان بإصدار كتاب للمرحوم الوردي بعنوان: (طبيعة البشر) لأنني كنت أعرف أن الوردي يعمل في كتاب من هذا النوع ولكنه أعلن عجزه عن إكماله. إن هذا الكتاب لم يصل إلى يدي لحد الآن لأحكم ما إذا كان جمعا لمقالات كتبها الوردي في هذا الموضوع، أم أنه هو الكتاب الذي كان الوردي يريد تأليفه، أم هو توسيع لمقالة كتبها عنوانها (حول الطبيعة البشرية).

مواطن الخطأ فيها، وكيف نستطيع أن نبني مجتمعنا وشخصية الفرد منا على أساس مفاهيم أخرى أصح منها؟

إن العالم يشهد الآن ثورة علمية كبرى في مختلف المجالات، منها مجال البحث في طبيعة البشر. ومن المؤسف أننا غافلون عنها، ومن يتابع ما تصدره مطابعنا من صحف ومجلات وكتب يجد الكثير منها مشغولاً بمواضيع أكل الدهر عليها وشرب، ولا جدوى منها في فهم مشاكلنا الراهنة[١].

لفت نظري في هذا الصدد رأي أبداه الباحث الجزائري الدكتور جيلالي اليابس[٢] وقد نشرته مجلة (الفيصل) السعودية في عددها الصادر في كانون الثاني ١٩٩٠، وهذا نصه إذ يقول: (إذا كانت المنشورات العلمية

---

(١) انتقد الوردي أكثر من مرة وفي أكثر من مناسبة ما تصدره المؤسسات الثقافية من الشعر القديم والدراسات حوله وكتب النقد الأدبي للأعمال القديمة والحديثة والدراسات التاريخية والأدبية، ومرة انتقد إصدار ديوان الشاعر أمية بن أبي الصلت، وحيص بيص. وكان يقول: إن إصدار كتاب يكشف للناس المفاهيم المغلوطة التي يحملونها حول الطبيعة البشرية هو أهم من مائة كتاب من هذا النوع.

(٢) الدكتور جيلالي اليابس: باحث جامعي في السوسيولوجيا، مدير مركز الاقتصاد التطبيقي للتنمية، وزير للتعليم العالي والبحث العلمي، مدير عام المعهد الوطني للدراسات الإستراتيجية الشاملة بالجزائر، وكلف في بداية الأزمة الجزائرية بتقديم منهجية علمية كفيلة بإخراج الجزائر من حالة عدم الاستقرار فقام بتقديم تصور شامل للأزمة في بداية التسعينيات منبها لأهمية التكتلات الاقتصادية الإقليمية والدولية وضرورة البحث عن مكانة للجزائر في هذا العالم الذي أصبحت تحكمه قوة أحادية الجانب.

تعد من أهم مؤشرات التطور لبلد ما، فيمكن أن نلمس من ذلك مدى تخلفنا، حيث نجد مئات الجرائد وآلاف الكتب والعناوين الأدبية والبلاغية والتراثية ولا نجد في المقابل جريدة أو مجلة علمية ذات مستوى معقول تناقش مسائل التطور العلمي والتكنولوجي في الوطن العربي. ألا تعد هذه مشكلة خطيرة؟ والمشكلة تكمن في أننا ما زلنا قوماً نقصر اهتمامنا الفكري على الأدبيات والشعر والعروض والبلاغة). إن هذا الرأي الذي جاء به الدكتور جيلالي اليابس من الجزائر يشبه ما قاله الأستاذ محيي الدين إسماعيل[١] من العراق وهو القول الذي نشرته جريدة الثورة[٢] في عددها الصادر في ١١/١/١٩٩٠، وهذا نصه: (إن ثقافتنا المعاصرة التي نواجه بها القرن الحادي والعشرين هي في جملتها ثقافة أدبية وإن نصيب الفكر منها نصيب ضئيل. وإني كنت أقول دوما إن الأدب العظيم لا بد أن يصدر عنه فكر عظيم، غير أن مبدعاتنا في مجملها أدبية، وهذا هو ما سنواجه به القرن الحادي والعشرين. لماذا؟).

ويضيف الأستاذ محيي الدين إلى ذلك قائلا: (إن هذا القصور في المجال الفكري عندنا قد لاحظه كثير من مثقفينا وكتابنا في العهد الأخير ومن بين مَن تهمنا الإشارة إليه هو الدكتور زكي نجيب محمود[٣]. فإن

---

(١) الأستاذ محيي الدين إسماعيل ناقد عراقي مخضرم، ولد في البصرة.

(٢) جريدة الثورة صدرت من عام ١٩٦٨ وتوقفت عن الصدور يوم ٩ نيسان ٢٠٠٣ يوم احتلال القوات الأمريكية وحلفائها بغداد، وكانت هذه الجريدة ناطقة بلسان حزب البعث العربي الاشتراكي.

(٣) مفكر وفيلسوف مصري، ولد في قرية ميت الخولي، دكرنس، الدقهلية، مصر، وحصل على الدكتوراه في الفلسفة من لندن. وعين مستشارا ثقافيا للسفارة

الكاتب المثقف قد لاحظ هذا القصور في ثقافتنا المعاصـــرة فكتـــب كتابـــاً بعنوان: تجديد الفكر العربي. أجمل فيه كثيراً من هموم المثقف العربـــي المعاصر. وقد طرح في كتابه هذا مشكلة التساؤل عن فكر عربي معاصر يضمن له أن يكون عربياً وأن يكون معاصرا في الوقت ذاته).

المصرية في واشنطن، وعضوا في المجلس القومي للثقافة. أكمل دراســته فـــي إنجلترا في بعثة دراسية لنيل درجة الدكتوراه في الفلسفة، وتمكن من الحـــصول عليها من جامعة لندن عام ١٩٤٧م، وكانت أطروحته بعنوان (الجبـــر الـــذاتي)، وبعد عودته إلى مصر التحق بهيئة التدريس في قسم الفلسفة بكلية الآداب جامعة القاهرة، وظل بها حتى أحيل على التقاعد. توفي عام ١٩٩٣م.

اتهام واعتراف

[بدأت الكتابة في الصحف منذ عام ١٩٣٠، أما تأليف الكتب فقد بدأت به منذ عام ١٩٥١].

في مرحلة الكتابة الصحفية كنت كغيري من الكتاب الناشئين أريد أن تُنشر مقالاتي، وهي مذيلة باسمي لكي أفتخر بها على الأقران(١).

وأرجو أن تعلم أني لم أكن مختلفاً عن غيري من الناس أو شاذاً عنهم. فتلك هي طبيعة البشر في كل زمان ومكان.

فالإنسان حيوان أنوي، أي أنه يسعى دائماً نحو رفع شأن (الأنا) في نظر الآخرين في أي مجال يقدر عليه. وهو إذا لم يجد مجالا مشروعاً في ذلك لجأ إلى مجال غير مشروع.

إن أكثر الناس، أو كلهم تقريباً، لا يعترفون بوجود هذه الطبيعة فيهم. فهم في الوقت الذي يجرون فيه وراء (الأنا) يحاولون إنكار ذلك

---

(١) في السنوات الأخيرة من حياته كان المرحوم الوردي يردد القول: (ما فائدة أن يظهر اسمك وأن يشار إليك بالبنان..؟ إن الدود سيأكلك كما سيأكل من لا يشار إليه بالبنان). وذلك – في رأيي – إعلان مسبق منه بأنه استنفد غايته من الحياة وأنه يعيش منتظراً الموت.

ويتظاهرون بأنهم يسعون وراء الحق والحقيقة، أو المصلحة العامة، أو التقرب إلى الله، أو غير ذلك.. وقد آن الأوان لكي يزيحوا هذا القناع المصطنع عن أنفسهم[١].

أما عن المرحلة الثانية من الكتابة وهي مرحلة تأليف الكتب التي بدأت بها في عام ١٩٥١[٢] فإني أستطيع أن أقول إن الدافع الأنوي فيها لم يكن كما كان في المرحلة الأولى، لأنه حصل فيه شيء من التغير، وهو تغير لا بد منه. ولتوضيح ذلك أذكر نظرية العالم الاجتماعي المعروف

---

(١) يعني المرحوم الوردي أن الناس يبطنون غير ما يظهرون، ويظهرون غير ما يبطنون، وهذه طبيعة البشر. إنه بهذا يطلب من الناس أن ينقلبوا على هذه الطبيعة، وكان لا يرتاح للمديح والمجاملات التي يقابل بها لأنه يعرف دوافعها، ولذلك فهو يسخر من المجامل ولا يرضى بالمديح ويردد: احثوا في وجوه المداحين التراب. ويُرفِق أيَّ كلمة مديح بكلمة ساخرة يقولها كما يقولها الممثل: (أيوا)، وهي تعني (نعم) باللهجة المصرية.

(٢) أول كتاب للمرحوم الوردي كان: (شخصية الفرد العراقي - بحث في نفسية الشعب العراقي على ضوء علم الاجتماع الحديث) وهو نص المحاضرة التي ألقاها في قاعة كلية الملكة عالية مساء اليوم الثاني من نيسان ١٩٥١، وقد عنيت بنشره (جمعية النشاط الاجتماعي) في كلية الآداب والعلوم، وقد وقع المرحوم الوردي كتابه هذا باسم: (الدكتور علي حسين الوردي)، وقد سمعت من الوردي بنفسي أن هذا الكتاب تُرجم إلى الإنكليزية وأن بعض الدول كانت تزود سفراءها المعينين في بغداد بنسخة منه ليدرسوا شخصية الفرد العراقي اعتماداً عليه. وأخبرني الباحث العراقي المرحوم شامل الشمري بحضور الوردي أن الوردي خصص ريع كتابه هذا لطلابٍ من تونس كانوا قد لجأوا إلى بغداد معتبراً أن الوردي قام بذلك بدافع قومي.

جورج هربرت ميد[١] في موضوع الأنوية.

يقول ميد: إن الأنا في الإنسان ليست واحدة بل هي اثنتان، هما الأنا الفردية، والأنا الاجتماعية، فالأنا الاجتماعية هي التي تجعل الإنسان يسعى نحو كسب تقدير الآخرين والانسجام مع المجتمع، أما الأنا الفردية فهي التي تجعل الإنسان يشعر أحياناً بدافع التمرد على مجتمعه أو الثورة عليه.

إن كل فرد من البشر - حسب رأي ميد - يملك هذين النوعين من الأنا، ولكن الأفراد يتفاوتون في نسبة كل منها إلى الآخر فيهم. ومعنى هذا أن الإنسان لا يستطيع أن يكون منسجماً مع مجتمعه دائما، بل هو يشعر في بعض الأحيان بالثورة عليه قليلاً أو كثيراً.

وهذا هو الذي جعل المجتمع البشري لا يبقى على حاله مدة طويلة من الزمن وهو لا بد أن يطرأ عليه التغير والتطور تحت تأثير بعض الأفراد فيه. فلو كانت الأنا الاجتماعية هي المسيطرة وحدها على جميع الأفراد لظل المجتمع البشري راكداً جامداً على توالي الأجيال كما هو الحال في مجتمع النمل والنحل.

إني حين أحلل نفسي في ضوء هذه النظرية أشعر بأن الأنا الاجتماعية هي التي كانت مسيطرة على نفسي في المرحلة الأولى من حياتي، أما المرحلة الثانية فقد بدأت الأنا الفردية تلعب دورها فيها[٢].

---

(١) (١٨٦٣ - ١٩٣١) مؤسس مدرسة (التفاعل الرمزي في الجماعات الصغيرة).

(٢) أكثر المرحوم الوردي في الكلمة التمهيدية لكتابه الأول (شخصية الفرد العراقي) من التقليل من شأن هذا الكتاب، فهو يقول مرة: (لست أدعي أن هذه المحاضرة

إن السنوات الأربع التي قضيتها في أمريكا بين عامي ١٩٤٦ و١٩٥٠ كان لها أثرها في شخصيتي. فقد درست هناك علم الاجتماع. والواقع أني كنت مولعاً بهذا العلم منذ بداية شبابي. ولكني لم أفهمه كما هو في حقيقته إلا في أمريكا.

أضف إلى ذلك أني درست هناك ابن خلدون، وهذا الرجل يحمل له علماء الاجتماع تقديراً كبيراً، إذ هم يعتبرونه المؤسس الحقيقي لعلم الاجتماع، غير أن الأساس الذي وضعه هذا الرجل اندثر بعده، إلى أن جاء كومت[١] في منتصف القرن التاسع عشر فأسس علم الاجتماع من جديد.

محور نظرية ابن خلدون هو الصراع بين البداوة والحضارة، وهذا الصراع بين البداوة والحضارة لم يظهر في أي منطقة من العالم مثلما ظهر في المنطقة العربية. وهذا موضوع طويل لا مجال هنا لذكره. أما الذي أريد أن أذكره هنا فهو أني عندما درست علم الاجتماع ونظرية ابن

بحث قد استوفى شروطه العلمية)، وشبهها بأنها أقرب إلى المقالة الأدبية منها إلى البحث العلمي. وأن فيها نقصاً بارزاً في الناحية العلمية، وأخيراً أهاب بالقارئ أن يتشدد في نقد الكتاب والنظر إليه نظرة الشاك المستريب. وهذا أمر لا إرادة لي فيه. وهو يحصل لغيري كما حصل لي حين يمر بمثل الظروف التي مررت بها..! وأعتقد أنه فعل ذلك بدافع الصراع من الأنا الفردية.

(١) أوغست كومت (١٧٩٨ – ١٨٥٧) فيلسوف وعالم أخلاقي اجتماعي فرنسي، أول من اكتشف علم الاجتماع التجريبي، وأول من نادى بضرورة فصل علم الاجتماع عن الفلسفة. انظر: معجم علم الاجتماع، ص٧٤ – دار الرشيد للنشر – العراق ١٩٨٠.

خلدون بوجه خاص شعرت بأني تجاه مسؤولية كبيرة في الحياة، وأني يجب أن أتحمل شيئا منها عند عودتي إلى الوطن.

إن الذي كان يزعجني في المجتمع الذي نشأت فيه هو أن القيم العشائرية كانت منتشرة فيه على نحو ما ذكرته سابقاً، وهي القيم التي تستمد جذورها من البداوة كما أوضحها ابن خلدون. وهذا هو الذي بعث في أعماق نفسي شيئاً من الثورة على تلك القيم. فنحن ما دمنا عازمين على السير في طريق الحضارة الحديثة أصبح من الواجب علينا أن نقتلع من مجتمعنا بقايا تلك القيم التي تعرقل علينا هذا الطريق.

[يتهمني بعض النقاد بأني في كتاباتي الاجتماعية لم أقصد الإصلاح بمقدار ما أقصد مخالفة المألوف من أجل الشهرة].

إن هذه التهمة وجهها نحوي غير واحد من النقاد، كان أحدهم الأخ عبد المطلب صالح(١) في مقالة له نشرتها مجلة آفاق عربية في عددها الصادر في شهر آب ١٩٨٦. فقد وجه الأخ الناقد تهمته هذه في معرض انتقاده لكتابي (أسطورة الأدب الرفيع) الذي صدر في عام ١٩٥٧. فهو يقول في ذلك ما نصه: (إن المتتبع لكتابات الدكتور علي الوردي يجد أنه يدور في حلقة مفرغة منذ ثلاثين عاماً. منذ كتيبه: الازدواجية في شخصية الفرد العراقي(٢)، مروراً بـ: وعاظ السلاطين، ثم كتابه: لمحات

---

(١) باحث في الأدب المقارن، صدر له كتاب (دراسات في الأدب والنقد المقارن) عن مطبعة الشعب، بغداد، ١٩٧٣، وهو مجموعة مقالات تطبيقية.

(٢) يقصد (شخصية الفرد العراقي) فالكتيب كان بهذا الاسم وليس كما ذكر الكاتب عبد المطلب صالح.

اجتماعية من تاريخ العراق الحديث. وأغلب ما كتبه هو مخالفة المألوف، سواء كانت تلك النظرات في مجالات علم الاجتماع أم مجالات أخرى. إن الدكتور الوردي يقحم نفسه في موضوعات لم يستكمل لها عدتها).

هذا هو ما قاله الأخ الناقد وليس لي من رد عليه، فالقضية ليست طوع يدي أو طوع يده. فكل واحد منا له مزاجه الخاص به. وفي مقدور أي شخص أن يوجه الاتهام إلى شخص آخر حسب وجهة نظره أو عاطفته. والتاريخ هو الذي يقرر الحقيقة الوسطى بين هذا وذاك.

إني لا أدعي لنفسي أني قمت بواجبي في هذه الحياة كما ينبغي، ولا بدَّ لي من أن أعترف بأني اقترفت كثيرا من الأخطاء في حياتي، ولكني مع ذلك قادر أن أقول أني لم أستطع أن أبقى جامدا تجاه العيوب التي ابتلي بها مجتمعنا[١].

إن أي مجتمع بشري لا يمكن أن يخلو من عيوب على وجه من الوجوه، وليس في هذه الدنيا مجتمع كامل على نحو ما يتغنى به أصحاب القصائد العصماء والخطب الرنانة. ومشكلة الإنسان المثقف في بعض

---

(١) قبل رحيله بشهور قليلة، أجريتُ للمرحوم الوردي لقاءً تلفزيونياً بثه التلفزيون الثقافي العراقي الذي ورثته الفضائية العراقية فيما بعد، وسألته في هذا اللقاء: ما هي الأخطاء التي ارتكبتها في حياتك؟ فلم أظفر منه بإجابة، إلا أنه اكتفى بالقول: إن أخطائي كانت كثيرة. ثم حاولتُ أن أجره للهجوم على ناقديه أملاً في الوصول إلى جواب عن السؤال نفسه إلا أني لم أفلح أيضاً، فالمرحوم الوردي كان يحترم الرأي الآخر. ولكن الوردي قال في آخر عبارة في البرنامج نصاً: (لا أدري كيف سأقابل ربي).

الأحيان أنه يعاني صراعاً بين الأنا الفردية والأنا الاجتماعية في نفسه. فهو يريد الانسجام في مجتمعه لكي ينال تقديره من جهة، وهو يشعر بالتذمر مما في مجتمعه من عيوب من الجهة الأخرى. فماذا يصنع تجاه هذا الصراع في نفسه؟

أعرف أشخاصاً يزعمون أنهم مثقفون ولكنهم في الوقت نفسه متعصبون لكل ما نشأوا عليه مهما كان سيئاً. وهم لا يكتفون بذلك بل نراهم يعلنون سخطهم على كل من لا يؤيدهم في تعصبهم.

بقايا الفترة المظلمة

[إن الطابع العام لما تصدره مطابعنا من صحف ومجلات يغلب عليه الجانب الأدبي أكثر من الجانب العلمي].

في رأيي إن السبب في ذلك جاء من الفترة المظلمة[1] التي حلت بنا

---

(١) استخدم الباحثون العراقيون المحدثون مصطلح (الفترة المظلمة) للدلالة على العصور التي تلت احتلال المغول للعراق حتى الحرب العالمية الأولى، واحتلال البريطانيين له. وقد تقصى المؤرخ والخططي العراقي الدكتور عماد عبد السلام رءوف أول من قال بهذا المصطلح، فوجد أن الأب أنستاس ماري الكرملي هو أول من قال به في جريدتيه (دار السلام) و(العرب) اللتين أصدرتهما قوات الاحتلال البريطاني في العراق للإيحاء بأن دخول هذه القوات إلى العراق كان نوراً مقابل ما سبقها من ظلام، مستعيراً المصطلح من المؤرخين الأوربيين الذين كتبوا في تاريخ بلادهم، إذ سموا العصر الذي تلا العصور الوسطى بـ(عصر الاستنارة) تأكيداً لظلام العصور الوسطى وتخلفها. ويرى بعض الباحثين المعاصرين، ومنهم العلامة الدكتور حسين علي محفوظ أن هذا المصطلح لا يخلو من إجحاف، وأن ذلك العصر لم يكن عقيماً من العلماء والفضلاء والمجاهدين حتى يوصف بالظلام. ويفضل محفوظ أن يسمي هذه الفترة بـ(الفترة المظلومة) للدلالة على أنها كانت حافلة بالدراري اللامعات في مجال العلم والحضارة، ولكن الباحثين المحدثين لم يتعبوا أنفسهم في إخراجها من أصدافها ودراستها وعرضها على الناس.

عقب سقوط الدولة العباسية، فقد تضاءلت النزعة العلمية في تلك الفترة وسيطرت النزعة الأدبية واللغوية والبلاغية وما أشبه ذلك.

حين ندرس فترة ازدهار الحضارة العربية الإسلامية التي سبقت الفترة المظلمة، نجد فيها النزعة العلمية والنزعة الأدبية متوافقتين، تنهل إحداهما من الأخرى. وقد ظهرت حينذاك نخبة من المفكرين والمبدعين الذين يمكن اعتبارهم رواداً للحضارة الحديثة. ويكفي أن نذكر منهم في مجال البحوث النفسية والاجتماعية الجاحظ(١) والغزالي(٢) وابن خلدون(٣). وقد شرحت ذلك بشيء من التفصيل في كتابي (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته).

المشكلة الرئيسية التي عانيتها أنا وعاناها الكثيرون من أمثالي هي أن الخطابيين البلاغيين يتدخلون في كل موضوع حتى في المواضيع التي لا

---

(١) أبو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني الليثي البصري، (١٥٩ – ٢٥٥هـ) أديب عربي من كبار أئمة الأدب في العصر العباسي، ولد في البصرة وتوفي فيها. وكني بالجاحظ لجحوظ عينيه، عمّر نحو تسعين عاماً وترك كتباً كثيرة يصعب حصرها، من أشهرها كتابه: البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، والبخلاء. وإليه تنسب الجاحظية. وقد هدّه شلل أقعده وتوفي عندما سقطت كتبه عليه في البصرة.

(٢) الغزالي هو أبو حامد محمد بن محمد بن محمد بن أحمد الغزالي الشافعي الطوسي ولد في مدينة طوس في خراسان في حدود عام ٤٥٠هـ. عالم وفقيه ومتصوِّف إسلامي، أحد أهم أعلام عصره وأحد أشهر علماء الدين في التاريخ الإسلامي.

(٣) ذكرنا ترجمته فيما سبق.

يعرفون عنها شيئاً. فهم يملكون سلاحاً صارماً يصولون به ويجولون، هو سلاح الألفاظ الرنانة، وتراهم يشهرون سلاحهم هذا في وجه كل من يخالفهم في الآراء والمفاهيم التي نشأوا عليها أو اعتادوا عليها(١). ومشكلة هؤلاء تكون على أشدها حين يتدخلون في المواضيع النفسية والاجتماعية. فهم قد نشأوا على بعض المفاهيم التقليدية في هذه المواضيع. وهي المفاهيم التي تختلف كل الاختلاف عن تلك التي جاء بها العلم الحديث، وهم يطلقون ألسنتهم في نقد المفاهيم الحديثة ويأتون بالأدلة (العقلية) و(النقلية) التي تؤيد وجهة نظرهم، والويل لمن يجادلهم فيها(٢).

---

(١) عاني الوردي من أمثال هؤلاء الذين يصفهم أحياناً بأنهم متحذلقون، فهم يدبجون المقالات النارية ويلقون الخطب الهادرة ويؤلفون الكتب الغاضبة في الرد على الورديّ كلما صدر له كتاب جديد، لا سيما عندما أصدر كتابه ذائع الصيت (وعاظ السلاطين)، ونحن لا نستبعد أنهم سيفعلون ذلك مع صدور هذا الكتاب، والله الساتر. أخبرني الشيخ جواد الخالصي نجل الإمام المجاهد محمد محمد مهدي الخالصي أن جماعة من العلماء كفروا الوردي وأقاموا عليه الدنيا ولم يقعدوها، فأرسل الإمام المجاهد بطلبهم للاجتماع بالوردي أمامه للمناظرة قائلاً لهم: (إنكم تدخلون الخرافات إلى الدين، وعندما ينتقدكم أحدهم تثورون عليه، فلا تدخلوا الخرافات لئلا ينتقدكم أحد). وقد حصلت المناظرة فعلاً وتحدث فيها الوردي طويلاً وانتصر على من كفَّره. وعند انتهاء المناظرة أرسل الخالصي مع الوردي من يوصله إلى بيته حماية له من أي اعتداء قد يتعرض له في الطريق.

(٢) للوردي قابلية عالية على إثارة الجدل الحاد والتفرج بعد ذلك على المتجادلين. وإذا ما أريد إشراكه فإنه يتجنبه متمسكاً بقولة يرددها دائماً، هي: اكسب الجدل بأن تتجنبه.

أروي للقارئ في هذه المناسبة قصة حدثت لي منذ عهد غير بعيد وهي قصة قد لا يصدق بها القارئ لغرابتها ولكنها مع ذلك وقعت فعلاً[١].

خلاصة القصة أني اطلعت مؤخراً على نظرية جديدة جاء بها أحد الباحثين واسمه هوارد غاردنر[٢] في موضوع الذكاء وأنواعه، وهي قد أحدثت ضجة في الأوساط العلمية في الخارج، ورأيت أن أقدمها للقارئ العربي، وكتبت فيها مقالاً بذلت فيه جهداً غير قليل، ثم اخترت إحدى مجلاتنا الكبيرة لنشره فيها. ولما وصل المقال إلى يد رئيس تحرير المجلة أحاله إلى أحد المحررين فيها وهو شاب أديب. وحين قرأ هذا المحرر المقال شطب منه ثلثيه! ثم غير بعض عبارات الثلث الباقي منه بحيث جعل الصحيح منه خطأ..!

كان المفروض في المجلة أن تخبرني بما جرى على المقال من حذف وتغيير كما جرت عليه العادة في مجلات العالم المتحضر. ولكنها لم تفعل ذلك، وكاد المقال أن ينشر على حالته العجيبة التي صنعها المحرر لولا مساعدة الصدفة لي، وقد استطعت أن أسحب المقال من المجلة قبل فوات الأوان.

إني ما زلت أحتفظ بالمقال وما جرى عليه من حذف وتغيير، وأعتبره

---

(١) يقول العلامة الدكتور حسين علي محفوظ وكان الوردي أستاذه وهو من أقاربه أيضا: إن أغلب القصص التي يوردها الوردي ويستشهد بها هي من (تأليفه وتلحينه).

(٢) أستاذ بكلية هارفارد للدراسات العليا، جاء عام ١٩٨٢ بنظرية جديدة مفادها أن الذكاء ليس نوعا واحدا بل هو سبعة أنواع.

وثيقة في يدي تدل على المستوى الذي وصل إليه بعض متعلمينا من الذين يهتمون بالمنهج البلاغي الخطابي أكثر من اهتمامهم بالمنهج العلمي. إني لا ألوم المحرر أو رئيس التحرير على ما فعلاه، فهما حصيلة المناخ الثقافي السائد في بعض أوساطنا الأدبية. ومن يتابع أسلوب الكتابة المتبع في بعض ما تنشره صحفنا ومجلاتنا يجد المنهج الخطابي البلاغي واضحاً فيها ولا حاجة بي إلى القول إن هذا المنهج لا ينسجم مع طبيعة الحضارة الحديثة التي نريد السير في طريقها على كل حال.

يجب أن لا ننسى أن الفترة المظلمة التي استغرقت نحو ستة قرون كانت أفظع فترة مر بها العراق في تاريخه الطويل من حيث الانحطاط الحضاري الذي كان سائداً فيها. ويجب أن لا ننسى كذلك أن القيم والعادات الاجتماعية التي شاعت في تلك الفترة لم تختفِ فجأة بمجرد انتهاء الفترة، بل هي ظلت تؤثر فينا، قليلاً أو كثيراً، زمناً غير قصير(١).

---

(١) لعل أبرز مظاهر الانحطاط هذه انفتاح العراق أمام الغزوات الأجنبية التي قامت بها قبائل يغلب عليها الإنتاج الرعوي البسيط، مثل المغول والجلائريين والتيموريين والقره قوينلو والآق قوينلو، وبعد أن كانت مدن الحضارة في العراق تعتمد في اقتصادها الإنتاج المركب الذي يعني إنتاج مواد تفيض على حاجة منتجيها، لتصدر إلى غيرها من المدن الأخرى (وهو ما يؤدي إلى ازدهار التجارة أيضا) فقد تعرضت هذه المدن إلى سيطرة القبائل الرعوية التي تعتمد نوعا من الاقتصاد البسيط الذي ينتج فيه أبناء المدينة ما يكفي لسد احتياجاتهم الضرورية فحسب، وكان هذا يعني تخلف مجتمع المدينة كله، وتحوله إلى ما يشبه مجتمعات القرى، ومن ثم سيادة القيم المتخلفة التي طالما أدانها الوردي.

إن السلطة الحكومية كانت في الفترة المظلمة ضعيفة ومتفسخة، وهي لذلك لم تكن قادرة على حماية أرواح الناس وأموالهم، فاضطر الناس إلى تبني القيم العشائرية لكي يحافظوا على أرواحهم وأموالهم. ولذا انتشرت بينهم العصبية القبلية، وعادات الثأر، والدخالة، والنخوة، وحق الجار، والزاد والملح، والتفاخر بالنهب، والضيافة، وغسل العار.. وما أشبه ذلك[١].

ظلت هذه القيم في الناس إلى أن بدأت الحضارة الحديثة تأتي إلى العراق عقب الحرب العالمية الأولى وقيام الدولة العراقية برئاسة الملك فيصل الأول. والواقع أن هذا الملك وأعوانه بذلوا جهوداً كبيرة في نشر الحضارة الحديثة في العراق عن طريق التثقيف التدريجي. وهذا لا بدَّ أن يؤدي إلى نشوب الصراع بين القيم الحضارية الجديدة والقيم العشائرية القديمة، وهو الصراع الذي ما زلنا نعاني منه حتى الآن[٢].

من طبيعة القيم الاجتماعية التي تسود الناس فترة طويلة من الزمن أنها لا تتغير بنفس السرعة التي تتغير بها ظروفهم. وهو ما نسميه (التناشز الاجتماعي) أو (التناشز التراثوي). وهو ظاهرة عامة تحدث في جميع المجتمعات التي تمر في مرحلة التغير.

الواقع أن القيم العشائرية فينا هي في تضاؤل تدريجي مستمر، ولكن

---

(١) يكثر الوردي من ذكر الوصف المشهور عن الإنسان البدوي بأنه: نهَّاب وهَّاب.

(٢) لم يكن الوردي يرى أن الملك فيصل شخصية يمكن أن تبني دولة، ولكنه كان يقول إن ذكاء الملك تمثل في اختيار مستشارين أكفاء لبناء هذه الدولة وكان هذا سبب نجاحه.

هذا التضاؤل لا يجري على وتيرة واحدة في جميع مناطق العراق، فهو قوي طبعاً في المناطق السكنية الحديثة التي يقطنها أفراد من أولي الثقافة العالية. ولكننا لو ذهبنا إلى بعض المناطق الريفية النائية لوجدناها تعيش على نمط مقارب لما كان الناس يعيشون فيه في العهد العثماني.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن المناطق السكنية الحديثة بالرغم من مظاهرها الحضارية ما زالت تعاني من بقاء بعض القيم القديمة فيها. فإنك إذا دخلت داراً فيها قد تجد أصحاب الدار يلحُّون عليك في تناول الطعام والشراب(١). على نحو ما تفعل العشائر في مضايفها. وقد ترى في تلك المناطق من الإسراف في الولائم والتفاخر بها شبيهاً بما كان يجري في العهود الغابرة.

وإذا دخلت مع صديق لك إلى مقهى أو ملهى أو سينما فإنه لا بدَّ أن يسابقك في دفع النقود، ولا بدَّ لك أن تسابقه بدورك(٢).

---

(١) يتندر الوردي غالباً برواية طريفة تقول: إن شخصاً ألحَّ عليه أصحاب بيت كان في زيارتهم أن يتناول الطعام عندهم، وبعد أن شبع أعادوا الكرة وألحوا عليه مرة أخرى بتناول الطعام، واستجاب لهم خجلاً، وتكرر الحال مرة ومرتين حتى أصيب بالتخمة.. وعندما خرج إلى باب الدار قدَّم لحماره علفاً فأكله الحمار، ثم ألحَّ عليه بتناول المزيد من العلف على نحو ما ألحَّ عليه أصحاب الدار فحرك الحمار رأسه يمينا ويسارا علامة رفضه لتناول المزيد، فقال الشخص لحماره: واللهِ إنك تفهم أكثر مني.

(٢) نشرت إحدى المجلات العراقية، مرة، رسماً كاريكاتيرياً يمثل شخصين أحدهما يعتمر السدارة، وهي غطاء رأس يتميز به أبناء المدن في العراق، عادة، والآخر يعتمر على رأسه الكوفية والعقال، وهو لباس الرأس الذي يميز سكان البادية

إن هذه عادات ذهب زمانها، وهي قد تجلب الاستغراب أو السخرية في البلاد المتحضرة، غير أننا مصرون على التمسك بها رغم أنف الـدنيا..! وهي لا تقتصر على العادات التي ذكرتها آنفاً، بل هي تشمل عادات أخرى عديدة. وكلما ابتعدنا عن المناطق الحديثة وتغلغلنا في المناطق القرويـة والبدوية وجدنا تلك العادات تزداد وضوحاً وتركيزاً(١).

إن مثقفينا وكتّابنا عليهم واجب تجاه ذلـك ينبغـي أن يقومـوا بـه. والمؤسف أن نراهم مشغولين عن مثل هذا الواجب بأمور أخرى لا صلة لها بواقع حياتنا!!

والأرياف في العراق، وكان هذان الشخصان داخل حافلة لنقل الركاب، وقد طـرح البدوي ابن المدينة أرضاً شاهراً بوجهه مسدساً وهو يقول له: واللهِ لا يمكـن أن تدفع، بل أنا الذي سيدفع الأجرة. وقـد لاحظـت أن مقـاهي الـشمال العراقـي ومطاعمه (أغلبية سكان شمال العراق من الأكراد) تضع يافطة كُتِب عليها: (تكاية وير نيه) ومعناها: لا نقبل أن يدفع أحد عن صاحبه، و(الوير) من (ويرمك) وهي كلمة تركية معناها: الإعطاء أو الهبة.

(١) ما زالت هناك مدن في العراق خالية تماماً من أي مطعم أو فندق، ذلك أن سكّان هذه المدن يجدون أن من العار عليهم أن يسكن ضيوف المدينة فـي فنـدق، أو يتناول طعامه في مطعم، وتُفتح أبواب بيوت المدينة للضيف ليحلَّ في أيها يشاء، وهذه المدن غالباً ما تكون متاخمة للمناطق الريفية أو الصحراوية البدوية.

وهم السعادة

إني بعد ممارستي للحياة بشتى أحوالها أدركت أن الشعور بالسعادة لا يأتي من خارج الإنسان، بل هو ينبعث من داخله. فرُبَّ شخص تحيط بـــه أسباب السعادة ظاهراً ولكنه يشعر بالنكد والألم في أعماق نفـــسه. ورُبَّ شخص تحيط به أسباب البؤس والشقاء في الظاهر ولكنه فـــي أعمـــاق نفسه راض يحمد الله على نعمه.

يقول الشاعر العربي القديم:

كُـــلُّ مَـــنْ تلقَـــاهُ يَـــشكو دَهــــرَهُ

لَيْتَ شِعري.. هـــذِهِ الـــدُّنيا لِمَـــنْ؟

إن هذا البيت وإن كان لا يصدق على جميع الناس، فإنه يصدق علـــى أكثرهم. فالإنسان في الغالب لا يرضى بنصيبه من هذه الدنيا، وهو لا بد أن يشعر بالتذمر منها، قليلاً أو كثيراً.

إن للإنسان صفتين تؤديان إلى به إلى التذمر عادة: إحداهما أنه يقدر نفسه أكثر مما هي في حقيقتها، والثانية أنه ينظر إلى النِّعم التي حـــصل عليها غيره وينسى النعم التي حصل هو عليها.

إنه يرى بعض أقرانه قد نجحوا في الحياة أكثر منه، ولكنه ينسى الذين أخفقوا في حياته. وتراه يندب حظه على ما فاته في هذه الدنيا، بينما كان الواجب عليه أن يحمد ربه على النعم التي حصل عليها والتي لم يحصل عليها الكثيرون من أقرانه.

أستطيع أن أعطيك مثالا واقعياً على ذلك في نفسي، فإني كنت في صباي صانع عطار، وكنت حينذاك متألما ومتذمراً من نصيبي من الحياة لأني كنت أرى بعض أقراني يداومون في المدارس ولهم أوقات فراغهم وعطلهم الكثيرة التي يلهون فيها كما يشتهون، بينما كنت أنا محجوراً في الدكان، ومضطراً إلى مداراة المشترين وتحمل طلباتهم ونزواتهم(١).

من الجدير بالذكر أني في الوقت الذي كنت فيه متذمراً من حالي كان هناك صبي في مثل سني من جيراني قد قُتِل أبوه في الحرب العالمية الأولى فاضطرت أمه إلى تشغيله عاملا كادحاً في أعمال البناء، وهي الأعمال التي كنا نسميها (شغل الطين) لكي تستعين به في كسب قوته وقوتها. وكنت أراها في صباحات بعض الأيام تضربه ضرباً مبرحاً عندما

---

(١) حدثني الوردي أكثر من مرة أنه كان يصطحب معه إلى الدكان كتاباً وينغمر في قراءته، وكان الناس عندما يرونه في هذه الحالة يعزفون عن الشراء منه ويتوجهون إلى عطار غيره، وعندما لاحظ صاحب الدكان ذلك سرحه من العمل، ثم أصبح عطاراً في السوق نفسها ولم يكن منصرفاً لعمله كل الانصراف، وكثيراً ما كان يصف نفسه بأنه كان عطارا فاشلاً. وقد اصطحبني رحمه الله أكثر من مرة إلى موقع الدكانين في محلة الأنباريين في الكاظمية ليريني إياهما.

يمتنع من الاستيقاظ مبكراً من أجل الذهاب إلى (شغل الطين)[1].

إني لم أكن أقارن حالي بحال هذا الصبي اليتيم، بل كنت أقارنه بالصبيان المرفهين، وهذه هي طبيعة البشر في الغالب[2]..!

هناك صنفان من الناس يمكن القول إنهما يشعران بشيء من السعادة على وجه من الوجوه. أولهما: المؤمن الراضي بقدر الله وقضائه والذي يعتقد أن الدنيا فانية وأن الآخرة باقية وأن كل شقاء يصيب الإنسان في هذه الدنيا سوف يعوضه الله عنه في الآخرة أضعافاً[3].

---

(١) كان المرحوم الوردي يروي في مجالسه الخاصة كثيرا من الحكايات بأسلوبه الساخر الساحر عن الأحوال الاقتصادية للناس في العصر العثماني، وكان يؤكد أن كثيراً من الناس لم يكونوا يحصلون من عمل الصباح إلى المساء إلا على قوت يوميهم عندما يخرجون للعمل في الأسواق. والمعروف أن المرحوم الوردي أدرك أواخر العصر العثماني. والواقع أن الحالة الاقتصادية هي التي كانت تضطر الناس إلى تشغيل أبنائهم الصغار، ولكن ذلك العهد ولى وتغيرت أحوال الناس ومع ذلك ما زلنا نرى أن بعض العائلات تشغل أبناءها الصغار بحجة تعليمهم مصارعة الحياة من دون أن يفطنوا إلى أن الأطفال الذين يحرمون من التمتع بطفولتهم يعانون في كبرهم من عقد كثيرة.

(٢) هناك مثل شعبي عراقي يقول: (انظر إلى الذي تحتك ولا تنظر إلى الذي فوقك)، في إشارة إلى أن الذي ينظر إلى من فوقه يُتعب نفسه من دون أن يحصل إلا على الحسرات.

(٣) في احتفال تكريمي أقيم للعلامة الدكتور حسين علي محفوظ في قاعة اتحاد المؤرخين العرب في المنصور غربي بغداد وفي اللقاء التلفزيوني الأخير الذي أجريته للمرحوم الوردي للتلفزيون الثقافي العراقي كرر الوردي أنه يغبط محفوظاً

يجب أن لا ننسى أن المؤمنين من هذا النمط قليلون جداً بين الناس، وأنا واحد منهم[١]، متهالكون على الدنيا على الرغم من كونهم أنها فانية، وقد يصح القول: إن الإيمان الحقيقي لم يتغلغل في أعماق نفوسهم، فهم يركضون وراء الدنيا كغيرهم من البشر، ولكنك لا تكاد تتحدث إليهم عن الدنيا حتى تراهم قد تحولوا فجأة إلى وعاظ زهاد يذمون الدنيا وينصحون غيرهم بعدم الانخداع بها.

أما الصنف الثاني من الناس الذين يشعرون بشيء من السعادة أكثر من غيرهم فهو يتمثل في الأفراد الذين يسعون نحو هدف معين وينجحون في سبيله خطوة بعد أخرى.

هناك ناموس بشري مؤداه أن السعادة ليست في الوصول إلى الهدف المنشود بل هي في السعي الناجح نحوه. فمن طبيعة الإنسان أنه عندما يصل إلى الهدف الذي كان يطمح إليه، وتمر عليه في ذلك فترة من الزمن، يصبح الهدف اعتيادياً مألوفاً في نظره، وهو قد يسأم منه بعدئذ ويأخذ في السعي نحو هدف آخر. وهذا هو الذي جعل الإنسان راكضاً لاهثاً طيلة حياته إلى أن يدركه الموت فيستريح به ويريح!

يقول أحد علماء الاجتماع إن سعادة الإنسان في ما سماه (تخفيف

لأنه لم يحتكَّ بالحضارة الحديثة احتكاكاً قوياً فظل مؤمنا مطمئن النفس مرتاحاً على عكسه هو الذي سافر للدراسة في أمريكا واحتك واحتكاكاً مباشراً بالحضارة الحديثة. وكان دعاء الوردي هو: (اللهم ارزقني إيمان العجائز). كما كان يردد دائما: (من آمن بحجر كفاه).

(١) يقصد المرحوم الوردي أنه واحد من الناس لا من المؤمنين.

التوتر) فالإنسان حين يسعى إلى هدف معين يشعر بالتوتر نحوه، وهو يشعر بالراحة والسعادة كلما نجح في التقدم نحو هدفه. أما إذا وجد في طريق تقدمه عقبة تمنعه من التقدم فإنه يشعر بالشقاء ويحاول التغلب على تلك العقبة بمقدار جهده، إنه ينال غاية السعادة عند الوصول إلى الهدف حيث يختفي التوتر لديه. ولكن هذه السعادة مؤقتة فيه، لأن توتراً من نوع آخر يبدأ بالظهور فيه. وهكذا يبدأ الكفاح فيه من جديد.

خذ مثلا الرجل المتهالك لنوال امرأة يعشقها، فهو يتصور السعادة كلها في وصال تلك المرأة، وهو يتمنى أن يعيش معها في خيمة بعيدة عن الناس في الصحراء طيلة حياته، غير أنه لا يكاد ينال معشوقته في تلك الخيمة البعيدة حتى تبدأ السعادة تتناقص فيه تدريجياً، وربما بدأت المناقرة بينهما ويسأم كل منهما من الآخر.

ويمكن أن نقول مثل هذا عن طالب الثروة، أو المنصب الرفيع، أو الجاه والشهرة، أو غيرها.

وفي هذا مصداق للحديث النبوي القائل: (لو كان لابن آدم واد من ذهب وواد من فضة لآثر أن يكون له الثالث، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب)[١].

إن هذا الناموس يمكن أن نطلق عليه مصطلح (اللذة المتناقصة)، فكل لذة لا بد أن تتناقص بعد التمتع بها مرحلة بعد مرحلة.

إن أفضل مثل واقعي يمكن الإتيان به لتوضيح هذا الناموس، هو الجائع الذي افتقد الطعام فترة إلى الزمن، فهو يتوق إلى الطعام كل

---

(١) المثل الشعبي العراقي يقول: ابن آدم ما يملأ عينه إلا التراب.

التوق، ويتصور أن في الحصول عليه منتهى السعادة، والواقع أنه يشعر بالسعادة عند الحصول على الطعام، كما يشعر باللذة القصوى في تناوله، ولكن اللذة تتناقص فيه لقمة بعد لقمة، حتى يصل الحال به أخيراً إلى درجة ينفر فيها من الطعام، وقد يتقزز من منظره.

خلاصة القول: إن السعادة في الإنسان نسبية، أو هي وهم من الأوهام. ولكن الإنسان لا يعرف ذلك، ومن المصلحة أن لا يعرف ذلك، لكي يبقى راكضاً مكافحاً طيلة حياته، ففي ذلك عمارة الأرض.

للمسنين فقط

يقال إن صحة الإنسان تعتمد على ثلاثة أمور هي:

١. نوع الطعام الذي يتناوله الإنسان(١).

٢. نوع الهموم التي تشغل باله(٢).

---

(١) كان المرحوم الوردي ولسنوات طويلة من حياته يقتصر في عشائه على الفواكه والخضر والخبز، وإذا توفر السمك فإنه لا يمتنع عن تناول قطعة صغيرة منه، وكان يعتقد أن هذا البرنامج الغذائي الذي وضعه لنفسه ساعده على الوصول إلى الثمانين من العمر. وكان يكثر من التداوي بالأعشاب التي يعرف منافعها مما اكتسبه من أيام عمله في العطارة.

(٢) لم ألاحظ أبداً أن المرحوم الوردي طوال سنوات معرفتي به أشغل نفسه بما نعده نحن من الهموم التي نغرق في التفكير فيها، ونحزن أو نغضب عندما تداهمنا، فالوردي يعالج ذلك بالسخرية وعدم المبالاة. أذكر أن السرقات شاعت في بغداد بسبب الحصار الاقتصادي الذي فرضته الأمم المتحدة على العراق في تسعينات القرن الماضي، وكان أن سُرِقَت من أمام بيت الوردي سيارة كان ابنه قد استعارها من أحد أصدقائه، وكان على الابن طبعاً أن يسدد ثمن السيارة وكان ثمنها غالياً جداً نسبة إلى دخله. فتوجه الوردي إلى أحد الصاغة الكبار من أقربائه ليستدين منه ثمن السيارة مقترحاً عليه أنه سيسددها من راتبه التقاعدي بواقع خمسة دنانير كل شهر.. أي كان على الصائغ أن ينتظر أكثر من مائة سنة ليسترد نقوده..! فضحك قريبه الصائغ ولم يقرضه المبلغ المطلوب.

٣. الرياضة التي يمارسها(١).

إني أحمد الله تعالى لأنه مكنني من اتخاذ الأفضل من هذه الأمور الثلاثة، فإني في طعامي لا أميل إلى المطبوخ منه، بل أفضل عليه تناول الخضر والفواكه الطازجة. وقد اعتدت طيلة خمسين سنة على الاقتصار في عشائي على الخضر والفواكه وحدها.

وهذا ما أنصح به جميع الناس ولا سيما المسنين منهم.

أما من حيث هموم الحياة فإني اعتدت على طرد الهموم المؤلمة عن ذهني، وقد نجحت في ذلك إلى درجة غير قليلة.

وإني أقول للذين يجترون همومهم: ما هي الفائدة التي تجنونها من ذكر أيامكم الماضية؟ فالماضي ذهب ولن يعود أبداً، وكذلك سيذهب الحاضر وراءه والمستقبل أيضا..!

قد تسألني: هل في مقدور الإنسان أن يطرد همومه عن نفسه بإرادته أم أن اجترار الهموم خصلة جبل عليها بعض الأفراد دون غيرهم؟

نعم، إن بعض الأفراد جبلوا على هذه الخصلة دون إرادة منهم، ولكنهم مع ذلك يستطيعون أن يخففوا من تأثيرها فيهم إذا تأملوا في هذه الدنيا وفي البشر الذين عاشوا ويعيشون فيها. فلم يظهر بين البشر من نجح في حياته كل النجاح، أو من لم يرتكب أي خطأ فيها. وكذلك لم يظهر فيهم من نجح في حياته ثم انتفع بنجاحه بعد موته. فهم جميعاً سوف

---

(١) من أنواع الرياضة التي كان المرحوم الوردي يمارسها رياضة المشي، فهو كان يأتي من بيته في الوزيرية إلى مجالسه في الكاظمية مشياً على قدميه، وكان يسير سيراً سريعاً محتذياً حذاء رياضياً خفيفاً.

يأكلهم الدود بعد موتهم. أما حساب الله فهو يقوم على أساس آخر غير أساس النجاح في هذه الدنيا.

إن الإنسان ينبغي أن يردد مع نفسه دائما قول الشاعر[1] العربي القديم:

إلا كُلُّ شَيءٍ – ما خلا الله – باطِلُ

وكلُّ نَعيمٍ – لا مَحالَةَ – زائِلُ

وحين نأتي إلى الأمر الثالث من حيث تحسين الصحة في الإنسان، أي ممارسة الرياضة يجب أن نذكر أنها في غاية الأهمية للإنسان، ولا سيما للمسنين من أمثالي.

إني كنت في شبابي لا أهتم بالرياضة، ثم أدركت بعدئذ فداحة الخطأ في ذلك. فإن الرياضة أساس مهم في صحة البدن وصحة الفكر معاً. وقد بدأت منذ عام ١٩٤٦ بممارسة رياضة المشي يومياً وما زلت أمارسها حتى الآن[2].

إني لا أكتفي بممارسة المشي وحده، بل أمارس الهرولة أيضاً، ولكني لا أستطيع أن أمارسها في الشوارع على نحوٍ ما يفعل الإنسان في البلاد المتقدمة، بل أمارسها في حديقة بيتي فقط.

---

(١) البيت للبيد بن ربيعة بن مالك العامري.

(٢) عندما كنا نتجه إلى أحد المجالس ويكون معنا العلامة الدكتور حسين علي محفوظ الذي اعتاد على السير متمهلاً متئداً بطيئاً وبيده عصاه، كان المرحوم الوردي يتركنا ويغذ السير، فهو يعتقد أن المشي السريع هو ما ينفع صحة الإنسان وليس المشي البطيء.

فكرت ذات مرة أن أمارس الهرولة في الشوارع غير أني تركت هذه الفكرة مخافة لوم الناس أو استهزائهم. ومن المأمول أن مجتمعنا سوف يصل في يوم من الأيام إلى مستوى المجتمعات المتقدمة من حيث الاعتياد على الهرولة في الشوارع.

وأسأله تعالى أن يمد في عمري لكي أشهد هذا اليوم فأهرول فيه مع المهرولين[١]!

إني عند ممارسة رياضة المشي والهرولة أذكر الله في كل نفس آخذه، وأنا معتقد اعتقاداً جازماً بأن الهواء الذي أستنشقه وهو مشحون بذكر الله لا بد أن ينفع صحتي ويدرأ الضرر عنها.

إني مؤمن بالله إيمانا قاطعاً لا شكّ فيه، كما أني مؤمن بأن الله يستجيب لمن يدعوه مباشرة دون حاجة إلى وسيط أو شفيع. ومعنى هذا أني أختلف مع بعض الناس الذين اعتادوا على مخاطبة الله عن طريق الوسطاء والشفعاء. فقد ورد في القرآن الكريم قوله تعالى: ((ادْعُونِيَ أَسْتَجِبْ لَكُمْ))[٢].

ولكن بعض الناس لا يفهمون هذه الآية حق فهمها.. فهم اعتادوا في

---

(١) توفي الوردي في سنة ١٩٩٥ قبل أن يحقق هذه الأمنية، ولا أظن أنها ستتحقق قريباً بعد أن ضاعف الاحتلال الأمريكي عوامل التخلف في المجتمع العراقي بما جلبه معه من تعصب طائفي وقومي وعنصري ومجاميع التكفير وميليشيات القتل وغياب السلطة المركزية والفوضى التي ضربت أطنابها على طول العراق وعرضه ووصلت تأثيراتها السيئة إلى خارج حدود العراق.

(٢) سورة غافر: ٦٠.

حياتهم الاجتماعية أن يلجأوا إلى الوسطاء عندما تكون لهم حاجة لدى الحكام، وهم يحسبون أن الله كحكام زمانهم لا يلبي حاجة لأحد إلا عن طريق الوسطاء.

وهناك نقطة أخرى أختلف فيها مع بعض الناس، فهم قد تشغلهم العبادات الشكلية المتزمتة عن مخاطبة الله مباشرة، وتراهم يوسوسون[1] في أداء عباداتهم إلى الدرجة التي ينسون فيها ربهم والتقرب إليه. وهذا هو ما سار عليه المتصوفة، وكان ذلك من أسباب النزاع الطويل الذي نشب بينهم وبين الفقهاء.

إني أميل إلى طريقة المتصوفة في عبادة الله ومخاطبته، وهذا هو الذي جعلني أصلي لربي على جسر الأئمة عند الغروب في بعض الأيام، وخاصة عندما تكون في السماء بعض السحب المتناثرة التي تنعكس عليها أشعة الشمس الغاربة، فإني أجد في ذلك منظراً رائعاً يقربني إلى الله ويحفزني إلى الدعاء إليه والاستعانة به.

ومن المؤسف أن أقول إن هذا النوع من الصلاة لا يرضى عنه بعض الناس، ولا سيما أولئك المتزمتون. وقد حدث لي ذات مرة أن شاهدني أحدهم وأنا في تلك الحالة الصوفية فصرخ في وجهي شاتماً ونطق بكلمة بذئية شتمني بها وشتم صلاتي، ولم أجد جواباً له سوى الحوقلة[2].

---

(١) كان الوردي من الموسوسين في بداية حياته، كما سنرى في حديث (اللغة والنحو).

(٢) تفصيل الحادث كما رواه لي الوردي رحمه الله أنه كان يصر على المسير من الجانب الأيمن للجسر القادم من منطقة الأعظمية، ويطل هذا الجانب على مديرية

[سألني أحدهم مرة عن الكتاب والأدباء الذين نالوا التكريم في حياتهم بينما ناله البعض الآخر بعد موتهم، وطلب مني أن أحدد له نوع التكريم الذي أفضله لنفسي؟ تكريم ما قبل الموت أم ما بعده؟].

بعد التجارب المرة التي عانيتها في حياتي صرت أشعر أن كلا النوعين من التكريم لا ينفع الإنسان شيئاً، لا سيما إذا كانت (رجله على باب قبره) على حد تعبير العوام.

إني قررت أن أرفض أية دعوة للتكريم[1] في حياتي لو فرضنا أنها

الاستخبارات العسكرية ولم يكن من المسموح للمارة أن يسيروا عليه، فحدث مرة للوردي أن تقدم نحوه أحد الحراس وطالبه بالعبور إلى الجانب الآخر من الجسر، فتشاجع الوردي وسأل الحارس بحدة: لماذا؟ فأجابه: إني أعمل حسب أوامر مديرنا. فقال له الوردي بالحدة نفسها: سأقف هنا واذهب أنت لتنادي مديرك هذا لأرى مَن الذي عيّنه في هذا المنصب؟! وعندما ذهب الحارس واصل الوردي المسير ولم يقف.. وفي اليوم التالي روى الوردي الحادثة في إحدى الصحف وقال: إنه يسير على الجسر ليرى مياه النهر ومنظر غروب الشمس فيصلي صلاة الصوفية، وروى قصة الحارس الذي منعه من المرور على الجسر. وبعد أيام وحينما كان الوردي يعبر الجسر مشيا كعادته أحس بسيارة تتباطأ من ورائه.. ثم تقف بإزائه ويخرج أحدهم رأسه من نافذتها ويسب صلاة الوردي بكلمات يحلو للوردي أن يصفها بالقول: (إن الرجل سبَّ صلاتي سباً مقذعاً).

(١) الغريب أن التكريم اليتيم للوردي كان من وزارة الثقافة في العراق، ولكن الوردي لم يتسلم مبلغ التكريم ولم يتسلمه أهله، فقد توفي رحمه الله في يوم إعلان أسماء المكرمين، فحذفت الوزارة اسمه من قائمة المكرمين بسبب وفاته (إمعانا في تكريمه)!

وجهت لي لسبب من الأسباب، فأنا واثق أنها لا تنفعني شيئاً في هذه الأيام الأخيرة من حياتي، فإن أي تكريم أو مكافأة أو شهرة ينالها الإنسان في أواخر أيامه يصدق عليها قول أبي فراس الحمداني:

أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل

أما التكريم بعد الموت فهو لا ينفعني كذلك، فالإنسان الذي يذهب إلى ربه بعد الموت سيان عنده أن يجري التكريم له في هذه الدنيا أو لا يجري، لأن حساب الله في الآخرة – كما أشرت إليه آنفاً – يقوم على أساس غير هذا الأساس الذي اعتدنا عليه في هذه الدنيا.

[وسألني أحدهم مرة عن السبب الذي جعل شعر رأسي محافظاً على لونه الأسود بالرغم من بلوغي سن الثمانين حسب التقويم القمري؟].

لست أعرف جواباً لهذا السؤال، فقد رأيت كثيرا من الأشخاص ابيضَّ شعرهم، وهم في سن الثلاثين أو دونه، بينما هناك أشخاص آخرون من أمثالي ظل شعرهم محافظاً على لونه القديم بالرغم من تقدمهم في السن.

وعلى كل حال فإن احتفاظ شعري بلونه الأسود ضرني أكثر مما نفعني. فإن بياض الشعر في الرجل يبعد النساء عنه، ولكنه في الوقت نفسه يسبغ عليه شيئا من المهابة[١].

---

(١) نذكر للمفارقة هنا أن الدكتور حسين علي محفوظ وهو من تلاميذ الدكتور الوردي قد ابيض شعره مبكراً مما أكسبه هيبة في نفوس الناس فضلا عن هيبته الحقيقة ومكانته الاجتماعية، فكان إذا دخل إلى مكان هب الجالسون واقفين لاستقباله بينما لم يكونوا يفعلون ذلك إذا دخل عليهم الوردي ذو الشعر الأسود.

وأعترف بأني في هذه المرحلة المتأخرة من العمر أفضل المهابة على التقرب من النساء..!!

وحدث مرة أن خرج الوردي من مجلس سادن الروضة الكاظمية فهب الخدم واقفين فطلب منهم الوردي أن يجلسوا ولكنهم لم يفعلوا، وعندما التفت الوردي إلى الوراء رأى الدكتور محفوظ يخرج في أثره، فعرف أن الخدم وقفوا احتراما لشيبة محفوظ وليس له!!

ازدواج الشخصية

[في كتبي حول المجتمع العراقي كان اهتمامي منصباً على ناحيتين هما: ازدواج الشخصية، وصراع البداوة والحضارة].

مما يؤسفني أن موضوع ازدواج الشخصية قد أسيء فهمه من الكثيرين، ومما يؤسفني أيضا أن بعض الجهات في الخارج قد استغلته لأغراض لها غير علمية، إذ هي فسرته تفسيراً يخالف ما قصدته منه.

وإني في سفراتي إلى الخارج حاولت الرد على هذا التفسير المغلوط وتصحيحه بمقدار جهدي(١).

إن تلك الجهات المغرضة تظن أن ازدواج الشخصية منحصر في الشعب العراقي وحده، وهذا رأي لم أقل به ولا يمكن أن يقول به باحث

---

(١) أجرت الصحفية الأمريكية كريستين هيلمز حواراً مطولاً مع الرئيس العراقي الأسبق صدام حسين، وكان أن سألته عن ازدواجية الشخصية العراقية، فنفى بشدة أن يكون الإنسان العراقي مزدوج الشخصية، فردت عليه بأن بروفيسورا عراقيا هو الدكتور علي الوردي يرى غير ذلك. وبعد نشر المقابلة في الصحف سُئِل الوردي عن رأيه بوجهة نظر الرئيس فنفى أن يكون هناك أي تناقض بين الرأيين، فالرئيس – حسب رأي الوردي – ينظر إلى الأمر من وجهة نظر القائد السياسي، بينما هو (الوردي) فينظر إليه من وجهة نظر علمية محضة.

اجتماعي. فقد ثبت علمياً أن الازدواج موجود في جميع المجتمعات تقريباً، إنما هو يتفاوت في درجة شدته وسعة انتشاره من مجتمع إلى آخر تبعاً لاختلاف الظروف فيها.

إن الازدواج ينشأ في المجتمع عند وجود نظامين متناقضين من القيم الاجتماعية فيه. فالفرد الذي ينشأ في مثل هذا المجتمع يتلقى منذ طفولته نوعين من الإيحاء الاجتماعي، أحدهما يدفعه نحو تقدير أخلاق معينة، والآخر يدفعه نحو تقدير أخلاق مناقضة لها. وهو لذلك قد يتخذ في حياته العملية سلوكين مختلفين من حيث لا يدري.

كان الازدواج واضحاً في العراق في العهد العثماني، إذ كان الفرد حينذاك يسمع المواعظ الدينية من جهة، وهي المواعظ التي تدعو إلى أخلاق الحلم والتقوى والإخاء والزهد والتواضع، بينما هو من الجهة الأخرى يرى الناس يقدرون (الشقي)[1]، الذي يوصف بأنه (سبع) و(رجال) و(زلمة) وأنه (يغلب ولا ينغلب) وأنه (إذا مشى هزَّ الأرض برجله) وأنه ... الخ.

ولهذا كنا نرى بعض الأفراد في العهد العثماني قد أصيبوا بازدواج الشخصية، فتراهم في بعض الأحيان (أتقياء) يذمون الدنيا وما فيها من

---

(١) هو الشخص الذي يسمى باللهجة اللبنانية (قبضاي)، والمصرية (فتوة)، والأردنية (الأزعر).. ولهؤلاء الشقاوات أعراف وتقاليد في الملبس والشكل والسلوك، من بينها أنهم يحمون أبناء محلتهم ولا يعتدون عليهم مقابل أتاوة أو ضريبة يدفعها أبناء المحلة، ولكنهم يغيرون على المحلات الأخرى فيعتدون على أهلها بالضرب والسرقة وغيرها من الموبقات.

طمع وتغالب واعتداء، بينما نراهم في أحيان أخرى (أشقياء) يفتخرون بالغلبة والشطارة والسطو وقوة البأس.

يجب أن لا ننسى أن الناس في ذلك العهد لم يكونوا كلهم كذلك. فمنهم من كان تقياً حقاً لا يحب أخلاق الشقاوة ولا يرضاها في أحد، ومنهم من كان على العكس من ذلك شقياً لا يعرف التقوى، وكان هناك بعض الأفراد في الوسط بين هذا وذلك، وهم مزدوجون من حيث لا يعرفون.

أحبّ أن أذكر في هذه المناسبة محاضرة عامة ألقيتها في النجف قبل بضع عشرة سنة وكان عنوانها (شخصية الفرد النجفي)، وفحوى تلك المحاضرة أن المجتمع النجفي كان في العهد العثماني منقسما إلى فريقين متعاديين هما (الزقرت) و(الشمرت)[١]، وكثيراً ما كانت المعارك الضارية تنشب بين الفريقين فينهب الغالبون بيوت المغلوبين على نحو ما تفعل القبائل البدوية في الصحراء.

---

(١) أهل النجف الحقيقيون هم المشاهدة الذين استوطنوا الغريّ قبل هجرة الشيخ الطوسي إليه، وأهمهم (البو عامر) ومن جاء بعدهم، الذين انقسموا أخيرا إلى أربعة أصناف سموا باسم المحلات الأربع التي تتكون منها مدينة النجف، وهي (العمارة) و(المشراق) و(الحويش) و(البُراق)، وبعد مرور الأيام اتحد أهل الحويش مع أهل البُراق وأهل العمارة مع أهل المشراق، وشكلوا تكتلين، إن لم نقل حزبين، أحدهما يسمى بالتركية (زكرت) والآخر (شمرت)! وكانا يختلفان إلى حدّ النزاع المسلح، والتراشق بالبنادق، وقد يستخدم كل منهما مئذنة المرقد العلوي المجاورة لمحلته لأجل إصابة أهداف الطرف الآخر، كما نقل الكبار من أهالي النجف وشيوخ الأسر وعجائزها! وقد تناول الدكتور علي الوردي ذلك مفصلا في موسوعته (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث).

يحدثنا الشيخ جعفر محبوبة[1] في كتابه (ماضي النجف وحاضرها) أنه في عام ١٣٢٣هـ - أي في عام ١٩٠٤م شهد معركة محلية ضارية في النجف كان البطل المغوار فيها رجل اسمه (عزيز باقر شام) وكان من (الشمرت)، وقد أبدى هذا الرجل شجاعة منقطعة النظير، وتمكن من قتل رجال من (الزكرت) مشهورين بالشجاعة والنجدة، ولكنه قُتِل أخيراً هو وولداه اللذان كانا يقاتلان معه. وبذلك تم النصر النهائي للـ(زگرت). ويقول الشيخ جعفر أنه رأى بعينه الغالبين وهم يحملون الأثاث والفرش الثمينة التي انتهبوها من بيوت المغلوبين!

إن بلدة النجف في الوقت الذي كانت تلك المعارك المحلية تجري فيها على هذا المنوال كانت مركزاً دينياً كبيراً فيه الكثير من المدارس الدينية ويقطنه المئات من الطلبة ورجال الدين. وهذا وضع لا بد أن يؤدي إلى ظهور ازدواج الشخصية في بعض الأفراد قليلا أو كثيراً، إذ هم ينشأون على تقدير القيم المحلية من جهة، وتقدير القيم الدينية من الجهة الأخرى[2].

---

(١) الشيخ جعفر بن باقر بن جواد بن محمد حسن بن محمد علي بن عبد الهادي آل محبوبة الربيعي النجفي، عالم مؤرخ محقق، ولد في النجف بحدود سنة ١٣١٤هـ ونشأ بها، وقد بلغ مبلغاً عظيماً من العلم، واشتهر كتابه (ماضي النجف وحاضرها)، توفي بالنجف يوم ٣ جمادى الأولى سنة ١٣٧٧هـ، ودفن بالصحن العلوي الشريف مقابل حجرة المجاهد السيد محمد سعيد الحبوبي بسرداب خاص.

(٢) انظر: هكذا عرفتهم، تأليف جعفر الخليلي، تجد صورة واضحة للمجتمع النجفي في ذلك الحين.

يمكن القول بوجه عام إن رجال الدين كانوا يتصفون بالأخلاق الدينية ويشجبون القيم المحلية ويعدونها من أخلاق الجاهلية التي نهى الإسلام عنها، ولكن القيم المحلية كانت في الوقت نفسه سائدة في أوساط العوام وهم كانوا يتفاخرون ويتنابزون بها. وماذا يمكن للفرد العادي أن يفعل تجاه هذا التناقض في مجتمعه؟ فهو قد يجد نفسه مدفوعا في بعض الأحيان إلى التزام القيم المحلية تارة، أو القيم الدينية تارة أخرى.

أرجو من القارئ أن لا يعد ذلك مذمة لبلدة النجف فإن معظم المدن العراقية في العهد العثماني، أو كلها، كانت تشبه النجف في ذلك على وجه من الوجوه. فقد كانت المعارك المحلية موجودة في كل بلدة تقريباً، كما كانت معالم الدين والمواعظ الدينية موجودة كذلك. وإني أريد أن أنتهز هذه الفرصة لكي أقدم الشكر لأهل النجف لأنهم تحملوا محاضرتي بروح موضوعية، ولم يعارضوها أو يجادلوا فيها إلا في حدود ما يسمح به الأسلوب العلمي، ولو كنت قد ألقيت تلك المحاضرة في بلدة أخرى لربما أراني أهلها نجوم الضحى(١)!

[يظن بعض الناس أن النفاق وازدواج الشخصية شيء واحد].

[والواقع] أن النفاق وازدواج الشخصية صفتان مختلفتان، فالازدواج لاشعوري لا يدري به صاحبه في أكثر الأحيان.

---

(١) أعاد المرحوم الوردي الكرة عام ١٩٨٦ وألقى محاضرة في النجف بالأسلوب نفسه، وقد حضرنا هذه المحاضرة التي ألقى فيها السيد حامد المؤمن كلمة بليغة عن الوردي ومكانته العلمية نالت إعجابنا جميعاً إلا الوردي الذي كان يهز يديه استهزاء بما ورد فيها.

أما النفاق[1] فإن صاحبه يشعر به وهو يتقصد القيام به عمداً من أجل كسب منفعة شخصية له. وهو يكثر في المجتمع الذي يسوده النظام الاستبدادي وتضعف فيه الديمقراطية[2].

هناك مجتمعات قليلة قد يظهر فيها الازدواج والنفاق معاً بدرجة كبيرة، ولكن هذا لا يعني أن بينهما صلة مباشرة. فكل منهما له أسبابه الخاصة به، كما أنه له نتائجه الاجتماعية التي تختلف عن نتائج الآخر.

[أما إذا أردت رأيي في المجتمع العراقي في وضعه الحاضر من حيث وجود ازدواج الشخصية فيه، فالواقع] أن هذا موضوع طويل عريض وأني لم أتمكن من دراسته دراسة وافية من جميع جوانبه. والمأمول من الباحثين الشباب أن يتموا ما بدأنا به، نحن الشيوخ، ولكن الذي أخشاه منهم هو أن يضيعوا علينا الخيط والعصفور.

إني متفائل من بعض باحثينا الشباب وأملي قوي في أن يقوموا بواجبهم في هذا السبيل ولكن الذي أخشاه عليهم هو أن يطغى عليهم المشعوذون الذين ينعقون مع كل ناعق ويميلون مع كل ريح. فقد عانينا من هؤلاء الشيء الكثير في زماننا، وهم موجودون في كل زمان ومكان مع الأسف الشديد.

---

(١) ذم القرآن الكريم النفاق والمنافقين في ٣٧ آية في سور عديدة، وخصهم بسورة كاملة هي (سورة المنافقون)، انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، باب: (نَ فَ قَ)، ص٧١٦ وما بعدها.

(٢) كان المرحوم الوردي يردد دائما المثل الإنكليزي القائل:
Ballot in stead of bullets والذي يعني: أوراق الاقتراع بدلا من طلقات الرصاص.

صراع البداوة والحضارة

[إني في كتاباتي حول المجتمع العراقي أذهب إلى القول بأن هذا المجتمع هو حصيلة صراع أو تفاعل طويل بين الحضارة والبداوة. وهذا في رأي بعضهم غلو أو تطرف في الدراسة].

أرجو أن تعلم أن هذا الرأي الذي توصلت إليه في المجتمع العراقي ليس فيه ذم لهذا المجتمع كما توهمه بعض النقاد وأثار سخطهم. فالواقع أن كل مجتمع في هذه الدنيا هو حصيلة الظروف التي مر بها سابقاً. ولو درسنا تاريخ أي مجتمع لرأينا كيف أثرت الظروف التي مرت به في تكوينه. ولا يجوز أن نستثني المجتمع العراقي من هذه القاعدة العامة.

من الخصائص التي تميز بها العراق هي أنه كان مهداً لحضارة تعد من أقدم الحضارات في تاريخ البشر، أو أقدمها. وقد ازدهرت الحضارة فيه مرة بعد مرة عبر تاريخه الطويل. ولكنه في الوقت نفسه يقع على حافة صحراء مليئة بالقبائل البدوية، وقد اعتادت هذه القبائل أن تنتهز الفرصة في كل مرة تنحط فيها الحضارة في العراق لكي تتسلل إليه وتفرض قيمها البدوية عليه.

إن آخر مرة ازدهرت الحضارة فيها في العراق هي في العهد العباسي، وعند سقوط الدولة العباسية على أيدي المغول في القرن الثالث عشر

حلت بالعراق فترة انحطاط حضاري تعد أفظع مرحلة في تاريخ العراق الاجتماعي واستمرت نحو ستة قرون. ففي تلك الفترة سيطرت على العراق القيم البدوية أو القيم العشائرية كما نسميها، وتأثر بها أكثر الناس حتى في المدن، وإن كان أهل المدن أقل تأثراً بها من أهل الريف والبادية.

من الجدير بالذكر إن الحضارة بوجه عام تقوم على أساس السلطة المركزية القوية القادرة على حماية أرواح الناس وأموالهم في مختلف أنحاء البلاد. وعند غياب السلطة أو ضعفها يجد الناس أنفسهم مضطرين إلى الالتجاء إلى القيم العشائرية لحماية أنفسهم وأموالهم. وهذا ما حصل فعلاً في فترة الانحطاط التي أعقبت سقوط الدولة العباسية، والتي استمرت حتى الحرب العالمية الأولى(١).

إني أدركت في طفولتي وصباي شيئاً من بقايا تلك الفترة، وكنت أسمع الذين هم أكبر مني سناً يتحدثون عنها كثيراً. فقد كانت القيم الاجتماعية السائدة فيها تتمثل في العصبية القبلية والمحلية والأسرية، كما تتمثل في

---

(١) شاهدت أهل المدن عند إصابة الدولة بالضعف يستنجدون بأقاربهم من أهل الريف والبادية لاستعادة حق اغتصبه منهم أحد، وقد حدثت معارك عشائرية في المدن بسبب ذلك، وشاع في الناس مبدأ الفصل والدخالة وغيرها من القيم العشائرية، ويمر العراق الآن بظروف شبيهة لتلك التي أشار إليها الوردي إذ يمكن أن نرى سيادة القيم العشائرية بصورة جلية في أيامنا هذه بعد أن سقط النظام المركزي القوي بفعل الاحتلال وتشكلت حكومات ضعيفة لا تملك القدرة على الوقوف في وجه الانفلات الأمني الذي تعاني منه المدن والأرياف والبوادي على حد سواء.

عادات الثأر والدخالة والنخوة وغسل العار والضيافة وحق الجيرة والزاد والملح... وما أشبه ذلك. أما القانون فلم يكن له أي أثر إيجابي في حياة الناس آنذاك، إذ كانوا يفتخرون بمخالفتهم للقانون، ويكرهون من يتعاون مع الحكومة في تنفيذه ويعدونه جاسوساً[١].

اعتاد الناس في تلك الفترة أن لا يذهبوا إلى دوائر الحكومة للشكوى لديها عند وقوع اعتداء عليهم، بل هم يعتمدون في ذلك على قوتهم وقوة العشيرة أو الأسرة التي ينتمون إليها.

إن التفسخ الذي كان سائداً في دوائر الحكومة حينذاك جعل في مقدور المعتدي أن ينجو من العقوبة عن طريق الرشوة أو الوساطة أو كلتيهما[٢]. وكانت الحكومة لا تبالي أن يفعل الناس بأنفسهم ما يشاءون ما داموا يدفعون لها الضرائب، أو يدفعون الرشاوى لموظفيها.

---

(١) في هذه الأيام نرى هذا الأمر واضحاً، حيث يشك بعض الناس في مصداقية كل من يتعامل مع الحكومة، بل إنهم يشكون في مصداقية الحكومة نفسها، ويعتبرونها عميلة تعمل بإملاءات قوى الاحتلال التي جاءت بها إلى سدة الحكم، ومن الممارسات العشائرية السائدة في العراق في وقتنا الحاضر أن الناس يتوجهون إلى رؤساء عشائرهم ليقاضوا الموظفين الحكوميين – عسكريين ومدنيين – على وفق القواعد والنظم العشائرية وليس على وفق القانون.

(٢) وقد رأينا هذا أيضاً واضحاً جلياً في السنوات الأخيرة للنظام السابق حيث فُرضت عقوبات اقتصادية دولية على العراق فتراخت قبضة السلطة المركزية وشاعت المحسوبية والمنسوبية، وبقي الحال على ما هو عليه بعد سقوط النظام وتوالي حكومات ضعيفة عينها الاحتلال، على الرغم من استحداث هيئات لحقوق الإنسان والنزاهة ومنظمات المجتمع المدني وما إلى ذلك من الواجهات العريضة الفارغة من المضمون الحقيقي.

ظلت هذه القيم فعالة في الناس بعد انتهاء تلك الفترة، غير أنها أخذت تتضاءل تدريجياً تحت تأثير تنامي السلطة المركزية ومجيء الحضارة الحديثة.

يمكن القول على كل حال إن الفترة التي أعقبت الحرب العالمية الأولى في العراق شهدت صراعاً شديداً بين القيم العشائرية التي كانت سائدة من قبل والقيم الحضارية التي بدأت تأتي.

وهذا الصراع نلاحظه في كل منطقة في العراق، غير أنه يختلف شدة وضعفاً تبعاً لظروف المنطقة من حيث بعدها وقربها عن التأثير الحضاري.

إننا في هذه المرحلة التي نمر بها الآن يجب أن نولي اهتماماً كبيراً لهذا الصراع، حيث نحاول مساعدة القيم الحضارية الحديثة على النمو، كما نحاول مكافحة القيم العشائرية القديمة وتقليص أمرها.

إني حاولت ذكر بعض الأمثلة الواقعية لتلك القيم في الكلمة التي ألقيتها في المؤتمر الثالث للاجتماعيين العرب الذي أقيم في بغداد في أواخر تشرين الثاني ١٩٨٩. وفيما يلي أعيد ذكرها مع شرح موجز لها:

١. التدافع بين الناس عند دخول مكان أو صعود حافلة أو ما أشبه ذلك، فالواحد منهم لا يلتزم الصف في ذلك بل يحاول التسابق مع الآخرين، وقد يتدافع معهم بالقوة.

٢. التسابق بين الأصدقاء عند دفع ثمن أو أجرة. فكل واحد منهم يريد التفوق على الآخرين بالكرم. وهم قد ينقلون هذه العادة معهم عند سفرهم إلى الخارج ويكونون موضع سخرية الناس وتندرهم هناك.

٣. الإسراف في إعداد الطعام والتفاخر في الإكثار منه. والمفـروض في المضيف أن يصر على الضيف فـي تنـاول الطعـام كمـا إن المفروض في الضيف أن يتظاهر بالتمنع عنه، فتجري المـصاولة بينهما بشكل يدعو إلى التقزز أحياناً.

٤. اعتياد بعض الناس على تخريب المرافـق والممتلكـات العامـة، كأكشاك الهاتف، وأشجار الحدائق العامة، والمتنزهـات، ومقاعـد الحافلات، وكذلك اعتيادهم على مخالفة أوامر الحكومة وتعليماتها.

٥. ميل الحرفيين والباعة إلى غبن الزبون أو غشه أو الكذب عليـه. والذي يستخدم العمال في عمل ما ولا يشرف عليهم قد لا يحـصل منهم إلا على عمل ناقص أو معيب(١).

٦. التمخط والبصاق ورمي النفايات في الطرقات كيفما اتفق، وكثيـراً ما يرمون قشور الفواكه في وسط الطريق مما قد يؤدي إلى زلق المارة وإلى إصابتهم بالضرر.

٧. التأثر بقيم القرابة والجوار والنخوة والـشفاعة فـي المعـاملات الرسمية، والموظف الذي لا يستجيب لهذه القيم كما ينبغـي قـد يعتبره الناس بعيداً عن الشهامة وما تقضي به أصالة النسب(٢).

---

(١) روى لي الوردي مرة أنه عندما كان في أمريكا، أيام دراسته، سكن فـي بيـت امرأة عجوز ولاحظ مرة أنها استخدمت نجاراً للعمل في تـصليح أثـاث بيتهـا، وتركته يعمل دون إشراف منها، ولما قال لها الوردي إن هذا النجار ربما سيكون عمله ناقصا أو معيبا ما دام يعمل من دون إشراف منها. أجابته: إنه إذا فعل ذلك فلن يجد من يستخدمه في عمل في الولايات المتحدة الأمريكية كلها.

(٢) كل هذه المظاهر لم تزل باقية في الناس حتى يومنا هذا.

[يتهمني بعض النقاد بأني أركز على الجوانب السيئة من مجتمعنا، بينما أنسى الجوانب الحسنة، ومعنى هذا أني أخالف المنهج العلمي الذي يذكر الجوانب الحسنة والسيئة من كل شيء يدرسه.

إني أوافق على هذا القول] من أن المنهج العلمي يذكر الجوانب الحسنة والسيئة من كل شيء يدرسه. والواقع أن مجتمعنا كغيره من مجتمعات العالم فيه الجوانب السيئة والحسنة معاً. أما تركيزي على الجوانب السيئة منه فهو أمر لست منفرداً به، بل هو شأن جميع الباحثين الاجتماعيين في العالم حين يدرسون مشكلات مجتمعهم(١).

إننا حين نقرأ ما كتبه الاجتماعيون الأمريكيون عن مساوئ مجتمعهم نجد عجباً فهم في الوقت الذي يعترفون فيه بأن المجتمع الأمريكي قد بلغ في تطوره الصناعي والحضاري درجة عالية جداً، يعترفون أيضا بما فيه من انحراف وإجرام وتمييز عنصري وتفسخ، وهم يأتون في ذلك بإحصاءات وتحليلات تثير الدهشة.

إن الباحث الاجتماعي يشبه الطبيب من بعض الوجوه، فالطبيب يركز اهتمامه عادة على دراسة الأمراض في الناس وكيف يعالجها، وهذا هو ما يفعله الباحث الاجتماعي.

---

(١) ألقى الدكتور الوردي محاضرة في اتحاد المؤرخين العرب في بغداد مرة ركز فيها على الجوانب السلبية والسيئة في تاريخ بغداد، وانتقد من يكتفي بذكر محاسنها وإيجابياتها، فنهض أحد الحاضرين وهو عميد كلية الآداب وقتها وطالبه بالتوقف عن محاضرته وإلا استدعى الشرطة للقبض عليه! فرد الوردي بهدوء وبابتسامة استهزاء: انظروا إلى هذا العميد فإنه أفضل مثال يمكن أن آتي به على ما أقول!

إني أشكر المسؤولين عندنا حين سمحوا للصحف بالكشف عن مساوئنا بصراحة، وهذا معناه أننا نسير في طريق الحضارة فعلا، فقد ذهب ذلك الزمان الذي اعتاد الناس فيه على ذكر محاسنهم من حيث ينسون مساوئهم.

إن كل مجتمع بشري مهما كان عظيماً لا يمكن أن يخلو من مساوئ خاصة. فالكمال لله وحده كما قيل قديماً.

الخارقية

[في عام ١٩٥٢ صدر لي كتاب بعنوان (خوارق اللاشعور) يبحث في علم الباراسايكولوجي الذي أسميه (علم الخارقية)[١]، وهو أول كتاب يصدر في اللغة العربية حول هذا العلم الجديد. والسؤال الذي يواجهنا هو: ما علاقة هذا العلم بعلم الاجتماع الذي هو موضوع اختصاصي؟ وما الذي دعاني إلى الاهتمام به قبل غيري من المؤلفين العرب؟][٢].

إن علم الخارقية، أو الباراسايكولوجي، كما يسمونه في اللغات الأجنبية، له صلة وثيقة بالظواهر الاجتماعية ولا سيما في المجتمعات

---

(١) اهتم المرحوم الوردي بوضع كلمات عربية إزاء المصطلحات الأجنبية لتوضيحها وتعريبها، ومنها هذا الاسم: (الخارقية)، ومنها (العائنية) التي يعني بها ظاهرة الإصابة بالعين أو الحسد، وهناك مصطلحات أخرى وضعها الوردي سيأتي ذكرها في حينها.

(٢) ظل الوردي إلى آخر يوم في حياته مرجعاً للباراسايكولوجيين العراقيين والعرب، وهو من أهم مؤسسي جمعية الباراسايكولوجيين العراقيين التي كان يرأسها الدكتور الحارث عبد الحميد الذي قُتِل على يد مسلحين مجهولين في عام ٢٠٠٧ في بغداد بينما كان خارجاً من بيته في منطقة الكرادة في طريقه برفقة زوجته إلى جامعة بغداد التي يعمل فيها أستاذاً.

المتخلفة والنامية. فقد اكتشف هذا العلم أن بعض الأفراد لديهم قدرات نفسية خارقة. ولكن هذه القدرات كانت في الماضي، ولا تزال حتى الآن، يفسرها العوام بأنها من أفاعيل الجن أو السحر أو ما أشبه، وكانوا يحيطونها بالخرافات المبالغ فيها، ويحاولون اتقاء شرها بالتعاويذ والطلاسم!

وأدى ذلك إلى ظهور حرف شعبية تتعاطى فتح الفال والاتصال بالجن في زعمهم! وكتابة الطلاسم وغيرها.. وهي حرف قد تتصف بالشعوذة واستغلال جهل العوام، وكان لها عواقب اجتماعية ونفسية سيئة.

إني أتذكر أيام طفولتي عندما كنت أرى في بعض الأحيان شخصاً يمشي في الأزقة وهو ينادي عن نفسه: (فوَّال.. فوَّال)، كما كنت أسمع عن أشخاص يسمى الواحد منهم (فتَّاح فال)، وهم يتعاطون الحرف التي ذكرناها. وقد ذهبت ذات يوم إلى أحدهم مع والدتي، ورأيت الناس يلجأون إليهم لاستشارتهم في حل مشاكلهم على نحو ما يلجأون الآن إلى عيادات الأطباء لعلاج أمراضهم[1].

---

(١) كانت الكاظمية مسقط رأس الوردي تعج بممتهني هذه الحرف، وظلت سوقهم رائجة حتى السبعينات من القرن الماضي حيث ضيقت الحكومة عليهم وصاروا يمارسون حرفهم في الخفاء، وكانت الحكومة تحكم بالسجن على من يقبض عليه متلبساً بممارسة هذه الحرف. لكنها – مع الأسف الشديد – عادت للظهور مجدداً وبشكل علني في ظل الاحتلال، ويستطيع المراقب للوضع الحالي أن يشاهد هؤلاء المشعوذين الدجالين بل إن هناك قنوات فضائية تروج لهم ببث برامج على مدار الساعة.

ومن الجدير بالذكر أن تلك الحرف لم ينحصر انتشارها في مجتمعنا فقط، بل هي عامة في جميع المجتمعات البشرية حتى المتقدمة منها، ولكنها تتفاوت في درجة انتشارها تبعاً لتقدم الحضارة في المجتمع، وكلما كان المجتمع أكثر تقدماً من الناحية الحضارية قل انتشار تلك الحرف فيه، غير أنه مع ذلك لا يمكن أن يخلو منها خلواً تاماً. وهذا هو سبب ما نراه في البلاد المتقدمة من وجود أشخاص يحترفون التنجيم وقراءة الأبراج وغيرها.

كان الناس في الماضي منقسمين تجاه القدرات الخارقة إلى فريقين، أحدهما يصدق بها ويحيطها بالخرافات كما رأينا، والآخر يكذب بها ويعتبرها غير معقولة وخرافية من أساسها. وجاء علم الخارقية أخيراً فوضع حداً لهذا الانقسام، فالقدرات الخارقة في نظر هذا العلم حقيقة ولكنها لا تقوم على الأساس الذي يعتقد به العوام.

إن علم الخارقية قدم للبشرية خدمة كبرى من ناحيتين، فهو قد جرد القدرات الخارقة من الخرافات المحيطة بها من ناحية، وهو قد اكتشف في تلك القدرات مواهب يمكن للإنسان أن يستثمرها في حياته العملية من الناحية الأخرى.

[ولكن، كيف يمكن للإنسان أن يستثمر القدرات الخارقة في حالة وجودها فيه لكي يستفيد منها في حياته العملية؟].

إن هذا موضوع طويل ومعقد، وقد تطرقت إليه في بعض كتبي ومقالاتي، ولا بأس أن أتحدث عنه الآن باقتضاب.

إن القدرات الخارقة عدة أصناف، وكل صنف منها هو على درجات

متفاوتة في الأفراد، ومن الممكن القول إن أكثر الأفراد يملكون قسطاً ضئيلاً من تلك القدرات، أو أكثر من واحدة منها، وهم إذا تمكنوا من اكتشافها في أنفسهم في الوقت المناسب كان في مقدورهم أن يستثمروها في حياتهم العملية فينفعوا بذلك أنفسهم ومجتمعهم.

إن القدرات الخارقة تساعد الإنسان على النجاح في حياته كمثل ما تساعده المواهب الأخرى كالذكاء وغيره. ولكن المشكلة في المواهب البشرية بوجه عام أن صاحبها قد لا يعرف عنها شيئاً فتضيع ثمرتها عليه، وقد تكون في بعض الأحيان شؤماً عليه أو عقبة تعرقل عليه طريق النجاح.

المتوقع للحضارة البشرية في المستقبل أن يأتي عليها يوم يفحص الطفل فيه في سنواته الأولى لاكتشاف المواهب الموجودة فيه، الخارقية والذكائية وغيرها، ثم يوجه نحو المهنة التي هو مؤهل لها، وبذا تختفي هذه العادات الضارة السائدة بيننا الآن من حيث توجيه الأطفال نحو المهن التي نشتهيها لهم دون الاهتمام بمواهبهم الفطرية.

[إن علم الخارقية كشف النقاب عن الأساس العلمي للعقيدة التي شاعت بين الناس منذ قديم الزمان حول الجن، ولكن هناك عقيدة شائعة هي العقيدة بالحظ، فهل استطاع علم الخارقية أن يكشف النقاب عن الأساس العلمي لها؟].

نعم، إن علم الخارقية قد حل لغز (الحظ) بالتعاون مع علم النفس. فعلم الخارقية درس القدرات الخارقة في الإنسان، كما درس علم النفس القدرات الذكائية وغيرها. وقد تبين أخيراً أن كثيراً من الأشخاص نجحوا

في حياتهم بسبب وجود بعض هذه القدرات فيهم، ولكن الناس لم يكونوا يعرفون هذا السبب واضطروا إلى تفسير النجاح بعامل غيبي أطلقوا عليه اسم (الحظ)، كما هي عادتهم دائماً في تفسير الظواهر التي لا يعرفون لها تفسيراً.

خذ مثلا التخاطر، أي القدرة على قراءة أفكار الغير، أو التأثير في تفكيرهم. فهذه القدرة قد يملكها أحد الأشخاص ثم تتيح له الظروف أن يمتهن مهنة تنفع فيها هذه القدرة، كالتجارة مثلا. وبذا يستطيع هذا الشخص أن ينجح في مهنته دون أن يعرف هو سبب نجاحه أو يعرفه الناس عنه.

إن قوة التخاطر تساعد التاجر على التعرف على زبائنه أو التأثير فيهم. وهو قد ينجح بسبب ذلك في التجارة نجاحاً كبيراً. ولكنك حين تتحدث إلى مثل هذا التاجر الناجح تجده غبياً لا يحسن الكلام أو المناقشة الفكرية، وقد تتعجب حين تراه ناجحاً في مهنته[١]، وتتساءل عن السبب في نجاحه. إنك لا تدري أنه لو كان ذكياً حسن الحديث والمناقشة لما

---

(١) دعي الوردي إلى إلقاء محاضرة في محافظة النجف في ثمانينات القرن الماضي، وقد قرر عدد كبير من أصدقائه ومريديه أن يرافقوه إلى النجف، وقد تولى أحد أقارب الوردي من التجار الأثرياء تأمين السيارات لهم مجاناً، وفي المحاضرة التي ألقاها الوردي وكانت تدور حول موضوع الحظ والتخاطر تطرق إلى ذكر مثل على غباء التاجر وقال: (إن أقرب مثل موجود بيننا في هذه القاعة).. مشيراً من طرف خفي إلى ذلك التاجر الثري الذي تحمل نفقات نقل الناس وإطعامهم مجاناً من بغداد إلى النجف.

تمكن من النجاح في مهنته، فكل مهنة هي في حاجة إلى قدرة أو موهبة خاصة بها، وقد يصح أن نقول: إن موهبة الذكاء التي تمكن الفـــرد مـــن النجاح في المدرسة والجامعة قد لا تنفعه في السوق، فالناجح هناك قـــد يفشل هنا، والفاشل هناك قد ينجح هنا.

الأنويَّـة

[يلاحظ القارئ في مقالاتي وكتبي ومحاضراتي أني أكثر من ذكر مصطلح (الأنوية) وهو مصطلح قد لا يوليه أحد غيري هذا الاهتمام في اللغة العربية].

إني تحدثت غير مرة عن معنى هذا المصطلح، وقلت إنه يعني شعور الإنسان بالأنا تجاه الآخرين، وسعيه المتواصل نحو رفع شأنها في نظرهم. والواقع إن الأنوية لها أهمية قصوى في الطبيعة البشرية، ومن الممكن القول إن هذا الموضوع لم يلق في اللغة العربية الاهتمام الجدير به. وقد أصبح من الواجب علينا أن نلفت الأنظار إليه ونعطيه المكانة المناسبة له. إن النظرية التي كانت شائعة في البلاد العربية حول الأنا هي التي جاء بها فرويد(١) وأدلر(٢) وغيرهما من أصحاب مدرسة التحليل

---

(١) ولد فرويد في فريبج عام ١٨٥٦ بالنمسا من أبوين يهوديين، وعلى الرغم من أن فرويد صار لاحقا ملحدا فقد كان دائما يؤكد أهمية الديانة اليهودية في تكوينه. ابتكر طريقة التحليل النفسي السايكولوجي، من أهم كتبه: تفسير الأحلام، وثلاث مقالات في النظرية الجنسية، والسلوك، وتطور المعالجة النفسية.

(٢) عالم نفس نمساوي ذائع الصيت (١٨٧٠ – ١٩٣٧)، يعد أول رائد في علم

النفسي، وهي تختلف عن النظرية الأحدث منها والتي جاء بها كـولي[1] وميد من علماء الاجتماع الأمريكيين، وفي رأيي أن هذه النظرية الحديثة أكثر قدرة على فهم الطبيعة البشرية وأقرب منها إلى واقع هذه الطبيعة.

فحوى النظرية الحديثة في الأنوية هـو أن الأنـا محـور الشخـصية البشرية، وأنها من أهم العوامل التي جعلت الإنسان حيواناً اجتماعياً.

إن الإنسان ليس لديه غريزة اجتماعية موروثة كما هـو الحـال فـي النحل والنمل وغيرهما من الحشرات الاجتماعية. فالإنسان الذي ينشأ بين الحيوانات منذ طفولته الباكرة يصبح حيواناً مثلها في سلوكه، وقد عثـر على أفراد من هذا الطراز غير قليلين كما هو مدون في المصادر العلمية.

إن الإنسان في سلوكه الاجتماعي يندفع بتأثير غريزة ثابتة فيه، بل هو يريد مجاراة الناس حوله ويحاول التفوق فيها لكي ينال المكانـة العاليـة بينهم أو لكي يتجنب انخفاض مكانته على الأقل.

النفس الاجتماعي، كان يعمل مع فرويد ثم اختلف معه علميا ليضع نظريتـه فـي العلاقات الاجتماعية التي عرفت فيما بعد بـ(نظرية علم النفس الفردي). تـوفي في أسكتنلندا عام ١٩٣٧.

(١) جارلس كولي (١٨٦٤ – ١٩٢٩) فيلسوف وعالم اجتماع أمريكي ألـف عـدة مؤلفات أشهرها: الطبيعة الإنسانية والنظام الاجتمـاعي، والتنظـيم الاجتمـاعي، والعملية الاجتماعية، والنظرية والبحـوث الاجتماعيـة. تعتمـد جميـع آرائـه الاجتماعية على نظريته العضوية التي تنظر إلى المجتمع وكأنه كائن حـي كبيـر متكون من أجزاء مختلفة لكنها مترابطة ومكملة الواحدة للأخرى، ولكل جزء من الأجزاء وظائفه الأساسية التي يحتاجها المجتمع. انظر: معجم علـم الاجتمـاع، ص٨٧.

إن الحيوان ليس لديه شعور بالأنا، وكذلك الطفل البشري في أيامه الأولى إذ هو لا يشعر حينذاك بالأنا، ثم يبدأ هذا الشعور بالظهور فيه تدريجياً، ومن أولى علامات هذا الشعور فيه أنه يبتشر حين نمدحه ويمتعض حين نذمه!

إن ظهور الغيرة في الطفل يدل على وجود الأنوية فيه. والملاحظ أن الطفل يكون شديد الحساسية تجاه أقرانه من الأطفال. فنحن لا نكاد نمدح واحداً منهم أمامه أو نحمله أو نتضاحك معه، حتى نراه قد شعر بالغيرة منه وهو قد يبكي أو يغضب دون سبب ظاهر، وربما حاول إيذاء ذلك الطفل أو الاعتداء عليه.

إن التربية القديمة كانت غافلة عن وجود الأنوية في الطفل، وهي بذلك قد أضرت به في تكوين شخصيته، وأدت إلى نشوء بعض العقد النفسية فيه.

ومن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الشخص البالغ لا يختلف عن الطفل من حيث طبيعة الأنوية فيه، فهو يبتش للمدح ويمتعض من الذم، ويتألم حين يرى غيره قد نال من التقدير أكثر منه. وهذا منشأ الحسد في الإنسان.

ولكن الفرق بين الطفل والشخص البالغ في ذلك هو أن الطفل لم يتعود بعد على الرياء أو التظاهر أو الادعاء المصطنع، ولهذا فإن الأنوية تبدو عليه بسذاجتها الفطرية من غير تصنع. أما الشخص البالغ فهو يحاول كبت الأنوية في نفسه وتغطيتها بشتى المزاعم والادعاءات لكي لا يقال عنه إنه معجب بنفسه أو مغرور.

[قلنا آنفاً إن الأنا في الإنسان نوعان، اجتماعية وفردية، فالأولى تجعل الإنسان يجاري مجتمعه، والثانية تجعله يتمرد عليه. وقلنا أيضا إن جميع الناس لديهم هذان النوعان من الأنا ولكن على درجات ونسب متفاوتة][1].

إن الأنا الاجتماعية هي التي ساعدت على قيام المجتمع البشري. أما الأنا الفردية فهي التي ساعدت على تغييره وتطويره، ولولاها لصار المجتمع البشري جامدا راكدا لا يتغير على توالي الأجيال.

إن أكثر الناس، ولا سيما العوام منهم، هم الذين تسيطر عليهم الأنا الاجتماعية سيطرة قوية بحيث لا تسمح للأنا الفردية بالتأثير عليهم بشكل ظاهر. وهنا يجب أن نقول إن الذين يظهر عليهم تأثير الأنا الفردية قليلون بالنسبة إلى السواد الأعظم من الناس، وهم فئتان، إحداهما متمردة نحو الأعلى، وهي التي تتمثل في المصلحين والمجددين والنابغين، والأخرى متمردة نحو الأسفل وهي التي تتمثل في المنحرفين والمجرمين والمعقدين والمجانين ومن أشبه.

من مزايا المتمرد نحو الأعلى أن كلا النوعين من الأنا قوية فيه. فهو

---

(١) اعتاد الوردي في كتاباته ومحاضراته وأحاديثه أن يعود بين حين وآخر إلى موضوع كان ذكره سابقا ينبه إلى أهميته أو ليثير أفكاراً جديدة حوله، أو ليورد معلومات أخرى بصدده، وقد اتهمه بعضهم بأنه (يعيد ويصقل). وقال لي هو (رحمه الله) إن بعض الناس أطلق عليه اسم (الدكتور صاقول) وبسخريته المعروفة قال لي وهو يبتسم: ولكني – أعيد وأصقل – لأتأكد من أن من سمع الموضوع فهمه تماماً ليتسنى لي الانتقال إلى موضوع سواه.

يريد مجاراة مجتمعه ونيل المكانة العالية فيه من جهة، وهو من الجهة الأخرى لا يستطيع أن يصبر على ما في مجتمعه من قيم ومعتقدات مغلوطة. وهو قد يعاني صراعاً نفسياً من جراء وجود هاتين النزعتين المتناقضتين في نفسه.

أعرف شخصاً يريد أن يكون نابغاً عظيماً ولكنه في الوقت نفسه يجاري العوام في كل ما يفعلونه ويعتقدون به، فهو لا يكاد يرى جماعة من العوام تحيط به في مجلس أو محفل حتى يبدأ بدغدغة عواطفهم وبتأييد ما يعتقدون به مهما كان سخيفاً أو ضاراً(١).

إن هذا الشخص قادر أن ينال المكانة العالية بين العوام، وهو يجب أن يكتفي بذلك فلا يطمح أن يكون نابغاً أو مصلحاً يذكره التاريخ. إنه يجب أن يعلم أن ليس في مقدوره أن يجمع الأمرين في نفسه، فكل منهما له طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر.

[سألني أحدهم مرة: هل أني أعتبر نفسي من فئة المتمردين نحو الأعلى حيث ذكرت أن الأنا الفردية لعبت دورها في المرحلة الثانية من حياتي؟].

إني أتمنى أن أكون كذلك، ولكني مع ذلك يجب أن أعترف بأني غير قادر عليه.

الواقع أني أشعر بالثورة على الكثير من القيم والمعتقدات السائدة في

---

(١) الواقع أن الوردي كان يلتقي كثيراً من هؤلاء الأشخاص في مجالسه، ومنهم من يحمل شهادات عليا، لكني لم أر الوردي يحابي أحداً أو يجامله، بل كان يصدم مثل هؤلاء بتعليقاته اللاذعة الساخرة.

مجتمعنا غير أني لا أستطيع إعلان ذلك على الناس، وكثيراً ما أحاول مداراة العوام ودغدغة عواطفهم – مع الأسف الشديد..![1].

مرت بي بعض الفترات حاولت فيها أن أكون صريحاً في كتاباتي حيث جابهت الناس بالحق الذي أراه. ولكن تلك الفترات كانت قصيرة، إذ لم أكد ألمح بعض بوادر السخط من الناس حتى تراجعت أمامهم وعدت إلى ديدني القديم في المداراة والدغدغة!!

إني عندما أدرس سيرة المصلحين والمجددين والنابغين الذين غيروا وجه التاريخ أجد أنهم يختلفون عنا نحن جمهرة البشر. وليس في مقدور أي واحد منا أن يكون مثلهم بإرادته واختياره. وقد يصح أن أقول إنهم من طينة أخرى!

[إن لي مذكرات أخرى[2] أجَّلت نشرها إلى ما بعد موتي، والسبب الذي

---

(١) لم يعرف عن الوردي أنه دارى العوام أو دغدغ عواطفهم، وهو يورد ذلك مشفوعاً بـ(مع الأسف الشديد) من باب السخرية.

(٢) كان الوردي كثيراً ما يشير في أحاديثه إلى هذه المذكرات التي كان يقول عنها بأنها ستصدر بعد موته الذي هو قريب إن شاء الله (على حد قوله)، وكان يهدد بفحواها مسؤولين حكوميين، وقد رأيته مرة يهدد بها وكيل وزارة الأوقاف والشؤون الدينية في غرفة سادن الروضة الكاظمية الشيخ فاضل الكليدار الذي اصفر لونه عندما وجد الوردي يهدد وكيل وزارة يعمل هو موظفا فيها. قال الوردي لهذا المسؤول بغضب: قل لوزيرك إن مذكراتي ستصدر وسيعرف الناس من أي طينة هذا الوزير وأمثاله. ومن المؤسف أن هذه المذكرات ضاعت، فمنهم من يقول إنها موجودة عند أحد أبنائه الذي تعمد إخفاءها لما فيها من معلومات خطرة، ولكن أحدا من أبنائه لم يؤيد وجودها أو العثور عليها بعد وفاته، ومنهم

دعاني إلى ذلك ناشئ من رغبتي في تجنب سخط النـــاس]. فلــو قــرأت مذكراتي المؤجلة لوجدتها مليئة بالنقدات الاجتماعية الشديدة، ولا ســيما في يتصل بالمعتقدات والطقوس الدينية التي ورثناها من الماضي وأضرت بنا ضرراً فادحاً. فإني حين رأيت نفسي غير قادر على مجابهــة النـــاس بتلك النقدات في حياتي قررت أن أجابههم بها بعد موتي. وهم إذا أرادوا أن ينبشوا قبري بعد ذلك فليفعلوا ما يريدون، فإن الإنسان عند ذهابه إلى ربه لا يخشى أحداً سواه.

من يقول إن الوردي أخفاها عند صديقة بولونية له تعيش في بولونيا، ومنهم من وجه الاتهام إليَّ شخصيا بحيازتها وإخفائها، ولا يعرف أحد أين هي الآن، وربما ستظهر هذه المذكرات في المستقبل مع كتاب (طبيعة البشر) المفقود هو الآخر.. والمأمول ممن يملكها أن يظهرها للناس لما فيها من أهمية تاريخية كبرى.

العقل البشري

[العقل أحد نواحي الطبيعة البشرية، والواقع إن موضوع العقل البشري هو من أكثر المواضيع أهمية، إن لم يكن أكثرها أهمية على الإطلاق، من حيث علاقته بالحياة الاجتماعية وكيف يستطيع الفرد أن ينسجم معها أو ينجح فيها. فإن المفاهيم المغلوطة التي ورثناها من الماضي حول العقل أدت إلى الضرر بنا من نواحي عديدة].

[في عام ١٩٥٥ صدر لي كتاب بعنوان (مهزلة العقل البشري)(١)، وهذا العنوان في رأي بعض النقاد غير علمي].

إن رأي النقاد صحيح من بعض الوجوه، فالعقل البشري هم من أهم المزايا التي يتميز بها الإنسان عن الحيوان وهو الذي أبدع هذه الحضارة

---

(١) كتب الوردي تحت عنوان الكتاب الرئيسي العبارة التالية: (محاولة جديدة في نقد المنطق القديم لا تخلو من سفسطة)..!! وفي إهداء الكتاب كتب ما نصه: (أهدي هذا الكتاب إلى القراء الذين يفهمون ما يقرأون. أما أولئك الذين يقرأون في الكتاب ما هو مسطور في أدمغتهم فالعياذ بالله منهم. إني أخشى أن يفعلوا بهذا الكتاب ما فعلوا بأخيه (وعاظ السلاطين) من قبل، إذ اقتطفوا منه فقرات معينة وفسروها حسب أهوائهم ثم ساروا بها في الأسواق صارخين.. لقد آن لهم أن يعلموا أن زمان الصراخ قد ولّى، وحلَّ محله زمان التروي والبحث الدقيق).

الكبرى التي نشهدها اليوم. هذا ولكننا في الوقت الذي نعترف فيه بعظمة العقل يجب أن لا ننسى أن عظمته لها حدود تقف عندها، وأن العقل لا يكاد يتجاوز تلك الحدود حتى يبدو عليه الضعف والتهافت، وقد يصبح في آخر الأمر مهزلة أو شبيهاً بالمهزلة.

انظر إلى الخرافات والسخافات والأباطيل التي تؤمن بها جماهير غفيرة من البشر حيث نرى كل طائفة منهم تعتقد اعتقاداً جازماً بأن الحق معها وحدها، وأنها وحدها تفكر في ضوء العقل والمنطق، وهي تعتبر المخالفين لها متعصبين أو معاندين أو جهلة.

وانظر كذلك إلى البشر في تنازعهم الفردي والجماعي، فإنهم لم تمر عليهم فترة من الزمن طيلة تاريخهم الطويل لم يتنازعوا فيها، ولو فرضنا أننا طلبنا من أي فريقين متنازعين من البشر أن يحلُّوا تنازعهما بالاحتكام إلى العقل لما كان لطلبنا هذا أي أثر فيهما، إذ كل فريق منهما حين يحتكم إلى عقله يتصور أن الحق معه وأن الباطل مع خصمه(١).

---

(١) وصف المرحوم الوردي العقل البشري بأنه يشبه آلة الراديو، ففي كتيبه الأول (شخصية الفرد العراقي)، الذي صدر عام ١٩٥١ والذي ضم نص محاضرة ألقاها في قاعة الملكة عالية في اليوم الثاني من نيسان من ذلك العام، قال الوردي ما نصه: (إن العقل البشري، أيها السادة، كآلة الراديو، فأنت لا تستطيع أن تستمع إلى محطة من المحطات إلا إذا أدرت مفتاح الراديو نحو موجة تلك المحطة. وإدارة المفتاح كما تعلمون ما هو إلا تقصير وتطويل للسلك الخاص المستلم للأمواج لكي يكون مساوياً بسعته اللاسلكية لسلك المحطة المرسل. على هذا المنوال تماماً يعمل العقل البشري، فهو لا يصغي إلى جدل أو يفهمه أو يقتنع به إلا إذا كان الجدل مستنداً على نفس القواعد المنطقية المتغلغلة في أعماق نفسه).

إن العقل – كما قال وليم جيمس[١] – خلقه الله في الإنسان لكي يساعده على تنازع البقاء، كمثل ما خلق الناب في الأسد والخرطوم في الفيل والسم في الأفعى. وقد أخطأ الفلاسفة القدامى في رأيهم بأن وظيفة العقل هي للبحث عن الحقيقة المطلقة أو التمييز بين الحق والباطل. إن الذي يريد أن يعامل البشر في ضوء هذا الرأي القديم لا بد أن يكون مصيره الفشل في الحياة.

إني عندما عنونت كتابي (مهزلة العقل البشري) في عام ١٩٥٥ كنت أنظر إلى الضجة التي قامت ضدي على إثر صدور كتابي (وعاظ السلاطين) في عام ١٩٥٤، فقد هُددت حينذاك بالقتل غير مرة، وصدرت ضدي سبعة كتب، وكرس أحد خطباء التعزية ليالي رمضان كلها للتهجم على الكتاب ومؤلفه[٢]!

(١) وليم جيمس (١٨٤٢ – ١٩١٠م)، عالم نفسي وفيلسوف أمريكي من أصل سويدي بنى مذهب الذرائعية البرجماتية على أصول أفكار بيرس ويؤكد أن العمل والمنفعة هما مقياس صحة الفكرة ودليل صدقها. كان كتابه الأول: مبادئ علم النفس (١٨٩٠م) الذي أكسبه شهرة واسعة ثم توالت كتبه: موجز علم النفس (١٨٩٢م) وإرادة الاعتقاد (١٨٩٧م) وأنواع التجربة الدينية (١٩٠٢م) والبراجماتية (١٩٠٧م) وكون متكثر (١٩٠٩م) يعارض فيه وحدة الوجود. ويؤكد جيمس في كتبه الدينية أن الاعتقاد الديني صحيح لأنه ينظم حياة الناس ويبعث فيهم الطاقة.

(٢) كان أشد ما أثار غضب العامة على الوردي في كتاب وعاظ السلاطين هو قوله: (لم يشهد التاريخ الإسلامي رجلاً فرق الجماعة كعلي بن أبي طالب. وعليٌ لم يكتف بتفريق جماعة المسلمين بنفسه، بل أورث نزعته هذه لأولاده من بعده.

وإني حين أقرأ الآن كتاب (وعّاظ السلاطين) لا أجد فيه ما يستحق كل تلك الضجة، ولكن العوام كانوا حينذاك يفكرون بشكل آخر، كما كان ديدنهم في كل زمان ومكان. فهم كما وصفهم الإمام علي (عليه السلام): (ينعقون مع كل ناعق، ويميلون مع كل ريح). وليس هذا شأن العوام وحدهم، فإن كثيراً من الذين يصفون أنفسهم بأنهم مثقفون أو متفقهون لا يختلفون عن العوام في تفكيرهم.

إن العقل البشري بوجه عام لا يستطيع أن ينظر في الأمور نظرة حيادية مطلقة، لأن هناك عوامل لا شعورية عديدة تؤثر في تفكيره من حيث لا يدري، كالمعتقدات التي نشأ عليها والعاطفة والمصلحة والأنوية وحدود المعرفة والتجارب المنسية والعقد النفسية وغيرها. فالإنسان حين يفكر يتصور أنه حر مطلق في تفكيره لأنه لا يعرف العوامل اللاشعورية المؤثرة في عقله. فنحن حين نتهم المخالف لنا بالتعصب أو العناد أو الجهل لا ندري أنه هو نفسه يتهمنا بمثل ما اتهمناه به. وهذا هو ما أشار إليه القرآن الكريم إذ قال: ((كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ))(١).

ومن يدرس تاريخ العلويين يجدهم ثواراً من طراز عجيب، ولم يمر في تاريخ الإسلام جيل دون أن يسمع الناس بخبر ثورة جامحة قام بها رجل من العلويين أو ممن ينتسب إليهم، ولا يخفى أن أول حرب داخلية نشبت بين المسلمين كانت في عهد علي، وقد اتُّهِم علي بتهمة سفك دماء المسلمين مراراً. حتى أن ابن عمه ونصيره ابن عباس اتهمه بهذه التهمة الشنيعة...)، انظر: وعاظ السلاطين، ص٢٠٠، ط٢، دار كوفان، لندن، ١٩٩٥.

(١) سورة الروم: ٣٢، وسورة المؤمنون: ٥٣.

من المؤسف أن نجد كثيراً من متعلمينا لم يدركوا هذه الحقيقة بعد، إذ هم لا يزالون قابعين في قوقعتهم العقلانية القديمة التي جاء بها الإغريق قبل أربعة وعشرين قرناً من حيث الثقة المطلقة بالعقل. ومن يقرأ كتاباتهم أو يشهد مجادلاتهم يراهم لا يختلفون عن المفكرين القدامى الذين اعتادوا أن يستهلوا مقالاتهم بعبارات (مما لا شك فيه) و(مما اتفق عليه العقلاء) و(مما لا يتجادل فيه اثنان) و.... الخ[١].

[المعروف عن الإغريق القدماء أنهم أنتجوا في عصرهم ثورة فكرية كبرى، وما زال فلاسفتهم كسقراط[٢] وأفلاطون[٣]

---

(١) قال لي الوردي مرة إن هذه العبارات تلحقها عبارتا: (مما لا ريب فيه) و(مما لا يقبل النقاش والجدل) وسواهما تمنع منذ البداية الجدل والنقاش وتحكم على الفكر بالجمود معتبرة الأمور النسبية أموراً مطلقة.

(٢) سقراط (٤٦٩ ـ ٣٩٩ ق.م) فيلسوف ومعلم يوناني جعلت منه حياته وآراؤه وطريقة موته الشجاعة، أحد أشهر الشخصيات التي نالت الإعجاب في التاريخ. صرف حياته تماما للبحث عن الحقيقة والخير. لم يترك أية مؤلفات، وقد عُرِفت معظم المعلومات عن حياته وتعاليمه من تلميذيه المؤرخ زينفون والفيلسوف أفلاطون، بالإضافة إلى ما كتبه عنه أريسطوفانيس وأرسطو. وُلد سقراط وعاش في أثينا. وكان ملبسه بسيطا، تناول السم بيده لينهي حياته ولكي لا يعطي لمخالفيه حجة ليقتلوه.

(٣) هو أرسطوقليس، الملقّب بأفلاطون بسبب ضخامة جسمه، عاش بين (٤٢٧ ق.م – ٣٤٧ ق.م) فيلسوف يوناني قديم، وأحد أعظم الفلاسفة الغربيين. عرف من خلال مخطوطاته التي جمعت بين الفلسفة والشعر والفن. كانت كتاباته على شكل حوارات ورسائل وإبيغرامات (ابيغرام: قصيدة قصيرة محكمة منتهية بحكمة وسخرية) ، وأشهر فلاسفة اليونان على الإطلاق. ولد في أثينا في عائلة

وأرسطو[1] موضع إعجاب العالم].

إني لا أنكر، ولا يجوز لي أن أنكر، عظمة الثورة الفكرية التي جاء بها فلاسفة الإغريق من أمثال سقراط وأفلاطون وأرسطو، ولكني مع ذلك أستطيع أن أقول إن ثورتهم كانت كأية ثورة أخرى في التاريخ ليست مطلقة بل هي نسبية. فهي قد قامت بدورها في تطوير الفكر البشري، غير أن دورها هذا قد انتهى وحل محله دور ثورة أخرى.

إن الجدير بالذكر في هذا الصدد أن الفكر البشري مر عبر تاريخه الطويل بمراحل ثلاث هي كما يلي:

١. المرحلة اللاعقلانية.

٢. المرحلة العقلانية.

٣. المرحلة العلمية.

من الممكن أن نعتبر الثورة الفكرية التي قام بها الإغريق بداية المرحلة العقلانية في التاريخ البشري، فقد كان البشر قبلهم يعيشون في المرحلة اللاعقلانية، إذ كانت الأساطير والخرافات والغيبيات سائدة فيهم، وجاء فلاسفة الإغريق بثورتهم التي دعوا فيها إلى الاعتماد على العقل

أرسطوقراطية. أطلق عليه بعض شارحيه لقب "أفلاطون الإلهي". يقال إنه في بداياته تتلمذ على السفسطائيين وعلى كراتيلِس، تلميذ هراقليطس، قبل أن يرتبط بمعلِّمه سقراط في العشرين من عمره. وقد تأثر أفلاطون كثيرًا فيما بعد بالحُكم الجائر الذي صدر بحقِّ سقراط وأدى إلى موته.

(١) أرسطو (٣٨٤- ٣٢٢ قبل الميلاد) فيلسوف يوناني قديم كان أحد تلاميذ أفلاطون ومعلم الإسكندر الأكبر. كتب في مواضيع متعددة تشمل الفيزياء، والشعر، والمنطق، وعبادة الحيوان، والأحياء، وأشكال الحكم.

والمنطق وترك جميع المعتقدات الخرافية التي لا تنسجم معها. وقد أحدثت ثورتهم هذه هزة في الأفكار حيث تبنتها نخبة من المفكرين في مختلف الشعوب، وصار هؤلاء نبراساً استضاء به الكثيرون على توالي الأجيال.

إن الثورة الإغريقية التي قامت على أساس الثقة المطلقة بالعقل والاعتماد عليه في البحث والجدل. هذه الثورة كانت لها قيمتها وأهميتها، وما زالت كذلك، تجاه العوام الذين تسيطر عليهم الخرافات والأساطير، غير أنها فقدت قيمتها في الأوساط العلمية الحديثة، أو هي أصبحت رجعية تعرقل سبيل البحث والتفكير الصحيح فيها.

إن المرحلة العلمية التي جاءت بها الحضارة الحديثة هي بمثابة ثورة على المرحلة العقلانية السابقة لها كمثل ما كانت المرحلة العقلانية ثورة على المرحلة اللاعقلانية. فكل مرحلة لها دورها وأهميتها في وقتها. وهذا هو ما نريد تنبيه الأذهان إليه، فإن كثيراً من المتعلمين عندنا – كما أشرت إليه آنفاً – يفكرون على النمط العقلاني وهم يحسبون أنهم علميون.

إن أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو نظرة الناس إلى القدرات الخارقة التي اكتشفها علم الخارقية الجديد في الإنسان.

فإن هذه القدرات عرفها الإنسان منذ قديم الزمان، كإصابة العين، والتنبؤ، وقراءة الأفكار، والاستبصار عن بعد، وتأثير الإيحاء، وغيرها. فهي يملكها بعض الأفراد بشكل يلفت النظر ولكن الناس اتخذوا تجاهها ثلاثة مواقف مختلفة على النحو التالي:

١. موقف لا عقلاني، وهو الموقف الذي اعتاد عليه العوام، إذ هم

فسروا تلك القدرات بأنها من فعل مخلوقات غيبية كالجن والشياطين والملائكة.. وأحاطوها بالخرافات، وحاولوا اتقاء شرها بالطلاسم والتعاويذ.

٢. موقف عقلاني، وهو الموقف الذي اعتاد عليه المتعلمون عندنا وعند غيرنا، إذ هم اتخذوا تجاه القدرات الخارقة موقف التكذيب والإنكار المطلق واستهزأوا بمن يصدق بها[١]. وبذا ضاع عليهم فهم جانب مهم من الطبيعة البشرية.

٣. موقف علمي، وهو الموقف الذي قام عليه علم الخارقية الجديد، إذ هو وضع القدرات الخارقة على بساط البحث التجريبي والموضوعي دون اهتمام بخرافات أولئك وتكذيب هؤلاء.

فالعلميون إذا سمعوا عن شخص يملك قدرة خارقة ذهبوا إليه وأخذوا يفحصونه فحصاً دقيقاً لكي يكتشفوا حقيقة تلك القدرة ودرجتها ومداها[٢]. وهذا المنهج العلمي هو الذي فتح لنا آفاقاً في الكون والإنسان كان الناس يجهلونها من قبل.

---

(١) نشب مرة جدل شديد بين المرحوم الوردي والمرحوم الشيخ جلال الحنفي كان محوره البيوت المسكونة بالجن، وقد أنكر الحنفي ذلك بشدة واستهزأ به. وحين دعاه الوردي إلى المبيت في بيت مسكون رفض الحنفي متعللاً بأن الوردي سيقوم في منتصف الليل إلى المطبخ ويرمي القدور والصحون على الأرض ويدعي أن ذلك من فعل الجن! وقد كتبتُ سلسلة مواضيع نشرتها في جريدة الجمهورية تحت عنوان: (المجالس مدارس) وتطرقت في إحدى حلقات السلسلة إلى هذه الحادثة تحت عنوان (الوردي والحنفي في بيت مسكون).

(٢) هذا ما كان يفعله المرحوم الدكتور الحارث عبد الحميد رئيس جمعية الباراسايكولوجيين العراقيين في مركز استُحدِث لهذا الغرض في جامعة بغداد.

خلاصة القول: إننا نعيش اليوم في المرحلة العلمية، وقد ذهب زمان المرحلة العقلانية كما ذهب زمان المرحلة اللاعقلانية قبلها، وأصبح من الواجب علينا أن نفهم ذلك قبل فوات الأوان.

اللغة والنحو

قلت غير مرة سابقاً، وأعيد القول هنا، إن اللغة في مفهومها الحضاري وسيلة لا غاية، وهي إذن يجب أن تخضع للتيسير والتطوير لكي تتكيف مع الظروف الاجتماعية المستجدة[1].

وفي رأيي إن الذين يسعون لتعقيد لغتهم وتجميدها إنما هم يسيئون إلى أمتهم من حيث يظنون أنهم يحسنون إليها.

يجب أن لا ننسى أن الدعوة إلى تيسير النحو ليست جديدة، فقد دعا إليها في الماضي كثيرون، كان أحدهم ابن مضاء

(١) المعروف عن الوردي أنه دعا إلى تيسير النحو العربي منذ زمن طويل، وقد أثارت دعوته هذه سخط كثيرين عليه، وله في هذا المجال مساجلة مع الدكتور عبد الرزاق محيي الدين رئيس المجمع العلمي العراقي (١٩٦٥ – ١٩٧٩) ووزير الدولة لشؤون الوحدة في حكومة عبد الرحمن عارف، ضمها في كتاب (أسطورة الأدب الرفيع). كما أنه (رحمه الله) كان متأثراً بأسلوب الكاتب المصري سلامة موسى ويصفه بـ(الأسلوب البرقي) أو (الأسلوب التلغرافي) أي الأسلوب الذي تكتب به البرقيات العاجلة فهو مختصر ومفهوم ويوصل الفكرة إلى المتلقي بسرعة.

القرطبي[1] في كتابه (الرد على النحاة) وهو عاش في القرن السادس الهجري.

أما في عصرنا فقد ظهر من دعاة التيسير إبراهيم مصطفى[2] في كتابه (إحياء النحو)، وأمين الخولي[3]، وعبد الستار الجواري[4]، وغيرهم.

---

(١) ابن مضاء القرطبي (٢٠٧ هـ) نحوي لم يعتد بالتأويل كثيرا، وتعامل مع النحو على أساس اعتناقه مذهب الظاهرية، فبدأ يتعامل مع النحو بشكله الظاهري متأثرا بما اعتنقه، فطبق مبادئ ما اعتنقه على النحو، وهو ما وضح من خلال كتابه: (الرد على النحاة).

(٢) ولد في عام (١٣٠٥هـ ــ ١٨٨٨م) وتوفي في (١٣٨٢هـ ــ ١٩٦٢م) نحوي من أعضاء مجمع اللغة العربية بالقاهرة ابتدأ دراسته في الأزهر، وتخرج بدار العلوم، وعمل مدرساً للأدب العربي في جامعة الإسكندرية، فعميداً لكلية دار العلوم. وصنف إحياء النحو، وشارك في تأليف عدة كتب، وفي تحقيق سر صناعة الإعراب لابن جني، وإعراب القرآن للزجاج.

(٣) من كبار الأساتذة وعمالقة الفكر المعاصر، ولد عام ١٩٠٤م، له عشرات المؤلفات في الدراسات الإسلامية والأدبية، وهو زوج الباحثة والكاتبة المعروفة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ).

(٤) ولد الدكتور أحمد عبد الستار الجواري عام ١٩٢٤، ويرجع نسبه إلى ألبو جواري وهي إحدى أفخاذ قبيلة طيء. نال الدكتوراه في الآداب في جامعة القاهرة بمرتبة الشرف عن رسالته (الشعر في بغداد) عام ١٩٥٣م، تبوأ عددا من المناصب كان منها: عميد كلية الشريعة، نقيب المعلمين عام ١٩٦٢، استوزر للتربية والتعليم في سنة ١٩٦٣ وحتى ١٩٦٤، وفي أوائل عام ١٩٦٨ انتخب نقيبا للمعلمين للمرة الثانية، ثم رئيسا لاتحاد المعلمين العرب عام ١٩٦٩، ثم أعيد تعيينه وزيرا للتربية والتعليم عام ١٩٦٨ وحتى أوائل سنة ١٩٧٠ حيث عين وزيرا لشؤون رئاسة الجمهورية حتى سنة ١٩٧٥ثم أعيد تعيينه وزيراً

والمعروف عن ساطع الحصري[1] أنه كان يدعو إلى تيسير النحو كـذلك، وهو كان يعلن تذمره أحياناً مما في قواعد النحو من تـصعيب وتعقيـد،

للتربية ثم وزيرا للدولة ومشرفاً على الأوقاف الإسلامية فوزيراً للأوقـاف حتـى عام ١٩٧٩. انتخب عضوا عاملا في المجمع العلمي العراقي في عام (١٩٦٥ – ١٩٧٨) ثم أعيد انتخابه عضوا في المجمع العلمي العراقي الذي أعيـد تـشكيله عام ١٩٧٩ ثم اختير عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربية بالقاهرة وبعدها تـم انتخابه بالإجماع عضوا عاملا فيه عام ١٩٨٥ واختير أيضا عـضوا فـي هيئـة الموسوعة الفلسطينية، وكذلك تم اختياره عضوا مراسلا في مجمع اللغة العربيـة في دمشق ومجمع اللغة العربية في عمان وتم اختياره من ثم عضوا عـاملا فـي المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية في الأردن. توفي في الثاني والعشرين من كانون الثاني ١٩٨٨م.

(١) أبو خلدون ساطع الحصري هو أحد مؤسسي الفكر القومي العربي. وأحد الدعاة والمصلحين القوميين الذين زخر بهم المشرق العربي ممن تبنـوا الـدعوة إلـى القومية العربية. شغل عدة مناصب في بلاط السلطان عبد الحميـد الثـاني حتـى سقوط الدولة العثمانية، ثم رحل إلى دمشق عام ١٩١٩ حيث تولى منصب وزير التعليم إلى أن خلع الملك فيصل الأول عام ١٩٢٠، فرحـل إلـى العـراق عـام ١٩٢١. فعمل على تطوير مناهج التعليم فيه، وقـد اشـتهر بوضـعه (القـراءة الخلدونية) وهي كتاب منهجي لتعليم الحروف الأبجديـة العربيـة للـصف الأول الابتدائي، وقد سماها (الخلدونية) نسبة إلى ابنه الأكبر خلدون، وقد ظل يدعو إلى فكرة القومية العربية وكانت له صلات قوية بالساسة العـراقيين آنـذاك إلـى أن قامت ثورة رشيد عالي الكيلاني عام ١٩٤١ فنفاه الإنكليز إلى حلب ومنها تـسلل إلى بيروت حتى عاد مرة أخرى إلى دمشق عام ١٩٤٤، إذ دعته حكومة سـوريا المستقلة للعمل مستشاراً لصياغة النظام التربوي والتعليمي في البلاد. انتقل إلـى القاهرة عام ١٩٤٧ وعين مديراً لمعهد البحوث والدراسات العربية عـام ١٩٥٣ حتى توفي هناك عام ١٩٦٨.

ويعد ذلك مضراً بالأمة العربية في مسيرتها الحضارية الحديثة.

قرأت منذ عهد قريب كلمة لأحد المتعصبين للنحو نشرتها إحدى المجلات العربية، وهذه فقرات منها. حيث يقول كاتبها ما نصه:

(من أبرز سمات الوحدة العربية هي اللغة العربية، وهذه اللغة هي العالم الأمثل بالنسبة لنا نحن العرب.. إذ أن لها أثراً عظيماً في تكوين وصياغة نفسياتنا.. فإن الذين يحاربون لغتنا بسوء إنما يضمرون لنا الأسوأ.. فهم يريدون تبسيط اللغة العربية، ويريدون حذف الكثير منها، أ لم يعلم أي من هؤلاء أن لغتنا مقدسة كالصلوات الخمس؟ فهل يستطيع إنسان أن يترك واحدة منها للسهولة أو البساطة).

إن هذا الكاتب يعتبر اللغة كالصلاة مقدسة لا يجوز التغيير فيها. وهذه دعوى لو اتبعناها لأضرت بنا في مسيرتنا الحضارية على نحو ما قال ساطع الحصري، فاللغة – كما أشرت إليه آنفاً – وسيلة ولا غاية، ونحن نريد لغة تساعدنا على فهم الحياة وعلى تقريب الأقطار العربية بعضها من بعض. أما اللغة الصعبة المعقدة فهي تؤدي إلى العكس من ذلك كما لا يخفى.

وصل التعقيد في القواعد النحوية إلى درجة جعلت التلاميذ في مدارسنا يحفظونها من أجل الامتحان ثم ينسونها بعدئذٍ، ولم أجد سوى القليل منهم من يتابعها ويلتزم بها في حياته. وطالما سمعت بعض رجالنا المعروفين وهم يخطأون عندما يتحدثون ارتجالاً، ومنهم من يخطأون فيه عند إلقاء خطبهم المكتوبة[١].

---

(١) لم يلاحظ على الوردي مرة أنه أخطأ في قواعد النحو العربي وهو يتحدث أو يرتجل كلمة أو يلقي محاضرة، وكانت كلماته تصل إلى الآذان صافية من اللحن.

ولا لوم عليهم في ذلك. فقد ورد في الأمثال العربية القديمة (إذا أردت أن تطاع فَمُرْ بما يستطاع)[1]، فإن القواعد النحوية إذا كانت أصعب مما يقدر عليه أكثر الناس فلا بد أن نتوقع الخطأ منهم فيها على كل حال.

أعرف شخصاً هو من أكثر الناس تعصباً للنحو، وهو يتهم دعاة التيسير له بالعداء للعروبة، ولكنه في الوقت نفسه من أكثر الناس خطأ في النحو، حتى في كلماته المكتوبة! وقد حدث له ذات يوم أن ألقى كلمة مكتوبة في مقر إحدى الجمعيات، وكانت كلمته مملوءة بالأخطاء النحوية. وبعد انتهاء الحفل سأله أحد الحاضرين: كيف يوفق بين تعصبه للنحو وكثرة أخطائه فيه؟ فكان جوابه: إن علم النحو هو كعلم الطب أو غيره من العلوم التي يتخصص بها بعض الأفراد دون غيرهم. ففي رأيه أن المتخصص بالنحو يجب أن يراجعه الناس ليستشيروه حول قواعد النحو كمثل ما يراجعون الطبيب لاستشارته حول أمراضهم!

يمكن تشبيه القواعد النحوية التي صنعها النحاة القدامى بالقواعد الفقهية التي صنعها الفقهاء. فنحن نعرف أن النبي محمداً (ص) جاء بتعاليم محدودة في شأن الطهار والوضوء والصلاة والصوم والحج والمعاملات... ولكن الفقهاء جاءوا بعدئذ فطوروا تلك التعاليم وعقدوها بحيث أصبح من الصعب على الإنسان أن يلتزم بها بحذافيرها..! ومن يرد التزامها حرفياً قد يصاب بداء الوسوسة الذي لا يرجى شفاؤه[2]. إن

---

(١) ينسب بعضهم هذه العبارة إلى الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام).

(٢) حدثني الوردي أنه كان مصابا بداء الوسوسة وأنه ظل كذلك لفترة طويلة حتى إذا ما ذهب للدراسة في الولايات المتحدة الأمريكية سنة ١٩٤٦ شفي من هذا الداء، ولكنه قال لي مرة إن بعض آثار ذلك الداء ما زالت موجودة في نفسه.

الذي يقرأ المجلدات الضخمة التي كتبها الفقهاء في موضوع الطهارة والنجاسة مثلا يجد بحراً لا نهاية له. وهم قد ينطبق عليهم قول النبي (ص) في بني إسرائيل حيث وصفهم بأنهم (ضيقوا على أنفسهم فضيق الله عليهم)، فهم جعلوا الإسلام أصعب دين على وجه الأرض[1] كمثل ما جعل النحاة اللغة العربية أصعب لغة على وجه الأرض!

خلاصة القول: إننا في حاجة إلى تجديد وإصلاح في كثير من شؤوننا الدينية واللغوية والاجتماعية.

وقد ظهر لدينا في هذه الشؤون مصلحون على توالي العصور، ومن المفروض فينا أن نتبع خطى المصلحين ونقتدي بهم بدلاً من اتِّباع المتعصبين والمتشددين.

---

(١) حضرت نقاشاً أثاره الوردي في مجلس من مجالس بغداد حول موضوع الطهارة والنجاسة استمر أكثر من ساعتين، وسجلت التعليقات الساخرة للوردي حول الموضوع، وربما سأنشرها يوما ضمن هذه السلسلة. فقد كان الوردي في بداية النقاش قد طرح موضوع الاستنجاء بالورق أو الحجارة وآراء الفقهاء حول هذا الموضوع مركزاً في جدله على أن الإسلام دين اليسر وليس دين العسر وأن من الخطأ الفادح أن نجعله أصعب دين على وجه الأرض.

نقد المصححين اللغويين[1]

إن التصحيحات اللغوية التي تنشر في صحفنا الآن هي كأي من أعمال البشر فيها الحسن وفيها السيئ. وأعترف لك أني استفدت من بعضها كثيرا، ولكن مع ذلك أستطيع أن أقول إني وجدت في البعض الآخر منها تشدداً لا ينسجم مع مسيرتنا الحضارية الراهنة، وهو قد يضر بنا أكثر مما ينفعنا.

أذكر فيما يلي نماذج من تشدد بعض المصححين، لكي يدرك القارئ مبلغ الضرر الناتج عنه:

١. إنهم ذكروا قواعد للتمييز بين استعمال لفظة (هل) و(الهمزة) في الاستفهام وأعلنوا خطأ من يضع إحداهما في محل الأخرى. ولست أدري ما هي الفائدة التي نجنيها من هذا التمييز، فالواجب يقضي علينا في ظروفنا الحاضرة أن نستعمل إحداهما دائما في جميع الأحوال، وإني أفضل استعمال (هل) دائما لوضوحها. أما القواعد التي ذكرها المصححون في هذا الشأن فهي مما لا يستطيع حفظها

---

(١) يواصل الوردي هنا الحديث حول تيسير قواعد النحو وهو الموضوع الذي دعا إليه في كتاباته كثيراً.

والالتزام بها إلا القليل من الناس. هذا مع العلم أنها لا تجدينا شيئاً في توضيح المعنى. إن حياتنا الحديثة تـولي اهتمامـاً لتوضـيح المعنى أكثر مما تولي لالتزام القواعد التي لا فائدة منها.

٢. ذكر المصححون قواعد أخرى للتمييز بين استعمال (نعم) و(بلـى) للجواب عن الاستفهام. وقد نسي هؤلاء أن (بلى) ذهب زمانها ولا يستعملها الآن أحد، فلماذا يشغلون أنفسهم ويـشغلوننا بكلمـة لا يستعملها أحد؟! ولو فرضنا أنهم في حياتهم العملية سـألوا أحـداً من الناس عن شيء فأجابهم بكلمة (نعم) بدلاً من (بلى) فهل هـم يفهمون الجواب بغير المعنى المقصود منه؟ وهل هم يطلبون منه أن ينطق كلمة (بلى) لكي يفهموا جوابه فهماً صحيحاً؟ فإلى متـى يا ناس!!؟؟

٣. ذكر المصححون قواعد أخرى للتمييز بـين اسـتعمال (أو) و(أم) وهذه القواعد لا تختلف في عدم جدواها عن قواعد (نعم) و(بلى) أو قواعد (هل) و(الهمزة)، وليس هناك أي فرق لدى القارئ بين أن يرى في الجملة التي يقرأها (أو) بدلاً من (أم).

٤. ذكر أحد المصححين الخطأ الذي يقع فيه بعض الكتاب عند عـدم تمييزهم بين جمع القلة وجمع الكثرة في جموع التكـسير. ففـي رأيه أن جموع التكسير في اللغة العربية نوعان، أحدهما للقلة، أي التي هي دون العشرة، والآخر للكثرة التي هي فوق العشرة، ولهذا فإن من الخطأ – في رأي هذا المصحح – أن نقول: (دخل القريـة سبعون من الأضياف)، فـ(الأضياف) وزن قلة وهو إذن لا ينطبق

على عدد (سبعين) ويجب أن نقول: (ضيوف) بدلا من (أضياف). يقول هذا المصحح في مقالته التصحيحية ما نصه: (تميزت لغتنا العربية الحبيبة بالدقة في التعبير، من ذلك تمييزها بين القلة والكثرة في جموع التكسير.....).

وإني أحب أن أعلق على كلمة هذا المصحح فأقول: كم من الناس هم قادرون على حفظ أوزان القلة والكثرة لكي يميزوا بينها في الاستعمال؟

ولا تنحصر المشكلة في الكاتب بل هي تشمل القارئ أيضاً إذ هو يجب أن يحفظ أوزان القلة والكثرة لكي يميز بينها عند قراءة عبارة من العبارات. والواقع أن العلامة التي تميز بين القلة والكثرة هي العدد الذي يذكر في العبارة. وهذا ما جرت عليه العادة في جميع لغات العالم، وفي لغتنا الحاضرة أيضا. فنحن نستعمل وزناً واحدا للقلة والكثرة معاً، فنقول: (ضيوف) مثلا في كليهما، وفي مقدور القارئ أن يميز بينهما حين يقرأ العدد المذكور في العبارة طبعاً.

٥. من أبشع ما وجدته عند هؤلاء المتشددين هو أنهم لا يرضون على استعمال لفظة (التقييم) إذ هم يعدونها مغلوطة من الناحية اللغوية ويستعملون بدلاً عنها لفظة (التقويم)، مع العلم إن (التقويم) في أصله اللغوي يعني التعديل وإزالة العوج، بينما المقصود من (التقييم) تبيان القيمة. ولكن المصححين يريدون منا أن نستعمل (التقويم) في كلا المعنيين، أي بمعنى التعديل تارة، ومعنى تبيان القيمة تارة أخرى! وهم لا يبالون بما يحصل في ذهن القارئ من التباس في المعنى من جراء ذلك.

إن مجمع اللغة العربية في مصر، وبعض المجامع الأخرى أجازوا استعمال (التقييم).

والظاهر أنهم اقتدوا في ذلك بما فعله القدماء حين استعملوا لفظة (التعييد) بالرغم من مخالفتها للقواعد اللغوية. ولكن أحد المصححين عندنا لم يقبل بذلك، فهو كتب بمقالة له ما نصه:

(وعلى الرغم من رخصة بعض مجامع اللغة العربية باستعمال كلمة تقييم فإن معجمات العربية التي في أيدينا تشير إلى أن الصواب أن تقول: تقويماً، لا أن تقول: تقييماً.....).

معنى هذا أن صاحبنا المصحح يفضل التزام القواعد اللغوية على توضيح المعنى. فهو لا يبالي بما تقول به المجامع اللغوية، بل يبالي بما تقول به القواعد القديمة.

[إني أولي الاهتمام للمعنى وتوضيحه أكثر مما أوليه للقواعد اللغوية]. وإني أقتدي في ذلك بالغزالي، فالمعروف عن هذا الرجل أنه كان أكثر اهتماماً بالمعنى منه بالتزام القواعد اللغوية. وهو عندما عوتب على ذلك أجاب قائلا إن قصده هو المعاني وتحقيقها دون الألفاظ وتلفيقها. وقد علق أحد الكتاب العرب في عصرنا على قول الغزالي فقال: (ونحن نحمد الله على عدم اشتغال الغزالي بعلوم اللغة وعلى عدم اهتمامه بصناعة الألفاظ فإنه لو اعتنى بهذه الناحية لما امتازت كتابته بهذه القوة والسلاسة في التعبير)[١].

يمكن القول إن الغزالي سبق زمانه بهذا المبدأ الذي نادى به قبل

---

(١) انظر: المنقذ من الضلال، الغزالي، طبعة دمشق، ١٩٦٠.

تسعة قرون، إذ هو جعل اللغة وسيلة لا غاية، وهو المبدأ المتبع الآن في مختلف أقطار العالم المتمدن، ومن المؤسف أن نرى بعض كتابنا ونقادنا لا يرتضون هذا المبدأ، أو هو يثير سخطهم.

إن اللغة عنصر مهم من عناصر الحياة الاجتماعية وهي مترابطة ترابطاً عضوياً وثيقاً مع العناصر الأخرى منها. وليس في مقدور أية أمة من الأمم أن تماشي الحضارة الحديثة في نظمها السياسية والاقتصادية والتقنية والاجتماعية بينما هي في لغتها تتبع طريقة التعقيد والتصعيب وتخضع لقواعد لا فائدة منها.

إننا حينما ننظر إلى ضخامة عدد الكتب والمعلمين وساعات الدروس التي تخصص لتعليم قواعد النحو في مدارسنا وكلياتنا، ثم نتصور النتيجة العملية من كل ذلك حيث يتخرج التلاميذ وهم قد نسوا معظم تلك القواعد أو تجاهلوها، ندرك مبلغ التبذير الذي تعانيه الأمة العربية في جهودها الفكرية جيلاً بعد جيل.

الشعر والحضارة

إني لا أكره الشعر[1] كما يزعم الخصوم. فإن في الشعر جانباً لا يستطيع الإنسان إلا أن يعجب به، وإني طالما استشهدت في كتاباتي بأبيات من الشعر العربي أعتبرها من الحكم الخالدة إذ هي تعطينا صوراً رائعة عن طبيعة الدنيا وطبيعة البشر.

ولكن هذا لا يمنعني من النظر في الجانب الآخر من الشعر، وهو الجانب الذي أشار إليه القرآن، كما أشار إليه الحديث النبوي الشريف. فالشعر هو كأي شيء في هذه الدنيا له محاسنه ومساوئه في آن واحد.

---

(١) عُرف عن الوردي أنه يكره الشعر، أو أنه لا يحبه على الأقل، ورأيته مرارا وهو يتضايق كثيراً في المجالس التي نحضرها ويتم فيها إلقاء القصائد ومناقشتها أو إطرائها. مع العلم أن الوردي بدأ حياته الثقافية شاعراً، حيث كتب مسرحية بعنوان (قيس وليلى) ضمنها الكثير من الشعر، وقد أداها على المسرح فنانون عراقيون منهم جعفر السعدي الذي أصبح من أهم الممثلين العراقيين فيما بعد، واشترك في أداء أحد الأدوار العلامة الدكتور حسين علي محفوظ حيث كان ضمن الأطفال الذين يرمون المجنون بالحجارة، كما مثل فيها الشاعر علي جليل الوردي دور ليلى – على ما أظن – لصعوبة إيجاد ممثلة تؤدي هذا الدور في ذلك الزمان.

وبهذا فإني أختلف مع أولئك الذين يلهجون بتمجيد الشعر دائما ويغضون النظر عما فيه من جانب سلبي.

وصف القرآن الشعراء بأنهم يهيمون في كل واد، وأنهم يقولون ما لا يفعلون، وهو يستثني من ذلك الشعراء المبدأيين الذين أيدوا الدعوة الإسلامية بشعرهم وكافحوا أعداءها[١]. ونحن الآن يجب أن نسير على هذا المنهج الذي انتهجه الإسلام تجاه الشعر، فنقدر الشعراء الذين يؤيدون الدعوات الصالحة كما نحتقر الشعراء الذاتيين الذين يجرون وراء العاطفة أو المصلحة الخاصة، ينظمون قصائدهم تبعاً لهما، فإذا مدحوا شخصاً صعدوا به إلى عنان السماء، وإذا ذموه نسبوا إليه كل المثالب.

كان الشعراء في عهد الجاهلية ينطبق عليهم وصف القرآن إذ هم كانوا كغيرهم من عامة الناس تسيطر عليهم العصبية القبلية، وكان البعض منهم يقصد الملوك والرؤساء الكبار ليلقي بين أيديهم قصائد المديح طمعاً بجوائزهم[٢].

---

(١) قال تعالى: ((وَالشّعَرَاءُ يَتّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ، أَلَمْ تَرَ أَنّهُمْ فِي كُلّ وَادٍ يَهِيمُونَ، وَأَنّهُمْ يَقُولُونَ مَا لاَ يَفْعَلُونَ، إِلاّ الّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصّالِحَاتِ وَذَكَرُواْ اللّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُواْ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ وَسَيَعْلَمْ الّذِينَ ظَلَمُوَاْ أَيّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ))، سورة الشعراء: ٢٢٤ – ٢٢٧.

(٢) يقول سلامة موسى في كتابه (مقالات ممنوعة)، ص٤١، مطبعة التقدم في القاهرة ما نصه: (ولكن في العراق كاتبا واقعيا يدعى علي الوردي. هذا الكاتب قد وضع مؤلفات أوضح فيها أن شعراء العرب في الجاهلية كانوا يمشون بالوقيعة بين قبيلة وقبيلة. وكانوا، سبباً، لهذا السبب، للقتال بين القبائل. يحرضون على الثأر والانتقام ولا يدعون إلى سلام. وقد ذمهم القرآن ووصفهم

وجاء الإسلام فقضى على هذه المهنة. ولهذا لم نرَ في عهد الرسول (ص) أو عهد الخلافة الراشدة شاعراً يمدح من أجل الجائزة أو تعصباً لقبيلته. ومن المؤسف أن نجد الشعر يعود إلى ديدنه القديم بعد الخلافة الراشدة.

يجب أن لا ننسى أن العلم الحديث قائم على أساس الموضوعية والمنهج الاستقرائي، كما يجب أن لا ننسى أن العلم الحديث هو من أهم ركائز الحضارة الحديثة ومن أهم أسباب التفوق فيها.

إن الحضارة الحديثة فيها عيوب كثيرة ولكنها مع ذلك محتومة علينا لا مفرَّ منها. فنحن إذ نعيش في هذا العصر يجب أن نسير في طريق هذه الحضارة شئنا أو أبينا.

من خصائص الشعر أنه عاطفي في الغالب، فهو – كما أشرت إليه آنفاً – إذا مدح شخصاً صعد به إلى عنان السماء فغالى في مناقبه ونسي مثالبه، وإذا ذم شخصاً فعل العكس من ذلك. وليس في مقدور أي شاعر أن ينظم قصيدة يذكر فيها الأمور كما هي في حقيقتها بما فيها من محاسن ومساوئ. وهذا يخالف منهج العلم والحضارة الحديثة كما لا

بالغواية. ثم كان شعراء العرب بعد ذلك، أي أيام الخلفاء متسولين، يبيعون أشعارهم في المديح والهجاء بالدينار والدرهم. يمدحون بلا سبب، ويقدحون بلا حق. أو كانوا، مثل ابن الرومي وأبي نؤاس، شعراء فاسقين.. كانوا، كما يقول الوردي، بلاء على المجتمع العربي. ولم يشذ منهم ويسمو عليهم سوى أبي العلاء المعري الذي كان ينبه الشعوب العربية إلى ضلال الحاكمين والمتدينين ومكرهم جميعاً لخطف اللقمة من أفواه الفقراء المساكين).

يخفى. فمن مستلزمات العلم الحديث أنه حين يدرس شيئاً يذكر محاسنه ومساوئه في آن واحد من غير تحيز على قدر المستطاع.

الواقع أننا لا يجوز أن نلوم الشاعر من حيث اندفاعه مع العاطفة. فتلك هي طبيعة البشر بوجه عام. فالإنسان حين يحب يغالي في محاسن المحبوب وينسى مساوئه، وهو يفعل العكس من ذلك حين يكره. ولكن الذي يجب أن ننتبه إليه هو أن هذه النزعة العاطفية لها مجالها المعين في الحياة الاجتماعية والحضارية ولا يجوز لها أن تتعدى هذا المجال وتدخل في مجال آخر. ففي ذلك ضرر بالمجتمع غير قليل.

الملاحظ في المجتمعات المتقدمة حضارياً أن الشعر قد تضاءل دوره فيها. ومن يتابع ما تصدره المطابع فيها من كتب ومجلات وصحف يجد نصيب الشعر فيها قليلاً جداً وهو في تضاؤل مستمر جيلاً بعد جيل.

إن الحضارة الحديثة لا تستطيع أن تقضي على الشعر أو تلغي دوره إلغاء تاماً. فالشعر يبقى له أصحابه المولعون به مهما تقدمت الحضارة. إنه فن من الفنون، والناس في حاجة إليه كمثل حاجتهم إلى الغناء والرقص والموسيقى والرسم والنحت. ولكننا مع ذلك يجب أن لا ننسى حدود المجال الذي ينبغي للشعر أن يلتزم به.

إننا حين نقارن مكانة الشعر في العراق في القرن الماضي إلى مكانته الآن نجد فرقاً كبيراً.

يحدثنا أحد المخضرمين الذين عاصروا الربع الأول من هذا القرن واطَّلعوا على بعض الماضي في وصف مكانة الشعر فيه، فيقول في مقالة له نشرها عام ١٩٦٨ ما نصه:

(فتحنا عيوننا قبل أربعين سنة والندوات الأدبية في بغداد والحلة والنجف وكربلاء، وفي أهم المراكز العراقية المعروفة تحفل بالشعراء وقصائدهم، وبالأدباء وأدبهم.. وكنا نخرج من حفل أدبي كي نتسابق إلى ندوة شعرية أخرى، نتبارى بالتقفية[١] والمطاردات الشعرية[٢] – كما كان يعبر عنها – ونتراهن فيما بيننا.. في جو مرح عامر، نعود منه بثروة شعرية.. تصور يا أخي القارئ ما كان يبعثه هذا الجو الأدبي العامر بالمسابقات والمراهنات في نفس الواحد منا من إثارة للغيرة واستنهاض للهمم والحميات، حيث يحشد كل طاقاته وإمكاناته ليلحق بأخيه وزميله وقريبه...).

يبدو من عبارات هذا الكاتب أنه يأسف على زوال تلك الأيام (الزاهرة) حسب رأيه. فهو يصف تلك الندوات بأنها تثير الغيرة في المشاركين فيها وتستنهض هممهم وحميتهم. ولكن هذا الرأي يقابله رأي آخر مضاد له هو أن ذلك الانهماك الشديد بالشعر لدى المتعلمين في تلك الأيام لا يخلو من جانب اجتماعي سيء.

---

(١) التقفية: نوع من المبارزة الأدبية يعمد فيها أحدهم إلى اختيار قصيدة يلقي مطلعها على مسامع الحاضرين ثم يقف في الأبيات التالية عند القافية ليحدد المتبارون الكلمة المناسبة للقافية.

(٢) المطاردة الشعرية: هي أن يقرأ أحدهم بيتاً من محفوظاته من الشعر فيقرأ الثاني بيتاً يبدأ بالحرف الأخير الذي انتهى به البيت الأول.. وهكذا.. ومن المتعارف عليه أن يجاز الفائز بهاتين المباراتين (التقفية والمطاردة).. وما زالت مجالس المباراتين تعقد في بغداد والنجف وعدد من المدن الأخرى، لا سيما في شهر رمضان.

إذا كان أكثر المتعلمين في المجتمع من هذا النمط الذي وصفه الكاتب فإننا لا نتوقع منهم أن يفهموا الدنيا على حقيقتها، إذ هم ينظرون إليها بمنظار الحماس والعاطفة. وهذا أمر إذا كان ملائماً للظروف الاجتماعية الماضية فإنه لا يلائم ظروفنا الحالية.

إن من يحضر مجالس المتعلمين في أيامنا يجدها من نمط آخر، فإن موضوع الشعر ليس له نصيب فيها إلا قليلا، أو هو لا نصيب له فيها إطلاقاً. فقد حلت محل الشعر مواضيع أخرى لها صلة بواقع حياتنا ومشاكلها.

وفي رأيي إن الذي يريد أن يعود بنا إلى الماضي في هذا الشأن إنما يريد إعادتنا إلى الوراء. فالتيار الحضاري قوي جارف، ومن لا يجاري هذا التيار سوف يسحقه التيار وتدوسه الأقدام!

انتهى

ملاحق الكتاب

الملحق رقم (١)

لحظات مع الدكتور الوردي[1]



(١) نص مقابلة نُشرت في مجلة (قرندل) في الصفحات ٢٦ – ٢٨، ولم نهتدِ إلى رقم العدد ولا تاريخه. و(قرندل) مجلة ساخرة أصدرها عام ١٩٤٧ الصحفي العراقي الرائد صادق الأزدي، وأغلقت بعد ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨، وهي تعد امتدادا لجريدة (حبزبوز) الساخرة التي كان قد أصدرها الصحفي العراقي الرائد نوري ثابت.

صورة الصفحة الأولى من المقابلة

لحظات مع الدكتور الوردي

بينما العراق كل ساعد يستعد هذه الأيام معركة الامتحانات الاكاديمية العامة .. التي مازالت تثير مقياسا لنجاح الافراد .. والامتحانات الاكاديمية ستبقى خلال هذا الشهر .. اما امتحانات « فرندل » لرجال الفكر والادب سوف لا تنتهي .. ان « فرندل » قررت ان تمتحن هاماتكم التي يحتويكم .. وممتحن فرندل لهذا الاسبوع هو الدكتور علي الــوردي .. الاستاذ الاجتماعي الصريح .. اننا نمتحنه من اجل الفائدة .. لا من اجل الامتحان ..

● لقد اتصلنا به هاتفيا وطلبنا منه تحديد الزمــان والمكان لنوجه اليه بعض الاسئلة [illegible] الدكتور ان يأتي هو [illegible] في الساعة السادســة مساء الى قاعة امتحان مجلــة فرندل ..

[illegible] والوردي هو الدكتور الذي [illegible] [illegible] بالتعليق [illegible] [illegible] ان الوردي [illegible] [illegible] وجل دون ان يلقي [illegible] جانبا ودون ان [illegible] [illegible] ولكيل [illegible] [illegible] ولايسكت عن قول الحق .. او ابــداء الراي [illegible] في الناس والحياة والكون ..

لقد ثارت [illegible] [illegible] الادباء والشعراء .. [illegible] [illegible] في البلد .. وقد وجه [illegible] [illegible] [illegible] ولكنه مازال يصول ويجول [illegible] ..

● قلنا له ـ وقولنا [illegible] ادبي من اجل الحقيقة ـ قال



.. فابتسم وقال ..

هناك الدكتور علي الزبيدي [illegible] [illegible] .. وقال عنك المصرفي ان ثمة ذراع تحت ابطك تقيس به حوادث التاريخ .. وقال عنك الدكتور محمد [illegible] ان ظهرانك من حقول الاجتماع الى ريف الادب ليست موفقة

قلنا له كل هذا وقد [illegible] الوردي [illegible] [illegible] [illegible] وقال :

ـ انا لا اقبل [illegible] [illegible] [illegible]

والكل واحد وجهة نظره في .. [illegible] يكونون [illegible] .. [illegible] .. انها وجهات نظر .. ولكل الحق في ابــداء [illegible] ..

[illegible] [illegible] الى [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .. هذا الادب [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في ان [illegible] في كل العلوم في [illegible] [illegible] [illegible] الادب من حيث هو ادب لا من [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .

[illegible] ملاحظة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] .. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] الى موضوع آخر [illegible] [illegible] .. [illegible] [illegible] [illegible] في تاريخ العلوم [illegible] .. [illegible] [illegible] في موضوع [illegible] [illegible] [illegible] في الموضوع [illegible] [illegible] تقليدي ولهذا [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] نواحي جديدة فيه [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] هؤلاء ان يعبروا [illegible] [illegible] او [illegible] [illegible]



المحرر يسأل .. والدكتور يتحدث بصراحة .

التي كانوا غافلين عنها ـ [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من [illegible] عنه .. [illegible] [illegible] ذلك ان [illegible] [illegible] ذاتها هل هي [illegible] [illegible] [illegible] في [illegible] قول [illegible] [illegible] حيث قال :

« انظر الى ما قيل ولا تنظر الى من قال » ..

واقول ان كل ما قالوه وكل ما وصفوني به [illegible] ليس الا وجهات نظر .. ولكل الحق في ابداء رأيه ..

لقد انشغلت [illegible] .. وان انشغالي في المجادلات [illegible] اخواني الادباء [illegible] [illegible] [illegible] عن انجاز اخر [illegible] العتوق [illegible] [illegible] الاحلام » .. وارجو من الاخوان ان يمهلوني بضعة اسابيع حتى انتهي من اخراج هذا الكتاب ولهم مني الشكر الجزيل ..

● وبعد قلنا للدكتــــور الوردي ان [illegible] [illegible] الفيلسوف الاجتماعي الشهير بأبحاثه الجنسية [illegible] [illegible] الى الزواج الانفصالي .. [illegible] لكل واحد من الزوجين ان يعيش منفردا .. [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] ولكل واحد [illegible] المختلفة وتصرفاته الخاصة وعلاقاته بالاخرين .. فما رايك بهذه [illegible]

وبعد [illegible] [illegible] قال :

ـ لا استطيع ان ابدي رأيا في موضوع الزواج الانفصالي لقلة علمي به .. ولكني مع ذلك استطيع القول بان النظام القديم صار في الآونة الاخيرة موضع هجمات وتجربات متنوعة من قبل كثير من الباحثين .. واقترح بعضهم علاجات شتى له منها .. [illegible] بمساوئ الزواج

فرندل ـ ٢٦

رأيه بالذين نعتوه بـ(قرقوش) وجدّال؟؟
ما الذي يقترحه الوردي لمشكلة البغاء؟
تعليل جديد لكرم العرب الحاتمي!
هل صحيح أنه من هواة ركوب الدراجات؟

معاهد العراق – كل معاهده – تخوض هذه الأيام معركة الامتحانات الأكاديمية الجامدة.. التي ما زالت تعتبر مقياساً لنجاح الأفراد.. والامتحانات الأكاديمية ستنتهي هذا الشهر[١].. أما امتحانات (قرندل) لرجال الفكر والأدب سوف لا[٢] تنتهي.. إن (قرندل) قررت أن تمتحن أساتذتكم الذين يمتحنونكم.. وممتَحَن قرندل لهذا الأسبوع هو الدكتور الوردي.. الأستاذ الاجتماعي الصريح.. إننا نمتحنه من أجل الفائدة.. لا من أجل الامتحان..

لقد اتصلنا به هاتفياً وطلبنا منه تحديد الزمان والمكان لنوجه إليه بعض الأسئلة ففضل الدكتور أن يأتي هو بنفسه في الساعة السادسة عصرا إلى قاعة امتحان مجلة (قرندل)..

---

(١) من سياق الكلام يتضح أن المقابلة نشرت في أيار أو حزيران، حيث تجرى الامتحانات الأكاديمية عادة في هذا الوقت من كل سنة. ولكننا نجهل السنة بالتحديد.

(٢) الصحيح أن يقول: فلن تنتهي.

والوردي هو الدكتور الثاني الذي تنزله (قرندل) عن برجه العاجي، باختياره.. إن الوردي إنسان مثقف اختلفت فيه الآراء عندما نزل إلى ميدان الاجتماع والأدب.. لقد صال وجال دون أن يلقي بسلاحه جانباً ودون أن يستسلم، ومن هنا نشأ تقدير جمهور المثقفين له.. ولكل إنسان لا يستسلم.. ولا يسكت عن قول الحق.. أو إبداء الرأي الخالص في الناس والحياة والكون.. لقد ثارت عليه – وما زالت – ثائرة الأدباء والشعراء.. وقادة الفكر في البلد.. ولقد رجمه من رجمه وصفق له من صفق ولكنه ما يزال يصول ويجول بأدب ومقدرة[١]..

قلنا له – وقولنا نفاق أدبي من أجل الحقيقة –:

قال عنك الدكتور علي الزبيدي[٢] إنك قرقوش[٣].. وقال عنك

---

(١) بقي الوردي مثيراً للجدل.. وبقي يصول ويجول في ميادين الفكر والاجتماع والتاريخ والأدب واللغة إلى آخر أيام حياته.

(٢) مؤلف وباحث عراقي، كتب في الأدب العباسي عام ١٩٦٧ متوسماً طريقة طه حسين في الشك ببعض ما وصل إلينا، كما اهتم بإثبات وجود النشاط المسرحي في العراق معتمدا على بعض الروايات الشفهية لإثبات هذا السبق، فقد تقصى مظاهر العمل المسرحي في (خيال الظل) أو (القرقوز).

(٣) أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدي الملقب بهاء الدين (تـ ٥٩٧هـ) كان خادم صلاح الدين الأيوبي وقيل خادم أسد الدين شيركوه، عم صلاح الدين، فأعتقه. ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر، ثم ناب عنه مدة بالديار المصرية، وفوّض أمورها إليه، واعتمد في تدبير أحوالها عليه. وكان رجلاً مسعودًا، حسن المقاصد، جميل النية، وصاحب همة عالية، فآثاره تدل على ذلك، فهو الذي بنى السور المحيط بالقاهرة، ومصر وما بينهما، وبنى قلعة الجبل، وبنى القناطر التي بالجيزة على طريق الأهرام، وعمر بالمقس رباطا، وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان سبيل. ولما أخذ صلاح الدين مدينة عكا

الصراف[1] إن ثمة ذراعاً تحت إبطك تقيس به حوادث التاريخ.. وقال عنك الدكتور محمد البصير[2] إن طفراتك من حقول الاجتماع إلى رياض

من الفرنج سلمها إليه، ثم لما عادوا واستولوا عليها وقع أسيراً في أيديهم، وافتك نفسه منهم بعشرة آلاف دينار في سنة (٥٨٨هـ). والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة في ولايته، حتى إن للأسعد بن مماتي جزءً سماه (الفاشوش في أحكام قراقوش)، وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، والظاهر أنها موضوعة، حيث إن صلاح الدين كان معتمدا عليه في أحوال المملكة، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه، وتوفي بالقاهرة سنة (٥٩٧هـ)، و(قرقوش) لفظ تركي معناه بالعربي العُقاب، الطائر المعروف.

(١) هو حامد محمود الصراف مؤلف وكاتب له كتاب مهم عن الشبك، وقد عمل في مجال القضاء، وكان اسمه يتردد كثيراً على لسان المرحوم الوردي.

(٢) شاعر فحل وخطيب مفوه وسياسي بارع ومناضل جريء، لقب بالبصير من باب تسمية الشيء بضده، ولد في محلة الطاق في مدينة الحلة سنة ١٨٩٥، ولما يبلغ الخامسة من عمره حتى انطفأت عيناه بسبب مرض الجدري، فكف بصره. حفظ القرآن الكريم في صغره، وفي السابعة عشرة من عمره مارس الخطابة الدينية مع والده، واتصل بالشعراء والأدباء وأخذ عنهم الكثير وحفظ الشعر الجزيل، فكان هذا له الأثر الكبير في بناء شخصيته، مما جعله ذا شأن في الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية والأدبية، فغادر الحلة إلى بغداد إرضاءً لطموحه في التوجه نحو السياسة والأدب والشعر خلال الحرب العالمية الأولى، فنظم القصائد الشعرية في تأييد الثورة العربية في الحجاز، فأصبح من دعاة الاستقلال الوطني للعراق، فانضم إلى جمعية حرس الاستقلال عام ١٩١٩، كما كان له دور بارز ومهم في ثورة العراق الكبرى عام ١٩٢٠، حيث سعى إلى التحضير لها وحث الناس على الثورة ضد قوات الاحتلال البريطاني بقصائده السياسية والوطنية فألقي القبض عليه عام ١٩٢١ وسجن لمدة تسعة أشهر، وفي عام ١٩٢٣ نفي إلى جزيرة (هنجام) في الخليج العربي، وبعد عودته من منفاه

الأدب ليست موفقة.

قلنا له كل هذا، وقد سمعه الوردي من قبل.. فابتسم وقال:

- أنا لا أقل[1] فيهم شيئاً ولكل واحد وجهة نظره فيَّ.. (خَلْهُم يگولون خَلْهُم)[2].. دعهم.. إنها وجهات نظر.. ولكل الحق في إبداء رأيه..

ولقد سبق أن قلت إن في الأدب ناحية اجتماعية.. وهذه الناحية هي التي أعني بدرسها.. أما الأدب المحض فإني أعترف بالعجز فيه، وللأدباء الحق في أن يلوموني كل اللوم في حالة إصراري التدخل في الأدب من حيث هو أدب لا من حيث هو صورة من صور المجتمع البشري..

وهناك ملاحظة أود أن ألفت أنظار القارئ إليها.. هي أن خروج أولي الاختصاص عن موضوع اختصاصهم إلى موضوع آخر قد يفيد

انصرف إلى تأليف كتابه (تاريخ القضية العراقية) وهو مصدر تاريخي لأنه عاش أحداثها وشارك في صنعها وعرف أسرارها، وفي عام ١٩٣٠ أوفد إلى مصر في بعثة الأوقاف لمواصلة الدرس والتحصيل، فدرس اللغة الفرنسية فيها، ثم غادر مصر إلى فرنسا ونال درجة الدكتوراه عام ١٩٣٧ في جامعة (مونيليه) عاد إلى الوطن عام ١٩٣٨، فعمل مدرساً للأدب العربي في دار المعلمين العالية، واستمر في التدريس حتى أحيل على التقاعد عام ١٩٥٩، من أهم مؤلفاته (نهضة العراق الأدبية في القرن التاسع عشر)، (البركان)، (ديوان شعر)، (عصر القرآن) توفي عام ١٩٧٤ ودفن جثمانه في النجف.

(١) الصحيح أن يقال: (أنا لا أقول)، وربما هو خطأ مطبعي.

(٢) مقطع من أغنية عراقية معروفة. وقد كان الوردي يستمع إلى الأغاني ويهتم خصوصا بالمقام العراقي.

أحياناً.. وقد حدث مثل هذا كثيراً في تاريخ العلوم المختلفة.. حيث أن المختصين في موضوع معين قد ينهمكون في الموضوع ضمن إطار تقليدي ولهذا يصعب عليهم أن يكتشفوا بعض نواحي جديدة فيه. ومن هنا تأتي فكرة غير الاختصاصيين حيث يستطيع هؤلاء أن يلفتوا أنظار المختصين إلى بعض النقاط التي كانوا غافلين عنها. ثم أحب أن أقول بأن من الضار – أحياناً – أن نشغل أنفسنا في الجدل حول ما ينبغي على المختصين أو غير المختصين عمله.. والجدير بنا بدلاً عن ذلك أن نبحث في الأفكار ذاتها هل هي صحيحة أو غير صحيحة؟ ويعجبني في هذا الصدد قول أحد الحكماء القدماء حيث قال: (انظر إلى ما قيل ولا تنظر إلى من قال)..

وأقول إن كل ما قالوه فيَّ وكل ما نعتوني به هو ليس إلا وجهات نظر.. ولكل الحق في إبداء رأيه..

لقد أشغلوني.. وإن انشغالي في المجادلات مع إخواني الأدباء – سامحهم الله – أشغلني عن إنجاز آخر كتبي المعنون بـ(لغز الأحلام)[١].. وأرجو من الإخوان أن يمهلوني بضعة أسابيع حتى أنتهي من إخراج هذا الكتاب ولهم مني الشكر الجزيل..

- وبعد قلنا للدكتور الوردي إن هافلوك أرسن الفيلسوف الاجتماعي الشهير بأبحاثه الجنسية قد دعا إلى الزواج الانفصالي.. أي أن لكل واحد من الزوجين أن يعيش منفرداً.. فلا اجتماع لهما إلا بعد موعد يحددانه كالعشاق.. ولكل واحد شخصيته المستقلة وتصرفاته

---

(١) يبدو أن الوردي بعد أن أنجز الكتاب غيَّر العنوان فصدر الكتاب بعنوان (الأحلام بين العلم والعقيدة).

الخاصة وعلاقاته بالأفراد.. فما رأيك بهذه الدعوة؟

وبعد تردد طويل.. قال:

- لا أستطيع أن أبدي رأياً في موضوع الزواج الانفصالي لقلة علمي به.. ولكني مع ذلك أستطيع القول بأن النظام القديم صار في الآونة الأخيرة موضع نقدات وهجمات متنوعة من قبل كثير من الباحثين.. واقترح بعضهم علاجات شتى لما أسموه بمساوئ الزواج القديم.. ومن الممكن اعتبار رأي هافلوك أرسن نوعاً من هذه الاقتراحات.

ولي أن أقول بأن الزواج القديم قد اعتاد عليه المجتمع البشري، وهو يلائم الظروف التي كان البشر يعيشون فيها في الأزمنة القديمة، حيث كان الرجل يسعى وراء الرزق وتبقى المرأة في البيت ترعى شؤون البيت والأطفال[1]..

أما اليوم فقد بدأت المرأة تسعى وراء الرزق كالرجل وأصبح الغسيل والطبخ في كثير من الأحيان تقوم به مؤسسات وشركات خارج البيت[2] وبهذا تمكنت المرأة من أن تترك بيتها في سبيل العمل دون أن تجد في ذلك مشقة أو ضيراً.. وإن الحضارة الجديدة بعبارة أخرى تكاد تذهب.. بوظيفة المرأة في البيت.. وقد تشكّى بعض الباحثين

---

(١) لا يخفي الوردي تذمره من الزواج القديم، رغم أن رأيه هذا كان يعد في ذلك الزمان نوعاً من أنواع الكفر!

(٢) واضح أن الوردي لا يقصد المجتمعات الشرقية بهذا الكلام، ولكنه يتحدث عن المجتمعات الغربية التي قضى فترة دراسته فيها، أو ربما كان بهذا القول يستشرف مستقبل المجتمعات الشرقية، التي لم تعمّ فيها هذه الظاهرة بعد.

الاجتماعيين.. من هذه الظاهرة.. وعدوها إيذاناً بتفسخ الحضارة، ومهما يكن الحال فإنها ظاهرة قوية المأمول فيها أن تسود العالم عاجلاً أو آجلاً.. ومن هنا جاز لنا القول بأن الزواج الانفصالي الذي دعا له هافلوك ألسن قد يجد له مجالاً للانتشار بين فئة كبيرة من الناس في المستقبل.. إذ يتفق الرجل العامل والمرأة العاملة أن يعيش كل منهما على حدة ثم يلتقيان في موعد بينهما كما يلتقي العشاق.

- ثم سألناه عما إذا كان وما يزال كأحد أفراد الزيدية[١]؟

فأجاب بعد ضحكة عريضة:

- الحقيقة التي لا أتردد عن إعلاني لها هي أنني ما زلت أعتبر عقيدة زيد بن علي[٢] هي العقيدة الوسطى في الإسلام، وإذا صحَّ

---

(١) الزيدية إحدى فرق الشيعة، ترجع نسبتها إلى مؤسسها زيد بن علي زين العابدين الذي صاغ نظرية شيعية في السياسة والحكم، وقد جاهد من أجلها وقتل في سبيلها، وكان يرى صحة إمامة أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم جميعاً، ولم يقل بتكفير أحد من الصحابة ومن مذهبه جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل.

(٢) زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي رضي الله عنهما (٨٠ – ١٢٢هـ/٦٩٨ – ٧٤٠م)، قاد ثورة شيعية في العراق ضد الأمويين أيام هشام بن عبد الملك وكان معه ٥٠٠ فارس فقط فأصيب بسهم في جبهته أدى إلى وفاته عام ١٢٢هـ، وبقيت جثته معلقة في كناسة الكوفة (الكناسة: مكان جمع النفايات والأزبال) مدة طويلة ثم أنزلت وأحرقت وذري رمادها في الهواء. كان متصلاً بواصل بن عطاء رأس المعتزلة حيث تدارس معه العلوم، فتأثر به وبأفكاره التي نقل بعضها إلى الفكر الزيدي، وإن كان هناك من ينكر وقوع هذا

ما قيل من أن خير الأمور أوسطها فإن مذهب زيد بن علي هو خير المذاهب(١).

ولا يعني هذا أني وافقت على ما عليه الفرقة الزيدية في الوقت الحاضر فلقد حادت هذه الفرقة عن مذهب إمامها بمرور الزمن كما حادت جميع الملل والنِّحَل عن مبادئ مؤسسيها الأولين.

- ألا ترى أنك بدأت تقيس الأمور على طريقة المنطق القديم التي ناهضتها في كتبك السابقة؟

- يعني لأنه قلت إن خير الأمور الوسط؟

- نعم..

- ها.. هـ.. دقيقة..

وبعد أن يضع السيكارة السادسة ويأتي عليها(٢) يقول:

- أود أن أقول بأن مبدأ خير الأمور أوسطها ليس من المبادئ التي احتكرها المنطق القديم فهو لا يزال صحيحاً حتى يومنا هذا، وهو

التتلمذ، وهناك من يؤكد وقوع الاتصال دون التأثر. يُنسب إليه كتاب المجموع في الحديث، وكتاب المجموع في الفقه، وهما كتاب واحد اسمه المجموع الكبير، رواهما عنه تلميذه أبو خالد عمرو بن خالد الواسطي الهاشمي الذي مات في الربع الثالث من القرن الثاني للهجرة.

(١) ظل المرحوم الوردي إلى آخر أيام حياته مؤمناً بأن الزيدية هي المذهب الوسط بين المذاهب، وهي لذلك خيرها. وهناك من يقول إن نسبه يرجع إلى زيد بن علي.

(٢) كان الوردي يدخن ثلاث علب من السيكاير يومياً كما أخبرني، وإنه لم يترك التدخين إلا بعد بلوغه الخمسين من عمره.

ما يعرف اليوم بالاعتدال، وقد ثبت علمياً بأن الزائد في الأمور كالناقص، إذ لكل شيء حده الملائم له.. فإذا زاد عن حده وإذا نقص عنه أضر كذلك..

- وبعد أن أولعنا له السيكارة السابعة قلنا له: مصطفى جواد[1] من رواد السينما المزمنين ومن المولعين بالأفلام الاستعراضية.. والصراف[2] من المولعين بالدروشة والغناء.. والمسموع أنكم مولعين[3] بركوب الدراجات الهوائية[4].. فهل هذا صحيح؟ وما هي هوايتك؟؟

وهنا يقول الدكتور مع ابتسامة:

- والله ياب ناسي ما أدري شنو ولعي او هوايتي[5] لكن الحقيقة إن ما قيل عن تولعي بركوب الدراجات لا أساس له من الصحة، أما هوايتي إذا أردت فهي الذهاب إلى السينما مع أولادي لمشاهدة الأفلام التي أستطيع أن أشترك بالتمتع فيها مع الأولاد. وقد أجد صعوبة في اختيار الفيلم الذي نستطيع التمتع به جميعا.. مع هذا

---

(١) مرت ترجمته سابقاً.

(٢) مرت ترجمته سابقاً.

(٣) الصحيح أن يقول: مولعون.

(٤) في العدد نفسه وضمن هذه المقابلة رسم رسام الكاريكاتير الشهير (غازي) صورة كاريكاتورية للوردي وهو يمتطي دراجة سباق هوائية وجعل رقم الوردي (١٣) في إشارة منه إلى تشاؤم الغربيين من هذا الرقم!

(٥) العبارة كلها بالعامية البغدادية، و(ياب) تعني: (يا أبي) تقال تحبباً.

فنحن لا نمل الأفلام الهزلية.. كأفلام لوريل وهاردي المعروفة في الأوساط العراقية بـــ(السمين والضعيف)[1].

وثمة هواية أخرى هي مطالعتي لكتب الملالي التي تستوعب جدلهم الفارغ حول العقائد..

- وهنا يكاد الدكتور يمثل أولئك الملالي بيده ولسانه، فيؤشر ويقول ضاحكاً:

- (تصور سخيف[2] يرد على سخيف ويتعصب إلى رأيه.. تصور اثنين فارغين).. إنني ألتذ بمثل هذه الكتب وقد يخيل لي أني أشاهد أحد أفلام لوريل وهاردي الهزلية.

- وعند انتهاء الدكتور من إشعال سيكارته الثامنة سألته عن قيمة شخصية الفرد العراقي إذا ما قورنت بقيم الأفراد في البلدان العربية والإسلامية المجاورة.. فأجاب:

---

(١) كان الوردي مهتماً أشد الاهتمام بأبنائه وتربيتهم وثقافتهم، وذكر لي ولده الأكبر الدكتور حسان أن والده أرسل لهم من أمريكا أسطوانة فونوغراف سجل عليها الوردي بصوته رسالة إلى أولاده ملأها بالنصائح ومن بينها نصيحته لهم أن يتركوا عادة التبرز في الطرقات، وغيرها من النصائح التي تدعو إلى ترك العادات السيئة في المجتمع العراقي آنذاك. وقد قال لي الدكتور حسان: أن العادة أن يرسل المغتربون أسطوانات من هذا القبيل يسجلون فيها رسائل الشوق والمحبة إلى أهلهم ولكننا مع ذلك ضحكنا لسماع الأسطوانة. وعبر عن أسفه لأنه فقد تلك الاسطوانة مؤخراً من دون أن يدرك أهميتها التاريخية.

(٢) بالعامية العراقية، ولو كانت بالفصحى لوجب أن يقول: تصور سخيفا...، وقد بقي الوردي يسخر بشدة من هؤلاء الذين يسميهم الملالي طوال حياته.

- الذي أميل إليه أن المجتمع العراقي يختلف كثيراً عن المجتمعات الأخرى بصفة خاصة به.. وهذه الصفة أتت من كون العراق قد وقع من قديم الزمان تحت وطأة البداوة والحضارة بدرجة متواسقة.. فهو واقع على حدود الصحراء من ناحية، ومن الناحية الثانية أن العراق ذو حضارة عريقة[١]. فمثلا نرى أن البداوة غالبة على مجتمع نجد وأن الحضارة غالبة على مجتمع إيران، ولكن العراق واقع في الوسط فهو يستمد من حضارته القديمة وثروته الزراعية جذوراً حضارية، ولكن في الناحية الأخرى يستلهم من البداوة كثيرا من قيمها وأخلاقها.. وفي نظري أن هذه من مشاكل العراق الكبرى، حيث أصبح الفرد العراقي – كما قلت في مناسبة سابقة – مزدوج الشخصية، تارة حضرياً وتارة بدويا.

• ثم طلبنا منه رأيه في وجودية جون بول سارتر[٢]..! فقال بعد تفكير ليس بالقصير:

---

(١) لا يبرئ الوردي المجتمعات العربية والإسلامية المجاورة للعراق من هذا الأمر، ولكنه يؤكد دائما شدة تأثير صراع البداوة والحضارة في المجتمع العراقي نسبة إلى غيره من المجتمعات.

(٢) جان بول شارل ايمارد سارتر (١٩٠٥ – ١٩٨٠م) هو فيلسوف وروائي ومؤلف مسرحي. بدأ حياته العملية أستاذاً. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. حين احتلت ألمانيا النازية فرنسا، انخرط سارتر في صفوف المقاومة الفرنسية السرية. وبعد الحرب أصبح رائد مجموعة من المثقفين في فرنسا. وقد أثرت فلسفته الوجودية، التي نالت شعبية واسعة، على معظم أدباء تلك الفترة. منح جائزة نوبل للآداب عام ١٩٦٤ ولكنه رفض الجائزة.

- والله فكرتي عن الوجودية غامضة.. إذ لم أتعمق في بحثي عن الوجودية، ولا أستطيع أن أفرق بين وجودية سارتر أو غيره[١]. إنما الوجودية ليست علمية ولا تلائم النظريات الحديثة التي جاء بها علم النفس والاجتماع والأنثروبيولوجي[٢] فالوجودية مثلا تقول: بأن الطبيعة البشرية تقوم على أساس الحرية المطلقة. ولكن علم النفس الاجتماعي أثبت أن الشخصية البشرية قائمة على أساس التفاعل بين الطبيعة الموروثة في الإنسان والقواعد الموجودة في محيطها[٣]، وهذه القواعد كما لا يخفى ليست سوى قيود على الحرية، كما يفهمها الوجوديون.. فالطفل الذي ينشأ على الحرية حيث يتركه أبواه يعمل ما يشاء فإنه ينمو بلا شخصية ولا عقل كالحيوان. ومعنى هذا إن شخصية الإنسان لا تنمو إلا إذا كانت هناك موانع اجتماعية وقواعد تضبط سلوكه وبنتيجة التفاعل بين الضوابط وبين نزعته الطبيعية تنمو شخصيته وينضج عقله. أما عن سارتر والفرق بينه وبين غيره من الوجوديين فلا أعتقد أني قادر على الحكم في مثل هذا

---

(١) كان الوردي صريحاً فلا يدعي ما لا يعرف. وربما استعمل مثل هذا الرد في بعض الأحيان تواضعاً.

(٢) هو علم الإنسان.

(٣) أخبرني المرحوم الوردي مرة أنه وضع لمذكراته المختفية عنوانا هو (ريشة في مهب الريح)، إشارة إلى هذه الحقيقة التي يؤمن بها، وهي أن الإنسان لا يد له في تكوين شخصيته وأن الطبيعة البشرية قائمة على أساس التفاعل بين الطبيعة الموروثة في الإنسان والقواعد الموجودة في محيطها.

الموضوع لأني قليل الاطلاع في أمر الفرق بين زعماء الوجودية.

- وتنتهي مع انتهاء جوابه عن الوجودية سيكارته العاشرة.. التي يعقبها بأخرى!
- قلت له: لم يبق عندي غير سؤالين وأخشى أن تكون قد تعبت؟ فقال:

- لا.. لا.. اسألْ.. والله شيء ممتع..

- قلت له: بماذا تعلل الكرم؟.. وكرم العرب بالذات؟ فأجاب:

- الكرم أو الكرم العربي منشئه[1] البداوة، فالبدوي يعد الكرم من لوازم الشجاعة، ذلك لأن البدوي قد اعتاد أن يحصل على رزقه بحد سيفه وقوة ذراعه، فلا مجال في البداوة للبراعة المهنية في سبيل الحصول على الرزق.. والبدوي بصورة عامة يحتقر كل ذي مهنة[2].. ولا يخفى أن صاحب المهنة بوجه عام يميل إلى

---

(١) الصحيح أن يقول: منشؤه، ولكن الوردي يستسهل كتابة الهمزة، فيكتبها كما يريد، ولا أدري هل هذا خطأ مطبعي أم أن المحرر تقصده ليجاري الوردي.

(٢) يقول علاء الدين الأعرجي في مقال نشره على صفحات الإنترنيت في هذا الصدد: روى لي أستاذي السابق في علم الاجتماع الدكتور علي الوردي، حادثاً طريفاً يعبِّر على ذلك. فقد شتمَ أحد أمراء المملكة العربيّة السعوديّة أحدهم بقوله: (يا ابن الصانع). وسمعتْ زوجته بذلك، فعادت إلى أهلها قائلة: إنني لا أستطيع أن أعاشرَ أحداً من أبناء الصناع، وأنا من أبناء العشائر. ونلاحظ أنَّ اليدَ العاملة الأجنبية أصبحتْ تشكل نسبة كبيرة جدا من السكان في الخليج، تفوق عدد السكان الأصليين أحيانا. وإلى وقت قريب، كانت لا تزال أصناف من المهن محتَقَرة لدى بعض المجتمعات في العالم العربي، مثل مهن الحائك والحلاّق

الاقتصاد لاحتياط الغد.. أما صاحب السيف فهو يعتبر الاقتصاد من صفات الجبناء، ولهذا انتشر بين البدو المثل القائل: (اصرف ما في اليد يأتيك ما في الغد)[1]. إن البدوي يعتبر البخيل مخنثاً ولو كان شجاعاً واثقاً من قوته.. لما صار بخيلاً، وبعدُ إن كل من يعتمد على قوة ساعده في الحصول على الرزق يكون ميالاً إلى الإسراف. ولا يكون اقتصادياً إلا من يعيش في بيئة حضرية تعتمد على الصناعة والتجارة في الرزق[2].

- أما آخر ما طلبنا من الدكتور فهو مقترحاته لحل مشكلة البغاء، وسألناه عما إذا كان فتح مصرف يعين القادمين على الزواج مجد[3] أم لا؟ فقال:

- في رأيي، الحكومة قد أخطأت خطئاً[4] فظيعاً في سياستها اتجاه البغاء، فالبغاء لا يمكن أن يقضى عليه ولا تخلو أمة من الأمم من البغاء. ويجب على الحكومة أن تعترف بخطئها وأن تكيف

والمُعلم. وكلمة (المهنة) نفسها مشتقة من فِعل (مَهُنَ) أي: حَقُرَ وضعُفَ. ويحلل الهادي شقرون، في كتابه (نقد العقلية العربية) آثارَ ومضار هذه الظاهرة ويستذكر شواهدَها الكثيرة التي ما برحت ماثلة وعاملة حتى يومنا هذا. انتهى كلام الأعرجي.

(١) يروى هذا المثل بلفظ آخر هو: اصرف ما في الجيب يأتيك ما في الغيب.

(٢) لم تزل المجتمعات البدوية إلى وقتنا الحالي تحتقر أصحاب المهن بل وحتى المزارعين ممن يكسبون رزقهم بالاعتماد على مهاراتهم المهنية.

(٣) الصحيح: مجدياً.

(٤) الصحيح: خطأً.

سياستها. والظاهر أن الحكومة ستحاول أن تقضي على البغاء قضاء نهائياً هذه الأيام، وهذا أمر لا ينتهي عند حد لأن البغاء لا يمكن القضاء عليه. لقد كان من اللازم أول الأمر أن لا تسد الحكومة المبغى العام(١)، إنما تحوله إلى مكان بعيد منعزل(٢) ثم تبدأ في النظر في المشاكل التي تنتج عن البغاء كقضية استغلال الساذجات من الفتيات وربطهن بسندات والنظر إلى قتل المرأة(٣) وما شابه. ولو فعلت الحكومة ذلك لتخلصنا من كثير من الشرور التي نعانيها اليوم نتيجة لإلغاء البغاء(٤).

---

(١) أغلقت حكومة محمد فاضل الجمالي المبغى العام في عام ١٩٥٧.

(٢) أثبت الزمن صواب رأي الوردي، فقد أدى قرار إغلاق المبغى العام إلى انتشار المباغي الصغيرة في المحلات البغدادية نتيجة انتشار البغايا هنا وهناك.

(٣) يقصد جرائم غسل العار.

(٤) ظل المرحوم الوردي مهتماً بموضوع البغاء إلى آخر أيام حياته، ومن طريف ما أذكر أنه ألقى محاضرة في نادٍ مسيحي في بغداد حضره جمهور حاشد كان من بينهم المرحوم الشيخ جلال الحنفي الذي اصطحب معه ثلة من رجال الدين، وبدأ الوردي بالحديث عن مشكلة البغاء فقال: (إن البغي لا إرادة لها في اختيار هذه المهنة، وأعرفُ أحد أثرياء بغداد كان يذهب إلى المبغى العام ملثماً ويدور على بيوت البغايا ويعطي كل واحدة منهن مبلغا من المال كي لا تضطر إلى ممارسة البغاء، وأعرف رجال دين عاشوا في المبغى العام وألفوا كتباً عن البغايا والبغاء... لماذا نذهب بعيداً؟ الشيخ الحنفي (مشيرا إليه) واحد منهم! هل تسمح لي يا شيخ أن أذكر هذا؟) فقال له الحنفي: وماذا أبقيت يا وردي؟

وإلى هنا ودعنا الدكتور شاكرين فضله بعد أن أمضى معنــا ســاعتين ونصف أتى فيها على علبة سجائر كاملة..

خليل الشيخ علي[1]

مجلة قرندل

(١) صحفي عراقي مهتم بالتراث والفولكلور العراقي، عمل في مجلــة قرنــدل مــع الصحفي الرائد صادق الأزدي.

الملحق رقم (٢)

خبر ساخر

الوردي يشكو حظه الى رئيس جامعة بغداد

وصلتنا من الدكتور علي الوردي رسالة موجهة الى

رئيس جامعة بغداد ننشرها فيما يلي بنصها :

سيدي رئيس الجامعة

اني قد أُحلت على التقاعد من الجامعة بناءً على طلبي

في عام ١٩٧٠ ، وقد منحتني الجامعة في حينه لقب

«استاذ متمرس» كما وصلني من رئيس الجامعة كتاب

سجّل فيه تقديره وتقدير الجامعة لي بعبارات ما زلت

أعتز بها . ولكني في السنوات الأخيرة علمت ان
بعض المسئولين في الجامعة وغيرها لا يرضون عن
منحي هذا اللقب ، أو هم ينكرون وجوده . وقد صارحني
أحدهم ذات مرة بأني متقاعد فقط لا غير ، وقد
كانت لي منضدة خاصة بي في قسم الاجتماع من كلية الآداب
ثم رفعت أخيراً بحجة أنهم محتاجون اليها في مكان آخر .
أضف الى ذلك اني لم أدع الى اية ندوة أو اجتماع
يُدعى اليه غيري من الاساتذة المتمرسين - مع الأسف
الشديد !

سيدي رئيس الجامعة

اني لا يهمني أن اكون استاذاً متمرساً أو متقاعداً ، فهما سيّان في نظر من هو مثلي يعيش في أيامه الأخيرة .

ولكن الذي يهمني هو أن أعرف الحقيقة في هذا الصدد .

فاني قد كتبت على غلاف كتبي التي صدرت بعد عام ١٩٧٠ باني استاذ متمرس ، وربما صدرت لي كتب أخرى في أواخر أيامي . فالرجاء منك تبيان الحقيقة لي لكي أعلن ذلك للقراء فلا يبقون مخدوعين بي .

والله الساتر على كل حال .

علي الوردي

١٤/٩/١٩٨٩

أعطاني الدكتور الوردي في ١٥ أيلول ١٩٨٩ خبراً صاغه بنفسه، طالباً مني نشره في إحدى الصحف العراقية، ولطرافة الخبر وطرافة صياغته أنشره هنا مع صورة الأوراق التي كتبها الوردي بخط يده. وهذا نصه:

الوردي يشكو حظه إلى رئيس جامعة بغداد[١]

وصلتنا من الدكتور علي الوردي رسالة موجهة رئيس جامعة بغداد ننشرها فيما يلي بنصها:

سيدي رئيس الجامعة

إني قد أحلت على التقاعد من الجامعة بناءاً على طلبي في عام ١٩٧٠، وقد منحتني الجامعة في حينه لقب (أستاذ متمرس) كما وصلني من رئيس الجامعة كتاب سجل فيه تقديره وتقدير الجامعة لي بعبارات ما زلت أعتز بها. ولكني في السنوات الأخيرة علمت أن بعض المسؤولين في الجامعة وغيرها[٢] لا يرضون عن منحي هذا اللقب، أو هم ينكرون وجوده. وقد صارحني أحدهم ذات مرة بأني متقاعد فقط لا غير. وقد كانت لي منضدة[٣] خاصة بي في قسم الاجتماع من كلية الآداب ثم رُفعت

---

(١) كان حينها الأستاذ الدكتور طه تايه النعيمي يشغل منصب رئيس جامعة بغداد، والرسالة موجهة إليه.

(٢) من الواضح هنا أن الوردي يغمز جهات حكومية ومسؤولين أرفع مستوى من مستوى رئيس جامعة بغداد.

(٣) من ضمن امتيازات درجة (الأستاذ المتمرس) في الجامعة أن لا تُرفع منضدته من القسم الذي كان يدرس فيه ولا يشغلها أحد بعد تقاعده فهي متروكة له يستطيع أن يستخدمها متى أراد كنوع من التكريم والتقدير لخدماته العلمية.

أخيراً بحجة أنهم محتاجون إليها في مكان آخر. أضف إلى ذلك أني لم أدعَ إلى أية ندوة أو اجتماع يدعى إليه غيري من الأساتذة المتمرسين – مع الأسف الشديد![1]

سيدي رئيس الجامعة

إني لا يهمني أن أكون أستاذا متمرساً أو متقاعداً، فهما سيان في نظر من هو مثلي يعيش في أيامه الأخيرة. ولكن الذي يهمني هو أن أعرف الحقيقة في هذا الصدد. فإني قد كتبت على غلاف كتبي التي صدرت بعد عام ١٩٧٠ بأني أستاذ متمرس، وربما صدرت لي كتب أخرى في أواخر أيامي. فالرجاء منك تبيان الحقيقة لي لكي أعلن ذلك للقراء فلا يبقون مخدوعين بي.

والله الساتر على كل حال

علي الوردي

١٩٨٩/٩/١٤

(١) عانى الدكتور الوردي في أواخر حياته كثيرا من هذه المضايقات التي كان يوحي القائمون بها أنها وردت إليهم بتعليمات من الجهات العليا في البلد، والحقيقة أنهم كانوا يفعلون ذلك خوفاً من عدم رضا تلك الجهات عما يقومون به إذا ما قورنوا بمكانة الوردي وعلميته، وقد ساعدهم في ذلك أن نظرة المسؤولين في الدولة آنذاك للوردي كانت ضبابية.

الملحق رقم (٣)



حـــــوار[١]

العلامـة الاجتمـاعي العراقـي علـي الــوردي ينــاقش آراء مفكرين أردنيين

ازدواج الشخـصية لا شـعوري في الإنسان.. والمجتـمعـات البدائيـة خالية من الازدواج

بغداد – مكتب الأفق

(١) نص الحوار الذي أجريتُه مع الدكتور الوردي ونشرته مجلة الأفق الأردنية التي كنتُ مراسلاً لها في بغداد في الصفحتين ٤٦ – ٤٧ من عددها المرقم ٢٥ الصادر في الأربعاء ١٠ آذار ١٩٩٣، وكان يرأس تحريرها آنذاك الصحفي المعروف طارق مصاروة.

نشرت الأفق في عددها الصادر في ١٩٩٢/٦/٢٤ تحقيقاً شارك فيه بعض مفكري الأردن في موضوع ازدواجية الشخصية العربية. وكان لهذا التحقيق صداه في العراق، وقد أجرى مراسل المجلة في بغداد حواراً مع الباحث الاجتماعي العراقي المعروف العلامة الدكتور علي الوردي حول هذا الموضوع.

المعروف أن الدكتور الوردي كان أول من بحث في موضوع ازدواج الشخصية في اللغة العربية، وذلك عندما أصدر في العام ١٩٥١ كتاباً بعنوان (شخصية الفرد العراقي)، وظل يواصل البحث في هذا الموضوع في كتبه ومقالاته ومحاضراته.. وفيما يلي ملخص للحوار:

يبكي من خشية الله

- إن الذي نرجوه منك في بداية الحوار أن تعطينا رأيك في التحقيق الذي نشرته (الأفق) باعتبارك من المهتمين بموضوع ازدواج الشخصية منذ زمن طويل.

- إني في الواقع قد استفدت من هذا التحقيق الذي نشرته الأفق، فهو قد لفت نظري إلى بعض الجوانب في موضوع ازدواج الشخصية كنتُ غافلاً عنها. ومن الممكن القول إن هذا الموضوع في حاجة إلى مزيد من التفصيل والتوضيح، إذ هو قد اختلطت فيه بعض المفاهيم وأصبح من الضروري الفصل بينها وتبيان الفروق فيها.

من الجدير بالذكر أن ازدواج الشخصية له مفهومان مختلفان، أحدهما اجتماعي والآخر نفسي. أضف إلى ذلك أن ازدواج الشخصية هو في الغالب لا شعوري في الإنسان، وليس كما يظنه البعض منا من حيث كونه واعياً.

لا يسع المجال هنا ذكر الفرق بين المفهومين بإسهاب، لكني على كل حال أستطيع أن أقول إن ازدواج الشخصية في مفهومه النفسي مرض نادر لا يصاب به إلا عدد قليل جدا من الناس، وهو شذوذ في تكوين الشخصية حيث يتقمص المصاب به شخصية معينة تارة ويتحول عنها إلى شخصية ثانية تارة أخرى، وهو ينسى عند تقمصه إحدى الشخصيتين ما فعل في أثناء تقمصه الشخصية الثانية. وقد يحدث أحياناً أن يكون المصاب بهذا المرض ذا ثلاث شخصيات أو أكثر، ولهذا يصح أن يسمى هذا المرض (تعدد الشخصية) بدلاً من (ازدواج الشخصية).

أما ازدواج الشخصية في مفهومه فهو شيء آخر، إنه ليس مرضاً نفسياً بل ظاهرة اجتماعية يتصف به الكثيرون من الناس في مجتمع معين، إذ هم يتعرضون في نشأتهم الاجتماعية لنظامين مختلفين من القيم فترى الواحد منهم يسلك ويفكر حسب أحد النظامين تارة، وحسب النظام الثاني تارة أخرى.

أوضح مثل يمكن أن آتي به في هذا الشأن هو ما كان الناس عليه في العراق في العهد العثماني، فقد كان الناس حينذاك يخضعون لنظامين مختلفين من القيم، أحدهما نظام القيم العشائرية الذي يتمثل في

العصبية القبلية والثأر وغسل العار والدخالة والتسيار والنخوة والإسراف في الضيافة وتقدير القوة والغلبة وشدة البأس.. الخ. أما النظام الثاني فيتمثل في القيم الدينية التي دعا إليها الإسلام والتي تحض على المساواة والعدالة والتقوى والعفو والحلم وما أشبه.

فالفرد حينذاك اعتاد أن يسمع المواعظ الدينية وهي تلقى عليه صباح مساء وتحضه على أخلاق معينة، بينما هو في حياته العملية يجري على أخلاق أخرى تبعاً للقيم المحلية التي نشأ عليها منذ طفولته. إنه في بعض الأحيان يبكي من خشية الله ويعيد على الأسماع المواعظ التي سمعها من غيره، ويعتبر الدنيا فانية والآخرة باقية، ولكنه يتحول فجأة إلى شخص آخر عندما تنشب معركة بين عشيرته والعشيرة المعادية لها، أو عندما يلمح (شقياً) أو (قبضاي) قوياً يمر به وهو يهز الأرض بأقدامه، أو عندما يشهد شجاراً بين رجل ذي جاه أو سلطة وآخر مستضعف فقير. فهو ينسى عند ذاك المواعظ التي كان يتهجد بها ويندفع مع تيار القيم التي نشأ عليها في محيطه المحلي.

إن هذه ظاهرة اجتماعية نلاحظها في معظم المجتمعات العربية، ولكنها تختلف شدة وضعفاً تبعاً لكثرة المواعظ الدينية فيها من جهة، ومبلغ انتشار القيم العشائرية فيها من الجهة الأخرى.

نظامان متناقضان من القيم

- هل تقصد بقولك هذا أن المجتمعات العربية وحدها هي التي تنتشر فيها ظاهرة ازدواج الشخصية أم أن هناك مجتمعات أخرى تنتشر

فيها هذه الظاهرة كذلك؟

- يميل علماء الاجتماع إلى القول بأن جميع المجتمعات المتحضرة لا تخلو من ازدواج في الشخصية قليلاً أو كثيراً، وهم لا يستثنون من الازدواج إلا المجتمعات البدائية والمنعزلة.

خذ على سبيل المثال المجتمع الأمريكي.. يقول العالم الأمريكي كمبل يونغ[1] في كتابه علم النفس الاجتماعي: إن الفرد الأمريكي يعاني صراعاً بين القيم المسيحية التي ورثها من أسلافه المتدينين، والتي تدعو إلى المحبة والعفو والإيثار، والقيم التي تسيطر على الحياة الاقتصادية في مجتمعه والتي تدعو إلى التكالب على الدنيا والتنافس في جمع المال. فالفرد الذي يعيش تحت وطأة هذين النظامين المتناقضين من القيم قد يصاب بشيء من ازدواج الشخصية على وجه من الوجوه.

إن هذا الذي رأيناه في المجتمع الأمريكي قد نرى ما يشبهه في مجتمعات أخرى. ولكن هناك اختلافاً في طبيعة الازدواج، وفي درجة انتشاره بين الأفراد. وهذا الاختلاف ينشأ من جراء التفاوت في نظم القيم السائدة في كل مجتمع وشدة التناقض بينها.

---

(١) عالم نفس واجتماعي أمريكي ألف كتاب (علم النفس الاجتماعي) ضمنه نظريات في فلسفة الدين عرفت بـ(نظريات يونغ النفسانية) إذ يختلف رأيه عن رأي فرويد، فيرى يونغ أن الدين متأصل في الحياة الإنسانية ولا يصح أن يُختزَل إلى مركَّب أبوي يجب حلّه لكي يسترد المرء عافيته النفسية، ولا إلى عوامل متعلقة بتطور العلاقات الاقتصادية والوعي الاجتماعي.

الشقي والتقي

- إنك ذكرت أن المجتمعات البدائية والمنعزلة تخلو من الازدواج، فما هو السبب في ذلك؟

- إن المجتمعات البدائية والمنعزلة يسودها نظام واحد من القيم، وهي لا تعرف غيره. خذ مثلا القبيلة البدوية الموغلة في الصحراء فهي لا تعرف من دنياها غير القيم التي تدور حول العصبية القبلية وتقدير الغزو والنهب والضيافة والنخوة والشهامة وما أشبه. وإذا جاءهم أحد يقول لهم إن هذه القيم لا يرضى الله عنها تعجبوا منه أو استهانوا به ونبذوه.

يحدثنا الدكتور فاضل الجمالي[١] في كتابه (العراق الحديث) أنه عندما كان طالباً في الجامعة الأمريكية ببيروت في العشرينات زار مع زمرة من الطلبة قبيلة عنزة في بادية الشام وأخذ يناقش بعض أفرادها مناقشة طويلة حول ما اعتادوا عليه من غزو ونهب وهل ذلك مما يرضى الله عنه؟ أم لا؟ فكان جوابهم أنهم لم يقلقوا أنفسهم بالتفكير في مثل هذه المسألة!

إن الازدواج يكون على أشده في المناطق التي تكثر فيها المواعظ الدينية من جهة، وتسيطر عليها القيم العشائرية من الجهة الأخرى.

---

(١) مرت ترجمته سابقا.

الفرق في الدرجة لا في النوع

- إنك أشرت إلى أن ازدواج الشخصية يكون لا شعورياً في الإنسان. فالرجاء منك توضيح ذلك لفائدة القراء.

- إني قلت ذلك إشارة إلى رأي بعض الأساتذة الأفاضل كما نشرته الأفق في تحقيقها في ٢٤ حزيران الماضي[1]. فقد لاحظت أن هؤلاء الأساتذة يرون أن الازدواج يظهر بوجه خاص لدى الصحفيين والكُتّاب إذ هم يُظهرون في كتاباتهم غير ما يبطنونه في قرارة أنفسهم.

إن الأستاذ فهد الريماوي[2] – على سبيل المثال – يسمي هذا الازدواج بـ(التقية) أو (الباطنية) وهو يقول عنه إنه موجود في النفسية العربية منذ زمن طويل ولا سيما على الصعيد السياسي وأنه موغل في التاريخ العربي والإسلامي منذ بدايته. ثم يقول الأستاذ الريماوي إن هذا الازدواج يظهر في زماننا هذا بعدة مظاهر أبرزها أن الكاتب في كثير من الأحيان يُظهر خلاف ما يبطن، أو يكتب شيئاً مخالفاً أو مناقضاً لما هو مقتنع به. ويعزو الريماوي هذا الازدواج إلى أسباب متنوعة أبرزها وجود العسف والقمع في عالم النشر والصحافة.

إن هذا الرأي الذي أبداه الأستاذ الريماوي يؤيده الأستاذ نزيه أبو

---

(١) عام ١٩٩٢.

(٢) صحفي وأديب يعد من الرعيل الصحافي الأول في الأردن، تأثر بالفكر الناصري، ترأس تحرير صحيفة المجد الأردنية المعارضة.

نضال[1] فهو يقول في ذلك ما نصه: (إن الكاتب الذي يكتب المقال يضع في ذهنه أن هذه الكتابة يمكن أن تلحق به الأذى سواء من جهات رسمية أو اجتماعية، فهو من حيث يشعر أو لا يشعر يبدأ ببرمجة كتابته حتى يعبر عن الحد الأدنى من قناعاته بدون أن يصطدم بتلك الجهات، وإذا افترضنا أن هذا الكاتب كان شجاعاً ويقول كلمته وليكن ما يكون فهنا يبرز سؤال أين يمكن أن ينشر كلمته؟).

إني أوافق على هذا الرأي الذي جاء به هذان الأستاذان الفاضلان في وصف الازدواج أو الازدواجية كما يعبران عنه، ولكني مع ذلك أختلف معهما في التسمية. ففي رأيي أن الازدواج الذي ذكراه هو ازدواج واعٍ في السلوك وليس ازدواجاً في الشخصية، فهناك فرق غير قليل بينهما.

إن ازدواج الشخصية كما أراه هو لا شعوري في الغالب، وقد يغضب الإنسان المزدوج حين ينبهه أحد إلى التناقض الذي يظهر بين موقفين له في الحياة، إن هذا الازدواج ينشأ من جراء وقوع الإنسان تحت وطأة نظامين مختلفين من القيم الاجتماعية، وترى الإنسان به يتقمص شخصية معينة تارة ثم يتحول عنها إلى شخصية ثانية تارة أخرى.

---

(١) الأستاذ غطاس الصويص المشهور بـ(نزيه أبو نضال)، وهو ناقد أدبي أردني وُلدَ في عمّان عام ١٩٤٤، يحمل شهادة الماجستير في الأدب العربي، حاز على جائزة غالب هلسا للإبداع الثقافي من رابطة الكتاب الأردنيين، له مؤلفات أهمها: (الشعر الفلسطيني المقاتل)، و(أدب السجون)، و(الثقافة والديمقراطية)، و(تاريخ الأزمة).

أما الازدواج الذي وصفه الأستاذان فهو ازدواج واعٍ يفعله الإنسان وهو شاعر به وقاصد له، وهو يقوم به بإرادة منه واختيار خوفاً من أذى يلحق به أو طمعاً في مكافأة يأمل بها.

يمكن القول بوجه عام إن الازدواج الواعي موجود في جميع الناس ولكن على درجات متفاوتة. فالإنسان يعيش في مجتمع وهو مضطر أن يداري الناس حوله ويحاول الانسجام معهم بمقدار جهده، إنه مضطر أن يجامل ويداري وأن يتقي ويتحيز. والفرق بين الأفراد في ذلك هو في فرق في الدرجة لا في النوع.

إن الإنسان الذي يلتزم بالصراحة المطلقة في حياته الاجتماعية ويواجه الناس بالحق الذي يؤمن به من غير مداراة أو مجاملة هو إنسان لا وجود له على وجه هذه الكرة الأرضية. ولو فرضنا وجوده لكان من الواجب عليه أن يعتزل الناس ويعيش منفرداً في عالمه الخاص به فيريح ويستريح.

- كان من بين الأساتذة الذين شاركوا في تحقيق الأفق الدكتور نايف البنوي المدرس في قسم علم الاجتماع بجامعة اليرموك، وكان رأيه أن ازدواج الشخصية مفهوم مرضي وليس من المستحسن وصف الشخصية العربية به، ويفضل الدكتور البنوي أن يستبدل هذا المفهوم بمصطلح التناشز الاجتماعي[١]، فما قولك في هذا؟

- إن (التناشز الاجتماعي) هو ترجمة للمصطلح الذي جاء به العالم

(١) ورد شرح هذا المفهوم سابقاً.

الاجتماعي المعروف أوغبرن[1]، وإني قد جئت بهذه الترجمة في عام ١٩٦٥ عندما أصدرت كتابي (دراسة في طبيعة المجتمع العراقي) ثم عرضته على المجمع العلمي العراقي أملاً في أن أحظى منه بجواب إيجابي أو سلبي فلم أوفق في ذلك مع الأسف الشديد وإني أشكر الدكتور البنوي على استعماله لهذه الترجمة.

كان العالم أوغبرن يقصد بهذا المصطلح ظاهرة اجتماعية تلاحظ في كل مجتمع يعاني من التغير، فمن طبيعة التغير الاجتماعي أن أجزاء المجتمع لا تتغير كلها على وتيرة واحدة أو بسرعة واحدة، فمنها ما يتغير بسرعة كبيرة ومنها ما يتغير ببطء. وهذا التفاوت في سرعة التغير يؤدي إلى ظهور بعض المشاكل في المجتمع.

يمكن أن نجد أمثلة واقعية كثيرة من التناشز الاجتماعي في المجتمعات العربية ولا سيما في هذه المرحلة الصاخبة التي نمر بها. ولا حاجة بنا إلى القول إن هناك صلة وثيقة بين التناشز الاجتماعي وازدواج الشخصية في كثير من الأحيان.

أوضح مثل يمكن أن نأتي به في هذا الصدد هو فيما يخص المرأة من حيث علاقتها بالرجل، وهذا موضوع طالما تحدثت عنه في كتبي.

حين تدرس القيم الاجتماعية التي كانت سائدة في العهد العثماني فيما يخص المرأة نجد أنها تولي أهمية قصوى لعفة المرأة وصيانتها

---

(١) اعتبرت مجلة (علوم إنسانية) في الموسوعة التي خصصتها لعلماء الاجتماع العراقيين أن من أهم طروحات الوردي هو (التناشز الاجتماعي)، وذكرت الموسوعة أن الوردي حوّر مصطلح (الفجوة الثقافية) الذي جاء به العالم الاجتماعي وليم أوغبرن وعممه على المجتمع العراقي والعربي.

الجنسية. ومن هنا نشأت عادة غسل العار، وقد مرَّت بالعراق فترة كانت حوادث غسل العار فيها قد بلغت حداً لم تبلغه في أي بلد في العالم، وما زالت بقاياها موجودة حتى الآن.

وجاء التغير الاجتماعي الكبير عقب الحرب العالمية الأولى، وبدأت المرأة تدخل المدارس(١) ثم الوظائف، واتخذت الزي الحديث في السفور، وصار هذا التغير يزداد شدة يوماً بعد يوم. ومن يدخل الآن الدوائر الحكومية ويقارنها بما كانت عليه قبل نصف قرن من حيث نسبة الموظفات فيها يجد ما يذهل ويدهش.

معنى هذا أن وضع المرأة من الناحية الثقافية والاجتماعية قد تغير تغيراً كبيراً جداً، يكاد يشبه الطفرة، ولكن السؤال الذي يواجهنا هنا: هل إن القيم والتقاليد التي تخص المرأة قد تغيرت بمثل هذه السرعة؟ إن هذا أحد مظاهر التناشز الاجتماعي في المجتمع وهو لا بد أن يؤدي إلى ازدواج في الشخصية.

إن الرجل العربي في تعامله مع المرأة قد يتقمص شخصيتين مختلفتين إحداهما حديثة والأخرى قديمة. فهو يتحدث إلى المرأة أو يغازلها على نحو ما يفعل الرجل الأوروبي مع المرأة. ولكنه عندما يريد الزواج تنتفض القيم القديمة في أعماقه ويحاول البحث عن امرأة لا تعرف

---

(١) من طريف ما يروى في هذا الصدد أن الشاعر جميل صدقي الزهاوي اختير ضمن لجنة لتحديد بناية تكون مدرسة للبنات في بغداد، وطال النقاش حول البناية فقد كان أعضاء اللجنة يريدونها بناية لا تشرف عليها أي بناية أخرى، فاقترح الزهاوي متندرا عليهم أن تكون المدرسة فوق منارة جامع الخلفاء وهي أعلى مكان في بغداد آنذاك.

الغزل والغرام.

إني وصفت الرجل العراقي في مناسبة سابقة بأنه (دون جوان)[1]

(١) دون جوان: يقترن لقب (دون جوان) عادة بالعاشق (الحبيب) الذي يتنقل من امرأة لأخرى في بستان العشق، يؤهله في ذلك عادة ما يتمتع به من وسامة وحضور لافت وظرف، ناهيك عن موهبة فذة في اجتذاب الجنس اللطيف، بعبق كلامه ولطيف معشره، حتى وإن كان كاذباً من الطراز الأول. برزت شخصية دون جوان أو دون خوان الأسطورية في الفلكلور الحكائي الأسباني، حيث ذاع صيتها في مختلف أنحاء أوروبا في القرن السابع عشر. ورغم تأكيد الرواة أن دون جوان شخصية من صنع الخيال، إلا أن البعض يؤكدون أن لها مرجعاً واقعياً في أسبانيا القرون الوسطى. تقول الأسطورة الأصلية إن دون جوان كان عاشقاً شهيراً أغوى أكثر من ألف امرأة، وبينما يحاول استمالة فتاة أرستقراطية جميلة تدعى دونا آنا يكتشف والدها، قائد الجيش ذلك، فيدعوه للمنازلة، ويتمكن دون جوان، من قتل القائد والهرب. أما دونا آنا، فتسعى وخطيبها دون أوتافيو، للإيقاع بدون جوان، لكن الأخير كان من الذكاء والدهاء والمراوغة، بحيث لم يكن من السهل الوصول إليه. بعد وقت يمر دون جوان بضريح قائد عسكري، فيتناهى إلى سمعه صوت من التمثال المنتصب فوق الضريح، يحذره من مغبة أفعاله الشريرة، وأنه سيعاقب عليها. لكن دون جوان يظهر لا مبالاة إزاء التحذير، بل إنه يعمد إلى السخرية من التمثال، حين يدعوه لتناول العشاء معه. وتنقلب السخرية إلى جديه، حين تدب الحياة في أوصال التمثال الحجري، حيث يذهب إلى بيت دون جوان في الموعد المحدد. اللحظة الحاسمة تأتي أخيراً، هاهو التمثال يقدم يده لدون جوان، عارضاً عليه أن يصطحبه إلى وليمة مختلفة، فيقبض دون على اليد، ليجد نفسه فجأة أصبح رهينة قبضة حجرية لا تقهر، تجعل عروقه تتجمد من البرد. ثم تفتح حفرة تستعر فيها النيران، حيث يسحب التمثال دون جوان، من خلالها إلى الجحيم، ليستقر فيه إلى الأبد.

تارة، و(حاج عليوي)[1] تارة أخرى! وهنا يكمن السبب في انتشار ظاهرة التحرش بالنساء في مجتمعنا. فالمرأة قد تثقفت وتحررت ولكن الرجل ما زال ينظر إلى المرأة قبل سبعين سنة! إذ هو لا يكاد يلمح ابتسامة خفيفة منها حتى يعتبرها علامة تخفي وراءها العجب العجاب. قد يصح أن نقول إن جميع المجتمعات العربية تعاني من مثل هذا التناشز والازدواج قليلا أو كثيراً. وقد صار من الواجب على باحثينا أن يهتموا بدراسة هذه المشاكل بدلاً من دراسة مشاكل الشعر ونقد الشعر ونقد النقد.

---

(١) اسم رمزي للشخصية العراقية التي تمثل قيم البداوة، فهو عندما يريد الزواج يترك لوالدته خيار انتقاء الفتاة المناسبة له.

ملحق رقم (٤)

عزف منفرد[١]

الوردي الذي مات مرتين

- سلام الشماع

في الثالث عشر من الشهر المقبل تكون قد مرّت إحدى عشرة سنة على رحيل العلامة الدكتور علي الوردي، أبو علم الاجتماع الحديث في العراق، وستمرّ الذكرى بهدوء ومن دون أن ينتبه إليها أحد بسبب الأوضاع التي زج الاحتلال فيها بلاد الرافدين.

مما أذكره لكم عن الوردي، وقد كنت لصيقا به مرافقا له مدة طويلة قبل أن يلقى ربّه، وهو أيضا مما يدلل على سداد نظرته في المجتمع، أني في العام ١٩٩٢ كنت أتمشى بصحبته في الصحن الكاظمي الشريف

---

(١) نص العمود الذي كتبتُه بمناسبة قرب حلول الذكرى الثالثة عشرة لرحيل الدكتور علي الوردي، ونشرتُه في زاويتي (عزف منفرد)، في جريدة الصوت الأسبوعية التي تصدر في دمشق، العدد ٦ بتاريخ ٢٠٠٧/٧/٩.

وصرنا وجها لوجه أمام رجل يضع على رأسه عمامة سوداء، وعندما اقترب منا الرجل المعمم وضع يده على صدره وانحنى قليلا متمتما بكلمات لتحية الوردي ففعل الوردي مثل فعله راداً التحية للرجل.

إلى هنا انتهى المشهد الأول ليبدأ المشهد الثاني في الواقعة عندما تركنا الرجل ومضى في حال سبيله، إذ التفت الوردي إليّ وقال لي: هل شاهدت الرجل وهو ينحني لي باحترام ويحييني، إن فوق رأسه الآن قوة ويحكمه قانون قوي ولولا ذلك فإن هذا الرجل سيكون أول من يقتلني إذا حدث انفلات أمني وغابت سلطة القانون.

إن هذا الكلام من الوردي له مغزاه العميق، الذي لم يكن يدركه أحد غيره وقد فهمنا المغزى بعد أن أُحتُلَّ العراق وشاهدنا ما شاهدنا من نتائج الانفلات الأمني.

بعد سنتين من هذه القصة ساءت صحة الوردي واضطر للرقود في الفراش فقرر نادي الجمهورية الثقافي، الذي أسسه، وقتها، الزميل مؤيد عبد القادر(١) تكريم الوردي وكلفني لإقناعه بالحضور إلى حفل التكريم الذي أقيم في قاعة ابن النديم للمكتبة الوطنية قبالة المبنى القديم لوزارة الدفاع العراقية، ولكنه، رحمه الله، اعتذر عن ذلك، ولما ألححت عليه بالمجيء قال لي بأنه سيتدبر الأمر، فقد كان مرضه الذي سماه هو مرض (التبول الدموي) قد اشتد عليه.

وأقيم الاحتفال في موعده المحدد وحضره كبار رجال الفكر والثقافة

---

(١) كاتب وصحفي عراقي له مؤلفات عديدة أهمها سلسلة (هؤلاء في مرايا هؤلاء)، وكتاب (يوم عراقي).

والأدب أمثال العلامة الدكتور حسين علي محفوظ والمؤرخ والخططي الدكتور عماد عبد السلام رؤوف[1] والدكتور حسن الجاف[2] والدكتور سلمان الواسطي[3] والدكتور عبد الأمير الورد وآخرون، ولم يأت الوردي ولكنه أرسل ولده الطبيب الدكتور حسان ومعه بيت واحد من الشعر القديم كان رحمه الله قد خطه بيده وله مغزاه الكبير، وهو:

أتت وحياض الموت بيني وبينها

وجادت بوصل حيث لا ينفع الوصل

وكان الإحراج الكبير: كيف يصعد الدكتور حسان علي الوردي إلى المنصّة ويقرأ بيت الشعر وحده وينزل.

لكن الزميل مؤيد عبد القادر اقترح عليّ أن اكتب كلمة على لسان الدكتور حسان وأضمنها بيت الشعر، الذي أرسله الوردي الكبير وهكذا كان.

وعلى الرغم من أن الكلمة، التي كتبتها للدكتور حسان كانت مؤثرة وقوية، لكن الحضور، في الواقع، لم يتأثروا بها بقدر ما تأثروا ببيت الشعر القديم، الذي أرسله الوردي.

---

(١) أستاذ التاريخ في جامعة بغداد، مؤرخ وخططي عراقي مهم له مؤلفات في التاريخ والتراجم وخطط بغداد.

(٢) كاتب عراقي، اهتمَّ بتاريخ العراق الحديث، وهو من أهم رواد مجالس بغداد الثقافية، حيث يلقي محاضرات ويشارك في نشاطاتها الثقافية المختلفة، وهو من عشيرة كردية معروفة في شمال العراق.

(٣) مترجم بارز، وأستاذ مرموق في الأدب الإنجليزي، له مساهمات مهمة وحضور فعال في مجالس بغداد الثقافية.

وبعد الاحتفال قررنا زيارة الوردي في بيته والتقاط الصور التذكارية معه، ولكنه كان في أخريات الطريق وثنيات الوداع، إذ سافر إلى الأردن ليتلقى العلاج في مدينة الحسين الطبية وعاد إلى العراق ليقضي نحبه فيه.

وقد كتب الزميل مؤيد، وقتها، مقالة اتهم فيها الولايات المتحدة الأمريكية بقتل الوردي بسبب الحصار الظالم الذي فرضته على العراق مما شحَّ معه الغذاء والدواء.

وبعد احتلال العراق في العام ٢٠٠٣ كتب الراحل الكبير العلامة الدكتور كامل مصطفى الشيبي[١] الأستاذ الجامعي المهتم بالتصوف مقالة قال فيها إن الوردي مات مرتين، تطرق فيها إلى العملية النكراء التي اقترفها احدهم (الصغير)، بالاستحواذ على جامع براثا[٢] في كرخ بغداد،

---

(١) عالم معروف، وأستاذ متخصص بالفلسفة، تتلمذ في الماجستير على يد أبي العلا عفيفي، ثم على يد المستشرق آربري، وصدرت له العديد من الكتب في موضوع اختصاصه وغيره، وكان التصوف هاجسه، وما يتصل به، وحقق ديوان الحلاج، وأبي بكر الشبلي، وأبي الحسين النوري. كتب عن الصلة بين التصوف والتشيّع، وجمع ديوان الدوبيت، والكان وكان وغيرها. وكتب عن الأدب العذري، ورواية دون كيخوت، أصدر أخيراً كتاباً عن (بهلول المجنون رائد عقلاء المجانين)، ولديه العديد من البحوث والتحقيقات التي تستحق الاهتمام، منها (ديوان الموت)، وحقق ديوان شعر السهروردي المقتول. تأثر بالوردي في بعض أفكاره وخاصة في إنكاره شخصية ابن سبأ واعتبار عمار بن ياسر هو المقصود بهذه الشخصية. توفي في بغداد عام ٢٠٠٦.

(٢) يقع جامع براثا في جانب الكرخ من بغداد، وهو واحد من أقدم المساجد في العراق، إذ أمر ببنائه الإمام علي بن أبي طالب عقب عودته من حرب الخوارج

وإنشائه قاعات وأبنية في المقبرة الملاصقة للجامع، وقد أكلت هذه الأبنية قبور ثلة من علمائنا الكبار أمثال الوردي وعلي جواد الطاهر(١) وجواد علي(٢) وطه باقر(٣).

في النهروان، أي قبل بناء بغداد المدورة بعقود طويلة، فهو إذن أول جامع بني في بغداد، وقد اختلف المؤرخون في سبب تسميته بهذا الاسم، فمنهم من قال إنه اسم الشخص الذي بناه، ومنهم من قال إن الاسم هو اسم قديم للأرض التي أقيم عليها الجامع.

(١) من أهم أساتذة النقد الأدبي في العراق. ولد في مدينة الحلة عام ١٩١٩. حصل على دكتوراه الدولة في الأدب من السوربون عام ١٩٥٣. عمل مدرساً وأستاذا مساعداً في كلية الآداب في جامعة بغداد. شغل منصب أول سكرتير لاتحاد الأدباء في العراق من عام ١٩٥٩-١٩٦٣. عمل أستاذا مساعداً في كلية الآداب-جامعة الرياض من ١٩٦٣-١٩٦٨. عمل أستاذا زائراً في جامعة الجزائر وجامعة قسطنطينية وجامعة صنعاء وجامعة قطر. في عام ١٩٧٩ أحيل على التقاعد دون رغبته. حاضر في جامعة الكوفة عام ١٩٩٢، وانتقل إلى الجامعة المستنصرية عام ١٩٩٤. وافاه الأجل في ٩/١/١٩٩٦، ودفن في مقبرة جامع براثا.

(٢) جواد علي (١٩٠٧ - ١٩٨٧) مفكر ومؤرخ عراقي ولد في الكاظمية. كان غزير الإنتاج، حصل على الدكتوراه في ألمانيا عام ١٩٣٨. ألف كتاب (المفصل في تأريخ العرب قبل الإسلام) في عشرة أجزاء، وكتاب (تأريخ الصلاة في الإسلام) وغيرهما من الكتب. انضم إلى حركة مايس في العام ١٩٤١ ودخل السجن بعد فشلها ثم أفرج عنه. توفي في بغداد عام ١٩٨٧ ودفن في مقبرة جامع براثا.

(٣) عالم آثار ، ولد في العراق في محافظة بابل مدينة الحلة عام ١٩١٢. أكمل دراسته المتوسطة كان من الطلبة الأوائل لذلك انتقل لإكمال دراسته على نفقة وزارة المعارف إلى الولايات المتحدة لدراسة علم الآثار في المعهد الشرقي في

إن الوردي الذي خدم العراق فقد قبره على يد من جاء بهم الاحتلال، وكانت تلك العملية أول جريمة يرتكبها الغزاة في محو رموزنا الثقافية وإتلافها بعد جريمة نهب المتحف العراقي والمكتبة الوطنية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ونقولها على حد قول أشقائنا المصريين: (لك يوم يا ظالم).

جامعة شيكاغو مع زميله فؤاد سفر بعد نيلهم شهادة ماتريكوليشن Matriculation الإنكليزية في مدينة صفد الفلسطينية، وبعد ذلك نقل ومن معه من طلاب البعثة إلى الجامعة الأمريكية في بيروت لاجتياز مرحلة (السوفومور Sophomore) وهي مرحلة دراسية تحضيرية سافر بعدها إلى الولايات المتحدة الأمريكية لإكمال دراسة علم الآثار وبعد مدة أربع سنوات حصل على شهادة البكالوريوس والماجستير وكانت العودة عام ١٩٣٨. نال لقب الأستاذية من جامعة بغداد عام ١٩٥٩م. عمل في مجال الآثار وألف وترجم من المسمارية آثاراً مهمة وأهمها (ملحمة گلگامش)، توفي في بغداد يوم ١٩٨٤/٢/٢٨ ودفن في مقبرة جامع براثا.

الملحق رقم (٥)

إشارات الوردي[١]

قراءة واحدة لما هو (من وحي الثمانين)

• بشير حاجم

لا نخال مخطئين بتاتاً إذا قلنا مثلاً إن قراءة واحدة متمعنة – ولو نسبياً – لكتابه الأخير (من وحي الثمانين) الذي أعده – معلقاً عليه – الصحفي سلام الشماع تكشف بجلاء عن أن (وحي) الدكتور علي الوردي إذ دخل سن الثمانين – وفقاً للتقويم القمري – قبيل ست سنوات وهو بالدرجة الأولى عودة بين حين وآخر منه إلى موضوع سابق أو أسبق له، قد يكون الموضوع هذا كتاباً، كلمة، محاضرة... الخ. وهو – أي

---

(١) نص مقال كتبه الزميل الصحفي الشاعر والناقد الأدبي بشير حاجم بمناسبة صدور الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ونشره في جريدة الثورة البغدادية، عدد ٩٠١١، الصادر في ٤ تشرين الثاني ١٩٩٦.

الدكتور – حينما يعود إليه ملقيه بعضه أو معظمه أو كله إلى قارئه المتابع ليعلمه فإنما ينبه إلى أهميته أو يثير أفكاراً جديدة حوله، أو يورد معلومات أخرى – أساسية – بصدده. فلقد اعتاد الوردي على الإعادة الحريصة ليتأكد من أن متلقي موضوعه الفائت الماضي قد فهمه فهماً تاماً، فيتسنى له عندئذ الانتقال إلى موضوعه اللاحق الحاضر.

يرى الدكتور أن دارس مرحلة ازدهار الحضارة الإسلامية التي سبقت الفترة المظلمة يجد النزعتين العلمية والأدبية كلتيهما متوافقتين فيها، تنهل إحداهما من الأخرى، لهذا ظهرت حينذاك نخبة من المفكرين المبدعين يمكن عدها، حيث توافق العلم والأدب عندها، زائدة للحضارة الحديثة، يكفي النخبة هذه أن نذكر منها في مجال البحوث النفسية والاجتماعية ثلاثة مفكرين مبدعين هم: ابن خلدون، الجاحظ، الغزالي.

لم ينس الوردي طبعاً أن يشير هنا إلى أنه بعدما درس الأول في جامعة تكساس الأمريكية، قد شرح ذلك كله في كتابه (منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته).

ويعترف الوردي معللاً نفسه في ضوء نظرية (الأنوية) للعالم جورج هربرت ميد بأن الأنا الجماعية المنسجمة مع المجتمع كانت مسيطرة عليه في مرحلة كتابته للصحف، وبأن الأنا الفردية المتمردة على المجتمع بدأت بلعب دورها في مرحلة تأليفه الكتب، لذا اتهم الدكتور من بعض النقاد بأنه في مرحلة تأليف الكتب، خصوصاً، لم يقصد بكتابته الاجتماعية إصلاح المجتمع فقط، بل قصد الحصول على الشهرة ومخالفة المألوف أيضاً.

إن هذه التهمة - يصرح الوردي - وجهها معدودون من النقاد، كان أحدهم الناقد عبد المطلب صالح مثلاً، فهو يقول في معرض انتقاده كتاب الدكتور (أسطورة الأدب الرفيع): إن المتتبع لكتابات الوردي منذ كتيبه (الازدواجية في شخصية الفرد العراقي) مروراً بكتابه (وعاظ السلاطين) ثم كتابه (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) يجده دائراً في حلقة مفرغة، وأغلب - يتابع الناقد - ما كتبه الدكتور هو مخالفة للمألوف مقحماً نفسه في موضوعات أو نظرات لم يستكمل لها عدتها بعد.

ثم يشير الدكتور إلى كون اهتمامه في كتبه عن المجتمع العراقي منصباً على موضوع ازدواج الشخصية حيث الفرد متلقي توصيلتين متناقضتين في مجتمع كهذا، مما يؤسف الوردي هنا: أن الموضوع هذا قد أسيء فهمه من الكثيرين، بيد أنه - وما سنقوله غريب بعض الشيء - يورد مثالاً عن (إجادة) فهم هذا الموضوع، لا يورد مثالاً عن إساءة فهمه، فهو يذكر محاضرته (شخصية الفرد النجفي) التي استند إلى الشيخ جعفر محبوبة في جانب منها منتهزاً الفرصة هذه لكي يشكر أهل النجف ممن حضروها لأنهم تحملوها وأعانوه عليها فلم يعارضوها أو يجادلوه فيها إلا في حدود مقبولة يسمح بها الأسلوب العلمي، بما يعني، من ثم، أنهم أجادوا فهمها بعدما تلقوها بروح موضوعية.

لذلك أسيء فهم موضوع صراع البداوة والحضارة، حيث المجتمع حصيلة تفاعل طويل بين هاتين المتناقضتين، إذ توهمه بعض النقاد - مثيراً سخطهم - بأنه ذمٌّ أو أن فيه ذماً للمجتمع العراقي. لكن الواقع

– يدافع الدكتور عن موضوعه – أن كل مجتمع في هذه الدنيا هو حصيلة الظروف السابقة التي مرَّ بها، فلو درسنا تاريخ أي مجتمع في هذا العالم لرأينا جلياً كيف أثرت ظروفه الماضية التي مرت بـــه فـــي تكوينـــه، ولا يجوز أبداً أن نستثني المجتمع العراقي، مثلاً، من هذه القاعدة العامة. ثم يقول بعد هذا الدفاع إنه حاول ذكر بعض الأمثلة الواقعية للقيم العشائرية القديمة التي تنتاب المجتمع العراقي في كلمة له ألقاهـــا علـــى المـــؤتمر الثالث للاجتماعيين العرب في بغداد، فيعيد ذكرها، وهي سبعة فقط، مـــع شروح موجزة لها.

الوردي يشير أيضاً إلى كتابه خوارق اللاشعور كونه أول كتاب صادر في اللغة العربية يبحث في، أو يدور حول، علم الباراسايكولوجي، أو كما يسميه الدكتور: (علم الخارقية)، فهو وإن كان علماً جديداً ذا علاقة أو ذا صلة وثيقة بعلم الاجتماع الذي هو موضوع اختصاص الوردي من حيث الظواهر الاجتماعية التي يدرسها، ولا سيما فـــي المجتمعـــات المتخلفـــة والنامية، هذه الوثاقة بين علمي الاجتماع والخارقية هي حتماً التي دعت الدكتور إلى الاهتمام بالعلم الثاني بعدما اختص بالعلم الأول، قبـــل غيـــره من المؤلفين العرب في كتابه هذا.

وهو يشير كذلك إلى أن كتابه (مهزلة العقل البشري) ذو عنوان غيـــر علمي بالمرة في رأي بعض النقاد. لقد كان الوردي – بحـــسبه – ينظـــر عندما عنون هذا الكتاب إلى الضجة اللاعقلية التي قامت ضده هو علـــى أثر صدور كتابه (وعاظ السلاطين)، فالمتحذلقون – كما يصف الـــدكتور أحياناً ما سماهم بالخطابيين البلاغيين – قاموا حينذاك بتـــدبيج مقـــالات

نارية رداً عليه، وبإلقاء خطب هادرة مناوئة له، إذ كرس أحد خطباء التعزية ليالي رمضان كلها للتهجم في آن واحد عليه وعلى كتابه كليهما، وبتأليف سبعة كتب غاضبة جداً عليهما.

أخيراً ليس آخراً، يقول الدكتور علي الوردي جازماً إن اللغة في مفهومها الحضاري وسيلة لا غاية، وهي إذن يجب عليها أن تخضع للتيسير والتطوير، لكي تتكيف مع الظروف الاجتماعية المستجدة، إنه يعيد هنا ما قاله سابقاً غير مرة بالتأكيد، مشيراً فيه إلى أن الساعين لتعقيد لغتهم ولتجميدها إنما يسيئون إلى أمتهم.

فالمعروف عنه – كما يعلق الصحفي سلام الشماع – أنه دعا في كتاباته منذ زمن طويل إلى تيسير قواعد النحو العربي، وله في هذا المجال مساجلة ساخنة مع الدكتور عبد الرزاق محيي الدين ضمها كتابه (أسطورة الأدب الرفيع) الصادر قبيل صدور كتابه الأخير (من وحي الثمانين) بأربعين عاماً.

الوردي في سطور

- ولد في الكاظمية في عام ١٩١٣.
- تخرج في كلية جامعة بيروت الأمريكية عام ١٩٤٣.
- نال شهادة الماجستير في علم الاجتماع في جامعة تكساس الأمريكية عام ١٩٤٨.
- نال شهادة الدكتوراه في علم الاجتماع في جامعة تكساس الأمريكية عام ١٩٥٠.
- درَّس في جامعة بغداد من عام ١٩٥٠ – ١٩٧٠.
- أحيل إلى التقاعد من الجامعة بناء على طلبه في عام ١٩٧٠، ومنحته الجامعة لقب: (أستاذ متمرس).
- صدرت له تسعة كتب هي:
  - شخصية الفرد العراقي.
  - خوارق اللاشعور.
  - وعاظ السلاطين.
  - مهزلة العقل البشري.
  - أسطورة الأدب الرفيع.
  - الأحلام بين العلم والعقيدة.
  - منطق ابن خلدون في ضوء حضارته وشخصيته.

- دراسة في طبيعة المجتمع العراقي.
- لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث (ثمانية أجزاء).

- ترجمت بعض كتبه وأبحاثه إلى الإنجليزية والألمانية والأسبانية والبولونية والفارسية.
- دعته جامعات الكويت والجزائر ووارشو (القسم العربي) لتقييم ومناقشة رسائل ماجستير ودكتوراه في علم الاجتماع.
- ألقى محاضراته في دول عديدة في العالم مثل الصين وأمريكا.
- توفي في بغداد صبيحة يوم ١٣ تموز ١٩٩٥، ودفن في مقبرة براثا التاريخية في بغداد بالقرب من مرقدي الدكتور جواد علي والدكتور طه باقر. ودُفِن بعده في المقبرة نفسها الدكتور علي جواد الطاهر، ولكن كل هذه القبور أزيلت في عام ٢٠٠٣م[١].

---

(١) راجع ملحق رقم (٤).

قالوا في الوردي

صاروخ ثقافي

- قراء الأستاذ الدكتور الوردي يمثلون كثافة ملحوظة، والذين عرفوه منهم عن كثب أو من بعيد أدركوا، ولكن بعد فوات الأوان، أنه صاروخ ثقافي استطاع بجدارة أن يعبر القارات، وهم جميعاً اتفقوا على أنه مؤرخ اجتماعي من طراز فريد، وربما كان كالجرادة التي استعارت هيكلها من مخلوقات عديدة فلها من الحصان وجهه، ومن الغزال عينه، ومن البعير رجله، ومن الطير جناحه، ومن الكنغر وثبته.. الخ، ولكنهم رغم ذلك اختلفوا في تراثه وتوزعوا بين قانع وساخط، فالقانعون عشقوه بلا تحفظ، وهتفوا به صادقاً وغير صادق واعتنقوا معطياته دونما امتحان. أما الساخطون فقد أسقطوا أحكامه التي تتوسد الرواية الشفهية، وكابروا في مواجهة المصادر التي توكلت عليها أحكامه الأخرى.

الباحث والمؤرخ عبد الحميد العلوچي

السهل الممتنع

- إذا كان لا بد من ذكر مؤلَّف بعينه، ففي وسعي القول إن صديقي

الأستاذ الدكتور علي الوردي قد أحرز في هذا السبيل نجاحاً منقطع النظير، ذلك أن مؤلفاته نفيسة جليلة الشأن، كتبها بأسلوبه الشيق السهل الممتنع، فهي تقرأ من قبل مختلف طبقات القراء، فيطالعها المؤرخ والشرطي والأديب والخياط والطبيب والجندي وعالم الاجتماع والصحافي والضابط والمعلم والفنان والتاجر وغيرهم، وكلهم يقرأ هذه الكتب فيستسيغها ويفهمها ويستوعب ما فيها من دون أن يتضايق من قراءتها، ولا ريب عندي في أن الدكتور الوردي يكتب بأسلوب ميسر جذاب مفهوم لدى القراء، ثم إنه وهو العالم في الاجتماع يعرف كيف يطعم كتبه بالمطيبات والتوابل وغير ذلك، فيدخل أموراً سياسية وفكاهية وأدبية في تضاعيف بحثه، فيزداد بذلك إقبال القراء عليه، وهذا هو النجاح في التأليف بعينه.

المؤرخ الكبير گورگيس عواد

علم جديد

- عرفت الأستاذ علي الوردي منذ زمن طويل وجمعتني به لقاءات علمية عدة، واستفدت منه في إجاباته عن أسئلة عدة تخص طبيعة المجتمع العراقي بشكل خاص، والعلاقات الاجتماعية والسياسية للمجتمع العربي الحديث. وكنت قد كتبت ملاحظات نقدية على كتابه الكبير (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) ونشرتها منذ أواخر السبعينات، وسواء اختلفت أو اتفقت مع نظرية الرجل أو تطبيقاته لها، فالأستاذ الوردي يعد واحداً من أبرز العلماء العرب في القرن العشرين السباقين الأوائل في

الكشف عن واحد من المجتمعات العربية المعقدة والمركبة، ألا وهو المجتمع العراقي، إذ عده بعض الدارسين أبا علم الاجتماع ليس العراقي فحسب، بل العربي خصوصاً. إنه قد وظف هذا العلم الجديد منذ أكثر من نصف قرن في دراسة المجتمع العراقي، فضلا عن كونه قد استفاد من أفكار ابن خلدون وخرج بنظريته عن التناقضات التي حكمت المجتمع العربي في صراع البداوة والحضارة التي اتخذ تطبيقاته فيها على المجتمع العراقي الذي عده بيئة خصبة لذلك الصراع المتفاقم في العصر الحديث، مؤكدا أنه شلّ قدرات العرب على التعلم وتطوير المؤسسات المدنية إبان القرن العشرين.

د. سيار الجميل

الفرضية الثالثة

- قبل نصف قرن، وبالتحديد منذ العام ١٩٥١، عندما أصدر كتابه الرائد (شخصية الفرد العراقي) حاول الدكتور علي الوردي أن يقرأ ملامح المجتمع العراقي وسمات صورته الوطنية وملامح شخصية الفرد فيه، عبر فرضيتين هما: (فرضية صراع البداوة والحضارة) و(فرضية ازدواج الشخصية)، الأولى استعارها من ابن خلدون، والثانية من مكايفر. وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاماً من البحث والدرس والمتابعة والمثابرة والتقلب في مختلف حقول المعارف الإنسانية التي توفرت على العقل البشري وما يتمثل به من قريب أو بعيد من مظاهر السلوك وردود الفعل الانفعالية والذهنية، أصدر الوردي أكثر من ثمانية كتب، كان الأخير منها في

أجزاء تجاوزت السبعة. أضاف فيها فرضية ثالثة عدها أساس فرضيته الثانية (ازدواج الشخصية) هي فرضية (التناشز الاجتماعي) أخذها من (أوغبرن) ليتقدم من كل هذه الفرضيات والكتب بموسوعة ضخمة في وصف المجتمع العراقي المعاصر وقراءة تاريخه الحديث والقريب والوسيط، ويؤشر عبر ذلك ملامح الصورة الوطنية للمجتمع العراقي الحديث وسمات شخصية الفرد فيه.

محمد مبارك

تراث ضخم

- كنت في عمَّان صيف العام ١٩٩٥ حين توفي الدكتور علي الوردي وهو في سن الثانية والثمانين، فحزنت حزناً شديداً على فقدان العراق عالماً إجتماعياً كبيرا، بل أكبر عالم فيه، بعد أن فقدنا قبله علماء أجلاء مثل جواد علي وطه باقر وغيرها.

لم ألتق الوردي طوال حياتي، لكني بدأت أقرأ مؤلفاته وأنا تلميذ في الثانوية في العام ١٩٧٥، وبخاصة مؤلفه الكبير (لمحات اجتماعية من تاريخ العراق الحديث) الذي يدرس فيه بنية المجتمع العراقي والشخصية العراقية ابتداء من القرن السادس عشر وحتى القرن العشرين، وهي من أشد الحقب التي عصفت بالعراق وألحقت به الكوارث والنكبات في ظل الاحتلال العثماني، ولا توازيها إلا الكوارث التي لحقت به خلال الحرب العراقية الإيرانية وحرب الخليج والحصار.

لقد مات الوردي مستودعاً العراق تراثاً ضخماً كان مثيراً للجدل خلال نصف قرن من الزمان، هو الأخطر عن تكوين المجتمع

العراقي منذ نشوء الدولة في هذه البلاد.

عواد علي

إعلان جذاب لحياة جديدة

- للموت العراقي الآن طعم مختلف، للموت الذي يتناسل في الأزقة والحارات العتيقة شكل مختلف. الرجل يدور في شوارع الكاظمية التي تلألأت به، يطوف حول ضريح الإمام موسى الكاظم (ع) في محاورة يتوالد عنها ألق الأسئلة الكونية التي حيرت العقل البشري لكنه فكَّ طلاسمها وأحجياتها. الدورة تكتمل حول بغداد بشطارها وعياريها وشقاواتها الذي صورهم الوردي الكبير كما لو أنه قد غاص في أعماقهم، متكئاً على الحكاية الشعبية المنقولة على الشفاه والمثل الدارج الذي صار متناً لطروحاته وفتح له بوابة الدخول السحرية نحو الآخر. قال هذا وترك خلفه لغطاً كثيراً حول منهجه في التقصي ودراسة الفرد. في مجلس الخاقاني الشهري ببغداد يكتمل العقد الفريد، تتوافق الأفكار، وتتناطح ربما، والرجل بعفويته البغدادية يدلق طيب الكلام، لينصت الآخر للبرهان والحجة. أخيراً، استضاف في مضيف جسده العامر السرطان، حاول أن يعقد صفقة ما مع المرض فباع حقوق طبع مؤلفاته لرشوة المرض فلم يفلح، رحل الوردي وظل تراثه الغني خالداً ينهل منه السلطان والعتال والعالم. مات لينتبه إليه الآخرون حتى لكأن الموت إعلان جذاب لحياة جديدة.

علي السوداني

الفهرس

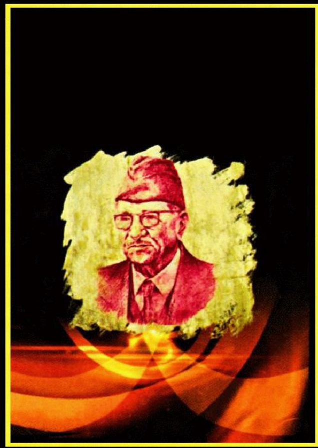


- سلام الشماع
- بغداد ١٩٥٥
- امتهن الصحافة منذ عام ١٩٧٤
- عضو نقابة الصحفيين العراقيين
- عضو اتحاد الصحفيين العرب
- عضو مؤسس لجمعية محبي الدكتور علي الوردي
- عضو المجالس الأدبية والثقافية في العراق
- من مؤلفاته:
  - الجندي المجهول (مطبوع)
  - تحت نار الاحتلال (مخطوط)
  - صناعة السيوف (بالاشتراك مع الدكتور صالح مهدي الهاشم) (مخطوط)
  - جولة في بغداد العباسية (بالاشتراك مع الدكتور عماد عبد السلام رؤوف) (مخطوط)
  - براثا أول مسجد في بغداد (مخطوط)
- البريد الالكتروني: *salam_alshama@yahoo.com*

تصميم الغلاف: أسامة الأسدي

التنضيد والإخراج الفني: محمد البغدادي

بيروت – ٢٠٠٧



كثيرا ما كان الدكتور علي الوردي يردد في مجالسه الخاصة والعامة وبسخرية محببة: (لكل نبي فرعون، وفرعوني هو سلام الشماع).

كان الوردي عالما اجتماعيا فذا لم يال جهدا في دراسة مجتمعه ووضع إصبع النقد على جروحه، وظل طوال عمره الذي تجاوز الثمانين عاما مخلصا لهدفه العظيم ساعيا للارتقاء بمجتمعه إلى مراقي المجتمعات الحضارية المتقدمة.. فكان يحاول أن يغير (الرافدين) إلى (الراين) أو (السين)، وأن يحول مواطن (الهور) أو (كرمة بني سعيد) أو (عرب مشعان) أو (جمجمال) إلى مواطن (الكونكورد) أو (الشانزليزيه) أو (الأوبرا) أو (هوليود) أو (بروكسل) أو (لاهاي) أو (لوزان).. أو يحول (باب المعظم) حيث جامعة بغداد إلى (سان ميشيل) حيث جامعة السوربون..

وقد يسّر الله تعالى للوردي أشخاصا آمنوا بطروحاته وساندوه وأخلصوا له حيا وميتا.. فشهد لهم الوردي بذلك وشكر لهم جهودهم، ومن أقرب هؤلاء إليه كان الأستاذ الصحفي سلام الشماع، الذي شهد له الوردي بأنه (فرعونه) شهادة منه للتاريخ وليشير إلى أهمية الشماع في نشر فكره وجمع المتناثر منه، بل إنه – أي الوردي – أثر الشماع بوثائق وبحوث مخطوطة بيده لثقته أن (فرعونه) سيحسن التصرف بها وسينشرها في الوقت المناسب والمكان المناسب.

إن أهمية هذا الكتاب – وما سيليه – تأتي أولا من كونه اضطم على محاضرات كتبها الوردي بعد بلوغه الثمانين من عمره، وثانيا لأنه ادخرها عند (فرعونه) تاركا له حق تعزيزها بمعلوماته الدقيقة التي استمدها من معايشته الطويلة له في حله وترحاله.

الناشر

مؤسسة البلاغ
للطباعة والنشر والتوزيع
المكتب بئر العبد سنتر الإنماء ١ ـ ط٣ المستودع : حي الأبيض ـ شارع القائم
ص.ب : ١١ ـ ٧٩٥٢ بيروت ٢٢٥٠ ـ ١١٠٧ ـ هاتف : (٠٣/٥١٤٩٠٥) ـ تلفاكس : ٠١/٥٥٣١١٩ لبنان
الموقع الإلكتروني : www.albalagh-est.com
E-mail : Albalagh-est@hotmail.com